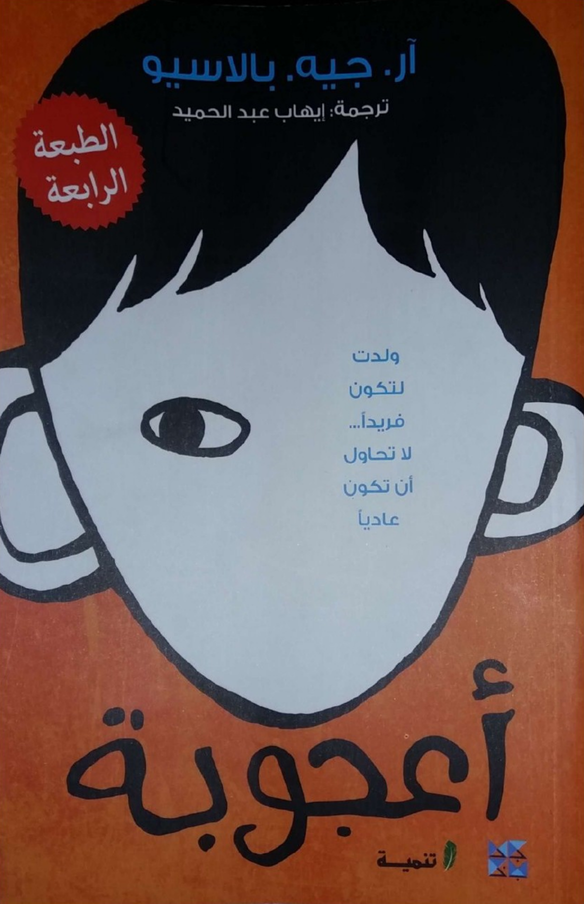
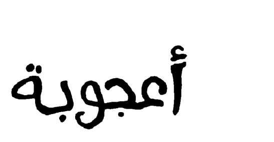

آر. جيه. بالاسيو
ترجمة: إيهاب عبد الحميد
الطبعة الرابعة
ولدت
لتكون
فريداً...
لا تحاول
أن تكون
عادياً
أعجوبة
تنمية


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm


أعجوبة

آر. جيه. بالاسيو

أعجوبة

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

الطبعة العربية الرابعة ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

books.hbkupress.com

صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٥

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٢٧١٠١١٣٧

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

بالاسيو، آر. جيه، مؤلف.

[Wonder]. Arabic

أعجوبة / آر. جيه بالاسيو ؛ ترجمة إيهاب عبد الحميد. – الطبعة

العربية الثالثة. – الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2017.

صفحة ؛ سم

ترجمة كتاب: Wonder.

تدمك : 978-9927-101-13-7 (غلاف عادي)

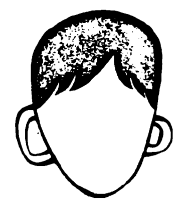
1. التشوهات الخلقية – قصص الأطفال. – 2. قبول الذات – قصص الأطفال. – القصص الأفرو – أمريكية – مترجمات إلى

العربية. ب. عبد الحميد، إيهاب، مترجم. ج. العنوان.

PZ7.P17526 W5124 2017

813.6 – dc 23

الجزء الأول



أوجست

«ابتسمَ النصيب

والقسمة ضحكت

حين رأتني في المهد.»

- نتالي ميرشانت، من أغنية «أعجوبة»

عادي

أعرف أنني لست طفلًا عاديًّا في العاشرة من عمره. أقصد، بالطبع، أفعل أشياء عادية. آكل الآيس كريم. أركب دراجتي. ألعب الكُرة. لديَّ «إكس بوكس». أشياء كهذه تجعلني عاديًّا، فيما أظن. وأنا أشعر أنني عادي. من داخلي. لكنني أعرف أن الأطفال العاديين لا يجعلون غيرهم من الأطفال العاديين يفرون هاربين في ساحات اللعب وهم يصرخون. أعرف أن الأطفال العاديين لا يراهم الناس فتتسع أعينهم لرؤيتهم أينما ذهبوا.

لو عثرت على مصباح سحري وكان لي أن أتمنى أمنية، لتمنيتُ وجهًا طبيعيًّا لا يلاحظه أحد على الإطلاق. لتمنيت أن أستطيع المشي في الشارع من دون أن يراني الناس، فيديرون وجوههم بتلك الطريقة. إليكم نظرتي للأمر: أنا لست عاديًّا ولا أبدو عاديًّا لأحد.

مع ذلك، فقد اعتدت على مظهري نوعًا. أعرف كيف أتظاهر بأنني لا أرى تعبيرات الاشمئزاز على الوجوه. كلنا أصبحنا نجيد هذه الأشياء: أنا، وماما، وبابا، و«فيا». لا، سأسحب هذا: فيا لا تجيدها، بل قد تنزعج جدًّا عندما يتصرف الناس بوقاحة. مثلًا، ذات مرَّة، في إحدى ساحات اللعب، علا صوت بعض الأطفال الأكبر سنًّا. لم أعرف سبب الضجيج لأنني لم أسمعهم بنفسي، لكن

فيا سمعت وراحت تصرخ في هؤلاء الأطفال. هذه هي طبيعتها، لكنها ليست طبيعتي.

فيا لا تراني عاديًّا، تقول إنها تراني عاديًّا، لكن لو كنتُ عاديًّا لما شعرَت بضرورة حمايتي لتلك الدرجة. وماما وبابا لا يرياني عاديًّا، يرياني متميزًا. أعتقد أن الشخص الوحيد في العالم الذي يُدرك كم أنا عادي هو أنا.

اسمي «أوجست»، بالمناسبة. لن أصف لكم مظهري. لكن مهما تخيلتم، فالواقع سيكون، غالبًا، أسوأ.

لماذا لم أذهب إلى المدرسة ؟

الأسبوع المقبل سأبدأ الصف الخامس. وحيث إنني لم أذهب إلى مدرسة حقيقية من قبل، فأنا في حالة هلع. يظن الناس أنني لم أذهب إلى المدرسة بسبب مظهري، لكن السبب غير ذلك. السبب هو تلك الجراحات العديدة التي أُجريت لي. سبع وعشرون جراحة منذ ولادتي. الجراحات الكبيرة أُجريت قبل أن أتم عامي الرابع حتى، ولهذا لا أتذكرها. لكن، من وقتها، صارت تُجرى لي جراحتان أو ثلاث كل عام (بعضها كبير، وبعضها صغير). ولأن حجمي صغير مقارنةً بسِنِّي، ولأنني أُعاني من ألغاز طبية أخرى استعصت على الأطباء، كنتُ أمرض كثيرًا. لهذا السبب قرر والداي أنه من الأفضل ألّا أذهب إلى المدرسة. لكنني أقوى كثيرًا الآن. وآخِر جراحة أُجريت لي كانت قبل ثمانية أشهر، وغالبًا لن أضطر إلى إجراء جراحات أخرى قبل عامين.

علمتني ماما في البيت. كانت رسَّامة كُتب أطفال. وهي بارعة في رسم الجنيَّات والحوريات. مع ذلك فهي ليست بتلك البراعة في الرسم للصبيان. ذات مرَّة حاولت أن ترسم لي شخصية «دارث فيدر» من سلسلة أفلام «حرب النجوم»، لكن النتيجة بدت مثل إنسان آلي غريب الشكل يُشبه «عيش الغراب». لم أرها ترسم شيئًا منذ زمن طويل. أظنها مشغولة جدًّا في رعايتنا أنا وفيا.

لن أقول إنني طالما أردت الذهاب إلى المدرسة، لأن الحقيقة ليست هكذا بالضبط. أردت أن أذهب إلى المدرسة فقط لو استطعت أن أكون مثل بقية الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة. أن يكون لي الكثير من الأصدقاء، نخرج معًا بعد المدرسة، وأشياء من هذا القبيل.

لديَّ الآن بضعة أصدقاء حقيقيين. «كريستوفر» أقرب أصدقائي، يليه «زكاري» و«أليكس». عرفنا بعضنا بعضًا منذ الصِّغر. ولأنهم عرفوني كما أنا من البداية، فقد تعودوا عليَّ. عندما كنا صغارًا، كنا دائمًا نلتقي للعب في منزل أحدنا، لكن «كريستوفر» انتقل إلى «بريدجبورت» في ولاية «كونيتيكت»، أي على بُعد أكثر من ساعة من منزلنا في «نورث ريفر هايتس»، في أعلى نقطة في مانهاتن. ثم التحق زكاري وأليكس بالمدرسة. وبرغم أن كريستوفر هو من انتقل بعيدًا، فالغريب أنني ما زلت أراه أكثر من زكاري وأليكس. لقد أصبح لديهما الآن أصدقاء جُدد. مع ذلك فما زالا يعاملانني بلطف حين نلتقي في الشارع مُصادفةً، ويُلقيان عليَّ التحية.

لديَّ أصدقاء آخرون أيضًا، لكن ليسوا مثل كريستوفر وزكاري وأليكس. مثلًا، كان زكاري وأليكس يحرصان على دعوتي إلى حفلات أعياد ميلادهما عندما كنا صغارًا، لكن «جول» و«إيمن» و«جابي» لم يدعُني أحدهم قَطُّ. «إيما» دعتني مرَّة، لكنني لم أرها منذ زمن. وبالطبع ما زلت أذهب إلى عيد ميلاد كريستوفر. ربما أُضخِّم الأمور أكثر مما تستحق بخصوص حفلات أعياد الميلاد.

كيف جئت إلى الحياة؟

أحب أن تحكي لي ماما تلك القصة لأنها تُضحكني جدًا. ليست مضحكة مثل النِّكات، لكن عندما تحكيها ماما، ننفجر أنا وفيا بالضحك.

عندما كنت في بطن ماما، لم يتصور أحد أنني سأخرج بهذا المظهر. كانت ماما قد أنجبت فيا قبل أربع سنوات، وكان الأمر مثل «نزهة في الحديقة» (بحسب تعبير ماما)، حتى إنها لم ترَ سببًا لإجراء أية فحوصات خاصة. وقبل أن أُولد بشهرين، أدرك الأطباء أن وجهي به مشكلة ما، لكنهم لم يعتقدوا أن الأمر سيكون سيئًا. قالوا لماما وبابا إن لديَّ حَلْقًا مشقوقًا، وبعض الأمور الأخرى، قالوا إنها «عيوب بسيطة».

كانت هناك ممرضتان في غرفة الولادة ليلة مولدي. إحداهما كانت لطيفة جدًا وحلوة. أما الأخرى، كما قالت ماما، فلا يبدو عليها أي لطف أو حلاوة. كانت ذراعاها كبيرتين جدًا، وكانت (هذا هو الجزء المضحك) لا تتوقف عن إصدار الأصوات الغريبة والكريهة! فكانت مثلًا تناول ماما بعض قطع الثلج، ثم تُصدر صوتًا. تقيس لماما ضغط الدم، ثم تُصدر صوتًا. تقول ماما إنه أمر لا يُصدَّق، لأن الممرضة لم تكن تقول معذرة. في هذه الأثناء، لم يكن الطبيب المعالج لماما يعمل تلك الليلة، فوجدتْ نفسها عالقةً

مع هذا الطبيب الصغير حادّ الطباع الذي أطلقت عليه هي وبابا اسم «دوجي»، على اسم برنامج تلفزيوني قديم أو ما شابه (لم يذكرا هذا الاسم في وجهه)، لكن ماما تقول إنه برغم حالة العبوس التي أصابت كلَّ مَن بالغرفة، ظل بابا يُضحكها طوال الليل.

قالت ماما إن الصمت عم الغرفة عندما خرجتُ من بطنها. ولم تجد ماما فرصة لتنظر إليّ، لأن الممرضة اللطيفة انطلقت بي على الفور خارج الغرفة، وهرع أبي يتبعها، حتى إنه أوقع كاميرا الفيديو الخاصة به، فتحطمت إلى مليون قطعة. ثم استاءت ماما استياءً شديدًا وحاولت النزول من السرير لترى إلى أين يذهبان، لكن الممرضة ذات الأصوات إياها وضعت ذراعيها الكبيرتين جدًا على ماما لتُبقيها في السرير. ونشب بينهما عِراك حقيقي، لأن ماما كانت في حالة هستيرية، والممرضة تصرخ فيها أن تهدأ، ثم راحتا تصرخان مناديتين على الطبيب. لكن خمِّنوا ما حدث؟ كان قد أُغشي عليه! سقط على الأرض! وعندما رأته الممرضة صاحبة الأصوات مغشيًا عليه، أخذت تدفعه بقدمها كي تُوقظه، وهي تصرخ فيه بلا انقطاع: «أنت طبيب أنت؟ أنت طبيب أنت؟ انهض! انهض!» وفجأة أخرجت صوتًا كان هو الأكبر والأعلى والأقوى رائحةً في تاريخ هذه الأصوات. وتعتقد ماما أن هذا الصوت هو الذي أيقظ الطبيب أخيرًا! على أية حال، عندما تحكي ماما تلك القصة، تمثل كل الأجزاء - بما في ذلك الأصوات الغريبة وطريقة خروجها - ما يجعلها مضحكة جدًا جدًا جدًا!

تقول ماما إن الممرضة صاحبة الأصوات تَبيَّن أنها امرأة لطيفة جدًّا. ظلت مع ماما طوال الوقت، ولم تفارقها حتى عندما عاد بابا وأخبرهما الأطباء كم أنا مريض. تتذكر ماما بالضبط ما همست به الممرضة في أُذنها عندما أخبرها الطبيب أنني قد لا أعيش حتى الصباح: «كل من وُلِد من الله يغلب العالم». وفي اليوم التالي، بعدما ظللت على قيد الحياة حتى الصباح، كانت تلك الممرضة هي مَن أمسكت بيد ماما عندما اصطحبوها لرؤيتي أول مرَّة.

تقول ماما إنهم كانوا قد أخبروها بكل شيء عني، وظلت تُجهز نفسها لرؤيتي. لكنها تقول إنها عندما نظرت من أعلى إلى وجهي الصغير المهروس للمرَّة الأولى، لم ترَ سوى جمال عينيَّ.

ماما جميلة، بالمناسبة. وبابا وسيم. وفيا حسناء. لعلَّكم تتساءلون.

بيت كريستوفر

تضايقتُ جدًّا عندما انتقل كريستوفر بعيدًا قبل ثلاث سنوات. كنا في السابعة تقريبًا في ذلك الوقت، وكنا نقضي الساعات ونحن نلعب بمجسمات شخصيات «حرب النجوم»، ونتبارز بسيوف الليزر. كم أشتاق إلى ذلك!

في الربيع الماضي انطلقنا بالسيارة إلى منزل كريستوفر في بريدجبورت. كنت أنا وكريستوفر نبحث عن وجبة خفيفة في المطبخ، وسمعت ماما تتكلم مع «ليسا»، والدة كريستوفر، عن دخولي المدرسة في الخريف. ولم أسمعها تذكر المدرسة من قبل.

قلت: «ماذا تقولين؟»

بدت المفاجأة على ماما، وكأنها لم تقصد أن أسمع.

قال بابا: «يجب أن تخبريه بما تفكرين فيه يا «إيزابيل».»

كان على الطرف الآخر من غرفة المعيشة يتحدث إلى والد كريستوفر.

قالت ماما: «سوف نتكلم عن ذلك فيما بعد.»

رددتُ: «لا، أريد أن أعرف ماذا كنتِ تقولين.»

قالت ماما: «ألا تعتقد أنك أصبحت جاهزًا للمدرسة يا «أوجي»؟»

قلت: «لا.»

قال بابا: «ولا أنا.»

قلت، وأنا أهزُّ كتفيَّ: «إذًا، انتهت القضية.»

وجلست في حجرها وكأنني طفل رضيع.

قالت ماما: «كل ما في الأمر أنني أعتقد أنك يجب أن تتعلَّم أكثر مما أستطيع تعليمه لك. أقصد، يا أوجي، أنت تعرف كم أنا سيئة في الكسور!»

قلت، وقد شعرت برغبة في البكاء: «أية مدرسة؟»

«مدرسة «ببيتشر» الخاصة، بجوار منزلنا مباشرة.»

قالت ليسا، وهي تربت على ركبتي: «واو! مدرسة عظيمة يا أوجي!»

قلت: «لماذا لا أذهب إلى مدرسة فيا؟»

أجابت ماما: «لأنها مدرسة كبيرة جدًّا، ولا أعتقد أنها ستناسبك.»

قلت: «لا أريد.»

وأعترف أنني جعلت صوتي يبدو طفوليًّا.

قال بابا، وهو يتجه نحوي ويرفعني من على حِجر ماما: «لستَ مضطرًّا لفعل أي شيء لا تريده.»

حملني وأجلسني على حِجره على الطرف الآخر من الأريكة: «لن نجعلك تفعل أي شيء لا تريده.»

قالت ماما: «لكن ذلك سيكون مفيدًا له يا «نيت»!»

رد بابا، وهو ينظر إليَّ: «ليس إذا كان لا يريد، ليس إذا كان غير مستعد.»

رأيت ماما تنظر إلى ليسا، التي مدَّت ذراعها واحتضنت يدها.

قالت لماما: «سوف تصلون إلى حل، هذا ما تفعلونه دائمًا.»

قالت ماما: «لنتحدث في وقت آخر.»

كنت أعرف أنها وبابا سوف يتشاجران حول الأمر، وتمنيت أن تنتهي المعركة لصالح بابا. مع أن جزءًا مني كان يعرف أن ماما على حق، والحقيقة أنها كانت فظيعة في الكسور فعلًا.

في السيارة

كان الطريق إلى المنزل طويلًا. ونمت في المقعد الخلفي مثل كل مرّة، مُريحًا رأسي على حِجر فيا كأنها وسادتي، والفوطة ملفوفة حول حزام الأمان حتى لا تسقط ريالتي على أختي. ونامت فيا أيضًا، وراحت ماما وبابا يتكلمان بصوت خفيض في مواضيع الكبار التي لا تهمني.

لا أعرف كم نمت، لكن عندما استيقظت، كان البدر ظاهرًا من نافذة السيارة. كانت السماء أرجوانية تلك الليلة، وكنا ننطلق على طريق سريع مليء بالسيارات. ثم سمعت ماما وبابا يتكلمان عني.

همست ماما لبابا الذي يقود السيارة: «لا يمكن أن نحميه إلى الأبد. لا يمكن أن نتظاهر أنه سيستيقظ غدًا وقد تغيرت حقيقته، لأن تلك هي حقيقته يا نيت، وعلينا أن نساعده على أن يتعلم التعامل معها. لا يمكن أن نظل نتجنب المواقف التي...»

أجابها بابا بغضب: «إذًا نسوقه إلى مدرسة إعدادية كما يُساق الحَمل إلى المسلخ...»

لكنه لم يكمل عبارته لأنه لمحني في المرآة أرفع رأسي.

سألت بنعاس: «ما معنى «يُساق الحَمل إلى المسلخ»؟»

قال بابا برِقة: «عُد للنوم يا أوجي.»

قلت، وقد انطلقت في البكاء فجأة: «الجميع سيحدقون فيَّ في المدرسة.»

قالت ماما، وهي تستدير في المقعد الأمامي وتضع يدها على يدي: «يا حبيبي، تعرف أنك لستَ مُضطرًا لذلك. لكننا تحدثنا إلى المدير هناك وكلَّمناه عنك، وهو يريد أن يقابلك.»

«ماذا قلتما عني؟»

«قلنا له كم أنت مرح، وكم أنت طيب وذكي. وعندما أخبرته أنك قرأت رواية «فارس التنين» وأنت في السادسة، اندهش وقال: واو، يجب أن أقابل هذا الفتى!»

قلت: «هل حكيت له أي شيء آخر؟»

ابتسمت لي. وشعرت بنفسي في أحضان ابتسامتها.

قالت: «حكيت له عن كل العمليات الجراحية التي مررت بها، وعن مدى شجاعتك.»

سألتها: «إذًا هو يعرف شكلي؟»

قال بابا: «لقد أخذنا معنا صورًا من مصيف العام الماضي في مونتوك. أطلعناه على صور الأسرة كلها، وعلى تلك الصورة الرائعة لك وأنت مُمسكٌ بسمكة موسى فوق المركب!»

«أنت أيضًا كنت هناك؟»

أعترف أنني شعرت بقدرٍ من الإحباط أنه كان شريكًا في الأمر.

قال بابا: «نعم، نحن الاثنان تكلمنا معه، وهو رجل لطيف جدًّا.»

وأضافت ماما: «سوف تحبه.»

فجأة شعرت بهما في صف واحد.

قلت: «مهلًا! متى ذهبتما لمقابلته؟»

قالت ماما: «لقد اصطحبنا في جولة داخل المدرسة السنة الماضية.»

قلت: «السنة الماضية؟ سنة كاملة وأنتما تفكران في الأمر ولم تخبراني؟!»

أجابت ماما: «لم نكن نعرف إذا كنت ستُقبَل حتى يا أوجي! إن دخول هذه المدرسة صعب جدًّا. هناك إجراءات قبول طويلة، ولم أرَ فائدة في إخبارك وإثارتك بلا فائدة.»

وقال بابا: «لكنك محقٌّ يا أوجي، كان يجب أن نُخبرك عندما عرفنا الشهر الماضي أنك قد قُبلت.»

وتنهدت ماما: «نعم، الآن حين ننظر إلى الوراء، أظننا ندرك خطأنا.»

قلت: «هل السيدة التي جاءت إلى المنزل في تلك المرَّة لها علاقة بالموضوع؛ السيدة التي أعطتني ذاك الاختبار؟»

قالت ماما، وقد بدا عليها الإحساس بالذنب: «نعم، الحقيقة، نعم.»

قلت: «لقد قلتِ لي إنه اختبار ذكاء!»

ردّتْ: «أعرف، حسنًا، كانت كذبة بيضاء. كان يجب أن تجتاز هذا الاختبار كي تُقبل في المدرسة. وقد نجحتَ فيه بتفوق كبير بالمناسبة.»

قلت: «إذًا، فقد كذبتِ!»

«كذبة بيضاء، ولكن نعم. آسفة.»

قالتها وهي تحاول الابتسام، لكن عندما لم أرد ابتسامتها، استدارت في مقعدها ونظرت أمامها.

قلت: «ما معنى «يُساق الحَمل إلى المسلخ»؟»

تنهدت ماما ورمت بابا بـ«نظرة».

قال بابا، وهو ينظر إليّ في المرآة: «ما كان يصح أن أقول هذا، فهو ليس صحيحًا. المسألة هي أنني أنا وماما نحبك جدًّا، ونريد أن نحميك بأية طريقة ممكنة. لكننا أحيانًا نريد حمايتك بطرق مختلفة.»

رددت، وأنا أعقد ذراعيّ: «لا أريد الذهاب إلى المدرسة.»

قالت ماما: «سيكون ذلك في مصلحتك يا أوجي.»

أجبت، وأنا أنظر من النافذة: «ربما أذهب العام المقبل.»

قالت ماما: «هذا العام سيكون أفضل يا أوجي. هل تعلم لماذا؟ لأنك ستدخل إلى الصف الخامس، وهو العام الأول في المدرسة الإعدادية - بالنسبة إلى الجميع. لن تكون وحدك الولدَ المُستجد.»

قلت: «سأكون الولد الوحيد الذي له هذا الشكل.»

أجابت: «لن أنكر أن ذلك يمثل تحديًا كبيرًا لك. فأنت تفهم

جيدًا. لكن ذلك سيكون في مصلحتك يا أوجي. ستكوِّن الكثير من الصَّداقات، وستتعلم أشياء لن تتعلمها مني أبدًا.»

استدارت في مقعدها ثانية ونظرت إليّ: «عندما قمنا بالجولة، هل تعرف ماذا رأينا لديهم في مختبر العلوم؟ كتكوت صغير كان يخرج من البيضة. كان ظريفًا جدًّا يا أوجي، وقد ذكَّرني بك عندما كنتَ طفلًا صغيراً... بعينيك البُنيتين الصغيرتين هاتين...»

عادة، أحبهما عندما يتحدثان عني وأنا طفل. أحيانًا أريد أن أتكور على نفسي وأتركهما يحتضناني ويقبّلاني في كل مكان. أشعر بالحنين للزمن الذي كنت فيه طفلًا، لا أعرف شيئًا، لكنني لم أكن في هذا المزاج ساعتها.

قلت: «لا أريد الذهاب.»

سألَت ماما: «ما رأيك في هذا؟ هل يمكنك على الأقل مقابلة الأستاذ «توشمان» قبل أن تتخذ قرارك؟»

قلت: «أستاذ توشمان؟»

أجابت ماما: «المدير.»

كررتُ: «توشمان؟»

قال بابا وهو يبتسم وينظر إليّ في المرآة: «أعرف، صح؟ هل تُصدِّق هذا الاسم يا أوجي؟ أقصد، أي إنسان على سطح الأرض يقبل بأن يكون له اسم مثل توشمان «أبو أرداف»؟!»

ابتسمتُ، برغم أنني لم أرغب في الابتسام أمامهما. كان بابا

هو الشخص الوحيد في العالم الذي يجعلني أضحك مهما كنت لا أرغب في الضحك. كان بابا قادرًا على إضحاك الجميع.

قال بابا مُتحمسًا: «أوجي، تعرف، يجب أن تذهب إلى تلك المدرسة فقط لتسمع هذا الاسم يتردد في مكبرات الصوت! هل تتخيل أية متعة ستكون؟»

ثم غيَّر صوته ليُشبه صوت سيدة عجوز: «نداء! نداء! الأستاذ أبو أرداف! أهلًا يا أستاذ أبو أرداف. لماذا جئت اليوم في «مؤخرة» المُدرِّسين؟ آه، يبدو أن «خلفية» سيارتك أُصيبت في حادثة، الخبطة واضحة بجوار «المقعدة» الخلفية!»

بدأت أضحك، ليس لأنني وجدته مُضحكًا لهذه الدرجة، لكن لأن مزاجي تحسَّن ولم أعد غاضبًا.

واصل بابا بصوته العادي: «عمومًا هناك أسماء أسوأ. أنا وماما كان عندنا أستاذة في الكلية اسمها الآنسة «عجيزة».»

أخذت ماما تضحك هي الأخرى.

قلت: «هل هذا صحيح؟»

أجابت ماما وهي ترفع يدها فيما يشبه القَسَم: «صحيح، الآنسة عجيزة.»

قال بابا: «وكانت لديها أشياء كبيرة.»

قالت ماما: «نيت!»

«ماذا؟ أقصد خدَّيها! كانا كبيرين.»

ضحكت ماما وهي تهز رأسها.

قال بابا مُتحمسًا: «ها، لديَّ فكرة. هيا نجمعهما في موعد ونُعرفهما معًا. هل تتخيل؟ الآنسة عجيزة تقابل الأستاذ أبو أرداف. أستاذ أبو أرداف، أُقدِّم لك الآنسة عجيزة. يمكن أن يتزوجا وينجبا «مؤخرات» صغيرة!»

ردت ماما وهي تهز رأسها: «مسكين يا أستاذ توشمان. كل ذلك يا نيت وأوجي لم يقابله بعد!»

«مَن هو الأستاذ توشمان؟»

قالتها فيا بنعاس، وقد استيقظت لتوها.

أجبت: «إنه مدير مدرستي الجديدة.»

نداء! نداء! الأستاذ أبو أرداف

كنت سأصبح أكثر توترًا قبل لقاء الأستاذ توشمان لو عرفت أنني سأقابل أيضًا بعض الصِّبية من المدرسة الجديدة. لكنني لم أعرف، وهكذا أخذت أضحك ضحكات مكتومة. لم أستطع التوقف عن التفكير في كل تلك النكات التي ألّفها بابا على اسم الأستاذ توشمان. لذا عندما وصلت أنا وماما إلى مدرسة بيتشر الخاصة قبل بضعة أسابيع من بدء الدراسة ورأيت الأستاذ توشمان يقف هناك، في انتظار دخولنا، بدأت أضحك على الفور. مع ذلك، فلم يكن كما تصوّرته على الإطلاق. ظننت أنه سيكون صاحب مؤخرة كبيرة، لكنه لم يكن كذلك. في الواقع كان رجلًا عاديًا جدًا، طويلًا ونحيفًا، كبيرًا، لكن ليس مُسِنًا. وبدا لطيفًا. صافح ماما أولًا.

قالت ماما: «أهلًا يا أستاذ توشمان، سعيدة برؤيتك من جديد. هذا هو ابني، أوجست.»

نظر الأستاذ توشمان إليّ مباشرة وابتسم وأومأ برأسه. ومد يده لمصافحتي، قائلًا بصوت عادي تمامًا: «أهلًا يا أوجست. سعيد برؤيتك.»

«أهلًا.»

همهمت بتلك الكلمة وأنا أضع يدي في يده وأنظر إلى قدميه. كان ينتعل حذاء «أديداس» أحمر.

قال، وهو ينحني أمامي بحيث لم يعد بإمكاني النظر إلى حذائه، واضطررت إلى النظر إلى وجهه: «ماما وبابا حدثاني عنك كثيراً.»

سألته: «ماذا قالا لك؟»

«معذرة؟»

قالت ماما: «حبيبي، يجب أن ترفع صوتك.»

سألت، وأنا أحاول ألا أهمهم (أعترف بأن لديَّ عادة الهمهمة): «ماذا قالا لك؟»

رد الأستاذ توشمان: «قالا إنك تحب القراءة، وإنك فنان عظيم.»

كانت عيناه زرقاوين برموش بيضاء.

«وإنك تحب العلوم، صحيح؟»

قلت وأنا أومئ برأسي: «آها.»

قال: «لدينا في مدرسة بيتشر بعض المواد العلمية الاختيارية الرائعة. ربما تختار مادة منها.»

قلت، وأنا لا أعرف ما هي المواد الاختيارية: «آها.»

«إذاً، هل أنت جاهز للقيام بجولة؟»

قلت: «تقصد أننا سنفعل ذلك الآن؟»

أجاب مُبتسمًا وهو ينهض: «هل ظننت أننا سنذهب إلى السينما؟»

قلت لماما بنبرة اتهام: «لم تذكري لي أننا سنقوم بجولة!»

بدأت تقول: «أوجي...»

وقال الأستاذ توشمان، وهو يمد يده إليّ: «سيكون الأمر على ما يُرام يا أوجي. أَعِدُك.»

أظن أنه كان يريدني أن أمسك يده، لكنني أمسكت يد ماما.

ابتسم وتحرك باتجاه المدخل.

ضغطت ماما على يديّ برِقة، ولكنني لم أعرف هل هي ضغطة بمعنى «أحبك» أم بمعنى «أنا آسفة». ربما كان بها شيء من الاثنين.

المدرسة الوحيدة التي دخلتها من قبل كانت مدرسة فيا، عندما كنت أذهب مع ماما وبابا لمشاهدة فيا وهي تغني في حفلات الربيع وما شابه. لكن هذه المدرسة كانت مختلفة تمامًا، كانت أصغر، ورائحتها تشبه رائحة المستشفى.

السيدة جارسيا اللطيفة

سرنا وراء الأستاذ توشمان في عدد من الممرّات. لم نصادف الكثيرين. والقليلون الذين صادفناهم لم يبدُ أنهم لاحظوني على الإطلاق، ولو أن ذلك قد يكون لأنهم لم يروني أصلًا. كنت أسير محاولًا الاختباء خلف ماما. أعرف أن ذلك قد يبدو طفوليًّا، لكنني لم أكن أشعر بقدر كبير من الشجاعة في تلك اللحظة.

انتهينا إلى غرفة صغيرة مكتوب على بابها: «مكتب مدير المدرسة الإعدادية». في الداخل، كان هناك مكتب تجلس خلفه سيدة لطيفة المظهر.

«هذه هي السيدة «جارسيا».»

قالها الأستاذ توشمان، فابتسمت السيدة لماما، وخلعت نظارتها، ونهضت عن كرسيها.

صافحتها ماما وقالت: «إيزابيل بولمان، فرصة سعيدة.»

وقال الأستاذ توشمان: «وهذا أوجست.»

انتحت ماما جانبًا قليلًا، كي أتقدَّم أنا إلى الأمام. ثم حدث ذلك الشيء الذي رأيته يحدث مليون مرّة من قبل؛ عندما رفعت وجهي باتجاه السيدة جارسيا، سقطت عيناها للحظة. كان الأمر سريعًا لدرجة أن أحدًا غيري لم يلاحظه، إذ ظل بقية وجهها على حاله. كانت تبتسم ابتسامة مُشرقة جدًّا.

قالت، وهي تمد يدها لتصافحني: «سعيدة جدًا بمقابلتك يا أوجست.»

«أهلًا.»

قلتها بخفوت، وأنا أناولها يدي، لكنني لم أرغب في النظر إلى وجهها، فظللت أحدق في نظارتها المدلاة من سلسلة مُعلَّقة في رقبتها.

قالت السيدة جارسيا: «واو! قبضتك قوية!»

كانت يدها دافئة جدًا.

أمَّن الأستاذ توشمان على كلامها: «الولد لديه قبضة حديدية!»

وضحك الجميع فوق رأسي.

قالت السيدة جارسيا: «يمكنك أن تناديني بـ«السيدة جي».»

أظنها كانت تتحدث إليَّ، لكنني كنت أنظر لحظتها إلى كل الأشياء الموجودة فوق مكتبها.

«هكذا يناديني الجميع: «سيدة جي، لقد نسيت أرقام القفل!» «سيدة جي، أريد قسيمة تأخير!» «سيدة جي، أريد أن أغير مادتي الاختيارية!»»

«السيدة جي هي التي تدير المكان فعليًا.»

قالها الأستاذ توشمان، فضحك كل الكبار مُجددًا.

تابعت السيدة جارسيا، وهي لا تزال تنظر إليَّ بينما أحدق أنا في صندلها البُني الذي تُزين مِشبكَيْه زهورٌ أرجوانية: «أنا هنا كل

صباح من السابعة والنصف. إذا أردت أي شيء يا أوجست، اطلبه مني. ويمكنك أن تطلب مني أي شيء.»

همهمتُ: «طيب.»

قالت ماما، وهي تشير إلى إحدى الصور على لوحة الإعلانات الخاصة بالسيدة جارسيا: «آه، انظر إلى هذا الطفل الرقيق. هل هو ابنكِ؟»

قالت السيدة جارسيا، وهي تبتسم ابتسامة عريضة تختلف تمامًا عن ابتسامتها المُشرقة: «لا، يا خبر! لقد أسعدتِ قلبي. إنه حفيدي.»

قالت ماما، وهي تهز رأسها: «يا جماله! كم عمره؟»

«في الصورة كان عمره خمسة أشهر، أعتقد. لكنه كبر الآن. ثماني سنوات تقريبًا!»

قالت ماما، وهي تومئ برأسها وتبتسم: «ياه! عمومًا هو آية في الجمال.»

«شكرًا.»

قالتها السيدة جارسيا، وهي تومئ برأسها وكأنها توشك أن تقول شيئًا آخر عن حفيدها. لكن ابتسامتها ضاقت فجأة، وقالت لماما: «كلنا سنولي أكبر العناية لأوجست.»

رأيتها تضغط قليلًا على يد ماما. نظرت إلى وجه ماما، فأدركت أنها عصبية مثلي تمامًا. أظنني أحببت السيدة جارسيا - وهي لا تبتسم ابتسامتها المُشرقة.

جاك ويل، وجوليان، وتشارلوت

سرنا وراء الأستاذ توشمان، ودخلنا غرفة صغيرة مقابِلة لمكتب السيدة جارسيا. كان يتكلم وهو يغلق باب الغرفة ويجلس خلف مكتبه الضخم، لكنني لم أنتبه كثيراً لما يقوله. أخذت أجول بنظري على كل الأشياء الموضوعة على مكتبه. أشياء ظريفة، مثل كرة أرضية تطفو في الهواء، ومكعب سحري من مكعبات «روبيك» مصنوع من مرايا صغيرة. أعجبتني غرفة مكتبه كثيراً. أعجبتني جدرانها المُزْدَانة بكل تلك الرسومات واللوحات الصغيرة الأنيقة المرسومة بأيدي طلاب، وقد وُضعت في إطارات وكأنها أعمال مهمة.

جلست ماما في الكرسي المقابل لمكتب الأستاذ توشمان، وكان هناك كرسي آخر بجوار كرسيها مباشرة، لكنني قررت أن أقف وراءها. قلت: «لماذا لديك غرفة خاصة والسيدة جي لا؟»

سأل الأستاذ توشمان: «تقصد لماذا عندي مكتب؟»

قلت: «أنت قلت إنها تدير المكان.»

«آه. لقد كنت أمزح. السيدة جي هي مساعدتي.»

أوضحت ماما: «الأستاذ توشمان هو مدير المدرسة الإعدادية.»

«هل يدعونك «السيد تي»؟»

سألته هذا السؤال فابتسم. أجاب: «هل تعرف من هو السيد تي؟ فيلم روكي؟ صاحب عبارة «أنا لا أكره هذا الأحمق... أنا أشفق عليه»؟»

قالها بصوت خشن مضحك، كما لو كان يُقلِّد شخصًا ما. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن أي شيء يتكلم.

قال الأستاذ توشمان، وهو يهز رأسه: «على أية حال، لا. لا أحد يدعوني السيد تي، مع أن عندي إحساسًا أنهم يطلقون عليَّ أسماء أخرى كثيرة لا أعرفها. لنواجه الحقيقة، ليس من السهل أن تعيش باسم مثل اسمي، تعرف قصدي؟»

هنا، أعترف أنني انفجرت في الضحك، لأنني كنت أعرف جيدًا ماذا يقصد.

قلت: «ماما وبابا كان عندهم مُدرِّسة اسمها الآنسة عجيزة!»

«أوجي!»

قالتها ماما، لكن الأستاذ توشمان ضحك. وقال وهو يهز رأسه: «هذا أسوأ! أظن أنه لا يحق لي أن أشكو. اسمع إذًا يا أوجست، هذا ما فكرت أن نفعله اليوم.»

قلت، وأنا أشير إلى لوحة ذات إطار مُعلَّقة خلف مكتب الأستاذ توشمان: «هل هذه ثمرة قَرْع؟»

قالت ماما: «أوجي، حبيبي، لا تقاطع.»

قال الأستاذ توشمان، وهو يستدير وينظر إلى اللوحة: «هل تُعجبك؟ وأنا أيضًا، وأنا أيضًا ظننتها ثمرة قرع، حتى شرح لي

الطالب الذي أهداها إليّ أنها ليست ثمرة قرع في الواقع. إنها... هل أنت جاهز للمفاجأة... إنها صورة شخصية لي! الآن يا أوجست، أسألك: هل الشبه بيني وبين ثمرة القرع كبير إلى هذه الدرجة؟»

أجبته: «لا!»

برغم أنني كنت أفكر في نعم. عندما يبتسم ينتفخ خداه فيصبح شبيهًا بفانوس العفريت المصنوع من القرع. وفور أن مرت الفكرة ببالي، وجدت الأمر مضحكًا جدًّا، ثمرة القرع المنفوخة والأستاذ أبو أرداف. وبدأت أضحك قليلًا، ثم هززت رأسي وغطيت فمي بيدي.

ابتسم الأستاذ توشمان وكأنه يقرأ أفكاري.

أوشكت على النطق بشيء آخر، لكن فجأةً سمعت أصواتًا أخرى خارج المكتب؛ أصوات صبية. لا أبالغ حين أقول هذا، لكن قلبي بدأ يدق وكأنني قد انتهيت من العَدْو في أطول سباق في العالم. وانسكبت الضحكة التي كانت مكتومة بداخلي.

عندما كنت صغيرًا، لم أكن أُمانع مُطلقًا في مقابلة أطفال جُدد، لأن كل الأطفال الذين كنت أراهم كانوا صغارًا جدًّا بدورهم. والظريف في الأطفال الصغار هو أنهم لا يقولون أشياء يحاولون بها إيذاء مشاعرك، مع أنهم في بعض الأحيان يفعلون أشياء تؤذي مشاعرك، لكنهم لا يعرفون حقًّا ماذا يقولون. أما الأولاد الكبار، فهم يعرفون ماذا يقولون، وأنا لا أجد ذلك أمرًا ظريفًا بكل تأكيد. أحد الأسباب التي جعلتني أُطيل شعري العام الماضي، هو أنني

أحب قُصّتي عندما تغطي عينيّ، فهذا يساعدني على حَجْب الأشياء التي لا أريد رؤيتها.

طرقت السيدة جارسيا الباب ودسّت رأسها داخل الغرفة.

قالت: «لقد وصلوا يا أستاذ توشمان.»

قلت: «مَن الذي وصل؟»

قال الأستاذ توشمان للسيدة جارسيا: «شكرًا. أوجست، لقد فكرت أنها ستكون فكرة جيدة أن تقابل بعض الطلبة الذين سيكونون زملاءك في غرفة استقبال الصف هذا العام. أعتقد أنهم يمكن أن يصحبوك في جولة قصيرة في المدرسة، أن يُعرفوك على تفاصيل الخريطة بمعنى ما.»

قلت لماما: «لا أريد مقابلة أحد.»

فجأة، وجدت الأستاذ توشمان أمامي مباشرة، يداه على كتفي. انحنى وهمس في أذني برِقة بالغة: «سيكون كل شيء على ما يُرام يا أوجست. إنهم أولاد طيبون، أعِدُك.»

همست ماما بكل قوتها: «ستكون بخير يا أوجي.»

وقبل أن تقول شيئًا آخر، فتح الأستاذ توشمان باب مكتبه، قائلًا: «ادخلوا يا أولاد.»

ودخل ولدان وبنت. لم ينظر أيٌّ منهم إليّ أو إلى ماما؛ وقفوا بجوار الباب ينظرون مباشرة إلى الأستاذ توشمان، وكأن حياتهم تتوقف على ذلك.

قال الأستاذ توشمان: «شكرًا جزيلًا على حضوركم يا شباب -

خصوصًا أن الدراسة لن تبدأ قبل الشهر المقبل - هل استمتعتم بالصيف؟»

أومأوا جميعًا، لكن لم ينطق أحدهم بكلمة.

قال الأستاذ توشمان: «عظيم، عظيم. إذًا يا شباب، أردتكم أن تقابلوا أوجست، الذي سيكون طالبًا جديدًا هنا هذا العام. أوجست، هؤلاء الشباب طلاب في مدرسة بيتشر الخاصة منذ الروضة، وإن كانوا، بالطبع، في المبنى الخاص بالمدرسة الابتدائية، لكنهم يعرفون كل تفاصيل برنامج المدرسة الإعدادية. وبما أنكم زملاء في غرفة الاستقبال نفسها، فكرت أنه سيكون من اللطيف أن تتعارفوا قليلًا قبل بدء الدراسة. طيب؟ إذًا يا أولاد، هذا هو أوجست. أوجست، هذا «جاك ويل».»

نظر جاك ويل إليّ ومد يده. عندما صافحته ابتسم نصف ابتسامة وقال: «أهلًا.»

ثم أطرق برأسه بسرعة جدًا.

قال الأستاذ توشمان: «هذا «جوليان».»

قال جوليان: «أهلًا.»

وفعل ما فعله جاك ويل بالضبط؛ تناول يدي، اصطنع ابتسامة، ثم أطرق برأسه بسرعة.

قال الأستاذ توشمان: «وهذه «تشارلوت».»

كانت تشارلوت أكثر فتاة شقراء رأيتها في حياتي. لم تصافحني،

بل لَوَّحَتْ لي بيدها وابتسمت. قالت: «أهلًا يا أوجست، فرصة سعيدة.»

«أهلًا!»

رددت عليها وأنا أطرق برأسي. كانت ترتدي حذاء «كروكس» أخضر فاتحًا.

قال الأستاذ توشمان، وهو يضم يديه معًا وكأنه يصفق ببطء: «طيب. ما فكرت فيه يا شباب هو أنه يمكنكم أن تصحبوا أوجست في جولة صغيرة بالمدرسة. ربما يمكن أن تبدأوا بالطابق الثالث، حيث غرفة الاستقبال؛ غرفة ٣٠١. أعتقد. سيدة جي. هل...»

علا صوت السيدة جي من الغرفة الأخرى: «غرفة ٣٠١!»

أومأ الأستاذ توشمان: «غرفة ٣٠١. وبعدها يمكن أن ترافقوا أوجست إلى مختبرات العلوم وغرفة الكمبيوتر. ثم انزلوا إلى المكتبة وقاعة العروض في الطابق الثاني. وخذوه إلى الكافتيريا طبعًا.»

سأل جوليان: «هل نأخذه إلى غرفة الموسيقى؟»

قال الأستاذ توشمان: «فكرة جيدة، نعم. أوجست، هل تعزف على أية آلة موسيقية؟»

قلت: «لا.»

لم تكن الموسيقى هي مادتي المفضلة، فليس عندي أذنان بالمعنى المعروف. أقصد، عندي أذنان، لكنهما لا تبدوان مثل الآذان الطبيعية.

قال الأستاذ توشمان: «طيب. ربما تستمتع برؤية غرفة الموسيقى على أية حال. لدينا مجموعة ممتازة من آلات الإيقاع.»

قالت ماما: «أوجست، لقد كنت تريد أن تتعلم العزف على الطبلة.»

كانت تحاول أن تجعلني أنظر إليها، لكن قُصّتي كانت تغطي عينيّ وأنا أحدق في قطعة لبان قديمة لُصقت في أسفل مكتب الأستاذ توشمان.

قال الأستاذ توشمان: «عظيم. طيب، لماذا لا تبدأون يا شباب؟ ارجعوا بعد...»

نظر إلى ماما: «نصف ساعة معقول؟»

أظن أن ماما أومأت.

سألني: «هل يناسبك هذا يا أوجست؟»

لم أُجِب.

كررتْ ماما: «هل يناسبك هذا يا أوجست؟»

نظرتُ إليها. أردتُ أن ترى مقدار غضبي منها، لكنني رأيت وجهها فاكتفيت بإيماءة. لقد بدت أكثر رعبًا مني.

كان الأولاد الآخرون قد بدأوا الخروج من الباب، فتبعتُهم.

قالت ماما، بصوت أعلى قليلًا من الطبيعي: «أراك قريبًا.»

لم أرد عليها.

الجولة الكبيرة

سرنا أنا وجاك ويل وجوليان وتشارلوت في ممر طويل حتى وصلنا إلى سلالم عريضة. لم ينطق أيٌّ منا بكلمة ونحن نصعد إلى الطابق الثالث.

عندما وصلنا إلى أعلى، سرنا في ممر صغير مليء بأبواب كثيرة. فتح جوليان الباب رقم ٣٠١.

قال، وهو يقف أمام الباب نصف المفتوح: «هذه هي غرفة استقبال الصف الخاصة بنا. لدينا الأستاذة «بيتوسا». يقولون إنها معقولة، على الأقل بالنسبة لغرفة الاستقبال، لكنني سمعت أنها في غاية الشدة عندما تُدرِّس الرياضيات.»

قالت تشارلوت: «هذا ليس صحيحًا. لقد درَّست لأختي العام الماضي، وأختي قالت إنها لطيفة جدًّا.»

أجاب جوليان: «هذا ليس ما سمعته، ولكن أيًّا كان.»

أغلق الباب وواصل السير في الممر.

قال عندما وصل إلى الباب التالي: «هذا هو مختبر العلوم.»

وكما فعل قبل ثانيتين، وقف أمام الباب، وفتحه نصف فتحة وبدأ يتكلم. لم ينظر إليَّ مرَّة واحدة وهو يتكلم، ولم أمانع في ذلك، فأنا أيضًا لم أكن أنظر إليه: «لن تعرف من سيُدرِّس لك العلوم

حتى أول أيام الدراسة، لكن من حظك أن يكون الأستاذ «هالر» كان يدرِّس في المدرسة الابتدائية، وهو يعزف هذا النفير العملاق في الفصل.»

قالت تشارلوت: «اسمه بوق الباريتون.»

رد جوليان، وهو يغلق الباب: «اسمه نفير!»

قال جاك ويل وهو يزيح جوليان ويفتح الباب: «يا رجل، دَعْهُ يدخل حتى يُلقي نظرة.»

قال جوليان: «ادخل إذا أردت.»

كانت أول مرَّة ينظر إليَّ.

هززت كتفيَّ واتجهت نحو الباب. أفسح جوليان الطريق بسرعة، وكأنه خائف أن ألمسه عرضًا وأنا أمُر بجواره.

قال جوليان، وهو يدخل ورائي: «لن ترى الكثير.»

بدأ يشير إلى بضعة أشياء في أنحاء الغرفة: «هذه هي الحاضنة. هذا الشيء الأسود الكبير هو السبورة. تلك الأشياء هي المكاتب. وتلك هي الكراسي. وهذه مواقد بَنسن، وهذا ملصق علمي مُقرف. وهذا طباشير. وهذه هي الممحاة.»

قالت تشارلوت، بصوت يشبه صوت فيا بعض الشيء: «بالتأكيد يعرف الممحاة.»

رد جوليان: «وكيف أعرف ما يعرفه؟ الأستاذ توشمان قال إنه لم يذهب إلى مدرسة من قبل.»

سألتني تشارلوت: «أنت تعرف الممحاة، صح؟»

أعترف أنني كنت متوترًا جدًّا، حتى إنني لم أعرف ماذا أقول أو أفعل سوى النظر إلى الأرض.

سأل جاك ويل: «هيه. هل تستطيع الكلام؟»

أومأت برأسي: «نعم.»

لم أكن قد نظرت إلى أيٍّ منهم بعد، ليس مباشرة.

سأل جاك ويل: «أنت تعرف المحاة، صح؟»

همهمت: «بالطبع.»

قال جوليان، وهو يهز كتفيه: «قلت لك إنك لن ترى الكثير.»

قلت بصوت حاولت أن أجعله متماسكًا: «عندي سؤال... ما هي غرفة الاستقبال بالضبط؟ هل هي مادة من المواد؟»

أوضحت تشارلوت، متجاهلة ابتسامة جوليان المتهكمة: «لا، هي فقط مجموعتك. أول مكان تذهب إليه في الصباح، فيقوم مدرس غرفة استقبال الصف بأخذ الحضور وأشياء من هذا القبيل. تستطيع أن تقول إنه فصلك الرئيسي، ولو أنه ليس فصلًا بالضبط. أقصد، هو فصل، لكن...»

قال جاك ويل: «أظنه فَهِم يا تشارلوت.»

سألتني تشارلوت: «هل فهمت؟»

أومأت لها: «نعم.»

قال جاك ويل، وهو يمضي بعيدًا: «طيب، هيا نخرج من هنا.»

قالت تشارلوت: «انتظر يا جاك، من المفترض أن نُجيب عن أسئلته.

أدار جاك ويل عينيه قليلًا وهو يستدير ناحيتنا، ثم سأل: «هل لديك أسئلة أخرى؟»

أجبت: «مم، لا. آه، طيب، في الحقيقة، نعم. هل اسمك جاك أم جاك ويل؟»

«اسمي الأول جاك واسم عائلتي ويل.»

«آه، لأن الأستاذ توشمان قدَّمك لي باسم جاك ويل، فظننت...»

ضحك جوليان: «ها! ظننت أن اسمه جاكويل!»

قال جاك وهو يهز كتفيه: «نعم، بعض الناس ينادونني باسمي واسم العائلة. لا أعرف لماذا! على أية حال، هل نذهب الآن؟»

قالت تشارلوت، وهي تقودنا خارج غرفة العلوم: «هيا نذهب إلى قاعة العروض. إنها مكان لطيف جدًّا. ستُعْجِبُك يا أوجست.»

قاعة العروض

لم تتوقف تشارلوت عن الكلام ونحن ننزل إلى الطابق الثاني. كانت تصف المسرحية التي عرضوها السنة الماضية، مسرحية «أوليفر». وقد لعبت هي دور أوليفر برغم كونها فتاة. وبينما كانت تقول ذلك دفعت الباب المزدوج فانفتح كاشفًا عن قاعة كبيرة، في نهايتها خشبة مسرح.

أخذت تشارلوت تتقافز في اتجاه الخشبة. وركض جوليان خلفها، ثم استدار في منتصف الطريق في الممر.

«هيا!»

قالها بصوت عالٍ مشيراً إليَّ أن أتبعه، فتبعته.

قالت تشارلوت: «كان الجمهور بالمئات في تلك الليلة.»

واستغرقتُ لحظة كي أدرك أنها ما زالت تتكلم عن أوليفر.

«كنت متوترة جدًا جدًا. كانت سطوري كثيرة جدًا، ويجب أن أغني كل تلك الأغاني. كان الأمر صعبًا جدًا جدًا جدًا!...»

كانت تتحدث إليَّ، لكنها لا تنظر إليَّ كثيراً.

«في ليلة الافتتاح، كان والداي بعيدَين في آخر القاعة، حيث يقف جاك الآن، لكن عندما انطفأت الأنوار، لا تستطيع أن ترى من تلك المسافة. لذا كنت أقول في نفسي: «أين والداي؟

أين والداي؟»، ثم جاء الأستاذ «ريسنيك» - الذي كان يدرس لنا الفنون المسرحية العام الماضي - وقال: «تشارلوت، كُفّي عن التصرف كنجمة!» فقلت: «حسنًا!»، ثم رأيت والديَّ فشعرت أنني في أفضل حال. لم أنسَ سطرًا واحدًا.»

وهي تتكلم، لاحظتُ أن جوليان يحدق فيَّ من زاوية عينه. وهذا شيء أرى الناس يفعلونه كثيرًا معي. يظنون أنني لا أعرف أنهم يحدقون، لكنني أعرف من الطريقة التي تميل بها رؤوسهم. استدرت لأرى أين ذهب جاك. كان قد توقف في آخر القاعة، وكأنه يشعر بالملل.

قالت تشارلوت: «كل سنة نعرض مسرحية.»

قال جوليان متهكمًا: «لا أظنه سيرغب في الظهور في مسرحية مدرسية يا تشارلوت.»

ردت تشارلوت وهي تنظر إليَّ: «يمكنك أن تكون في المسرحية من دون أن تكون حقًّا «في» المسرحية. يمكنك إدارة الإضاءة. يمكنك رسم الخلفيات.»

قال جوليان، وهو يُدور إصبعه في الهواء في ملل: «آه، نعم، يا سلام!»

قالت تشارلوت، وهي تهز كتفيها: «لكنك لست مُضطرًّا لاختيار مادة الفنون المسرحية إذا لم ترغب في ذلك. هناك الرقص، والكورال، والموسيقى. وهناك إعداد القادة.»

قاطعها جوليان: «الحمقى هم الذين يختارون إعداد القادة.»

قالت تشارلوت: «جوليان، لا تكن مبتذلًا!»

ضحك جوليان، وقلت أنا: «سأختار العلوم.»

قالت تشارلوت: «لطيف!»

نظر جوليان صوبي مباشرة، وقال: «من «المُنفرَض» أن العلوم هي أصعب المواد الاختيارية على الإطلاق. لا أقصد الإساءة، لكن إذا كنت لم تذهب إلى المدرسة من قبل قَطُّ، فلماذا تظن أنك ستكون ذكيًا فجأة بما يسمح لك باختيار العلوم؟ أقصد، هل سبق لك حتى أن درست العلوم من قبل؟ أقصد العلوم بحق، لا تلك التي قد تجدها في ألعاب التجارب العلمية.»

أومأت برأسي: «نعم.»

قالت تشارلوت: «لقد درس في البيت يا جوليان!»

سأل جوليان، وقد بدا عليه الارتباك: «إذًا، هل كان المدرسون يذهبون إليه في البيت؟»

أجابت تشارلوت: «لا، والدته درَّست له.»

قال جوليان: «وهل هي مُدرِّسة؟»

سألتني تشارلوت: «هل والدتك مُدرِّسة؟»

قلت: «لا.»

قال جوليان، وكأن هذا يؤكد وجهة نظره: «إذًا هي ليست مُدرِّسة حقيقية! هذا هو قصدي. كيف يمكن لشخص ليس مُدرِّسًا حقيقيًا أن يُدرِّس العلوم فعلًا؟»

قالت تشارلوت، وهي تنظر إليَّ: «أنا متأكدة أنك ستكون بخير.»

نادى جاك، وقد بدا عليه الملل: «كفى، دعونا نذهب إلى المكتبة الآن.»

سألني جوليان: «لماذا شَعرُك بهذا الطول؟»

بدا وكأن ذلك يضايقه، ولم أعرف بمَ أردُّ، فاكتفيت بهز كتفيَّ.

قال: «هل أسألك سؤالًا؟»

هززت كتفيَّ ثانية، ألم يسألني سؤالًا حالًا؟

«ما مشكلة وجهك؟ أقصد، هل كنت في حريق أو ما شابه؟»

قالت تشارلوت: «جوليان، لا تكن وقِحًا هكذا!»

قال جوليان: «أنا لست وقِحًا. أنا فقط أسأله سؤالًا. الأستاذ توشمان قال إن بإمكاننا أن نسأل أسئلة إذا أردنا.»

قالت تشارلوت: «أسئلة ليست وقِحة هكذا. ثم إنه وُلد هكذا. هذا ما قاله الأستاذ توشمان، وأنتَ لم تكن مُنصِتًا.»

قال جوليان: «كنت مُنصِتًا. ظننت فقط أنه ربما تعرَّض لحريق أيضًا.»

قال جاك: «يا خبر يا جوليان! اخرس فحسب.»

صرخ جوليان: «اخرس أنت.»

قال جاك: «هيا يا أوجست. هيا نذهب إلى المكتبة.»

سرت في اتجاه جاك وتبعته خروجًا من القاعة. ظل ممسكًا بالباب المزدوج حتى أخرُج، وعندما مررت به، نظر في وجهي

مباشرة، وكأنه يتحداني أن أنظر إليه بدوري، وهو ما فعلته. ثم وجدتني أبتسم. لا أعرف. أحيانًا عندما أشعر أنني على وشك البكاء، يتحول شعوري إلى ما يُشبه الرغبة في الضحك. لا بد أن هذا كان الشعور الذي يراودني وقتها، لأنني ابتسمت، وكأنني على وشك أن أقهقه. والموضوع هو أن وجهي يجعل من لا يعرفونني جيدًا لا يفهمون أحيانًا أنني أبتسم، إذ لا تلتوي زاويتا فمي كما يحدث لبقية الناس، بل تتمدد الابتسامة بالعرض في وجهي. لكن جاك ويل أدرك بطريقة ما أنني ابتسمت له، فابتسم لي.

همس لي قبل أن يصل إلينا جوليان وتشارلوت: «جوليان مُغفل، لكن سيكون عليك أن تتكلم يا رجل.»

قالها بجدية، وكأنه يحاول مساعدتي. أومأت برأسي مع وصول جوليان وتشارلوت إلينا. ظللنا جميعًا صامتين للحظة، مطرقين برؤوسنا، ناظرين إلى الأرض. ثم رفعت رأسي إلى جوليان، وقلت: «بالمناسبة، اسمها «مُفترَض».»

«عن أي شيء تتكلم؟»

قلت: «لقد قلت من قبل «مُنفرَض».»

«لم أقل هذا!»

أومأت تشارلوت برأسها: «نعم قلتَ. قلتَ: من «المُنفرَض» أن العلوم هي أصعب المواد الاختيارية على الإطلاق. لقد سمعتك.»

أصر على موقفه: «لم أقل ذلك مُطلقًا.»

قال جاك: «أيًّا كان. هيا نذهب وحسب.»

بدأت تشارلوت تتبع جاك نزولًا إلى الطابق التالي، وهي تقول:

«نعم، لنذهب وحسب.»

بدأت أتبعها، لكن جوليان قطع الطريق بيننا، فكِدْتُ أسقط إلى الخلف.

قال جوليان: «آسف! لا تؤاخذني!»

لكنني عرفت من نظرته إليَّ أنه لم يكن آسفًا على الإطلاق.

الاتفاق

كانت ماما تتكلم مع الأستاذ توشمان عندما رجعنا إلى المكتب. وكانت السيدة جارسيا أول من رآنا، فبدأت تبتسم ابتسامتها المشرقة فور دخولنا.

سألتني: «إذًا يا أوجست، ما رأيك؟ هل أعجبك ما رأيت؟»

أومأت، وأنا أرفع عينيَّ إلى ماما: «نعم.»

كان جاك وجوليان وتشارلوت يقفون عند الباب. لا يعرفون إلى أين يذهبون، أو إذا ما كان مطلوبًا منهم شيء آخر. وتساءلتُ: «ماذا سمعوا عني أيضًا قبل أن يقابلوني؟»

سألتني ماما: «هل رأيت الكتكوت؟»

هززت رأسي، وقال جوليان: «هل تقصدين الكتاكيت في العلوم؟ هذه يتم التبرع بها لإحدى المزارع آخِر كل سنة دراسية.»

قالت ماما محبَطة: «ياه!»

أضاف جوليان: «لكن كل سنة في مادة العلوم يقومون بتفقيس كتاكيت جديدة. سيكون بإمكان أوجست أن يراها مرَّة أخرى في الربيع.»

قالت ماما، وهي تنظر إليَّ: «عظيم. لقد كانت جميلة جدًّا يا أوجست.»

تمنيت لو تكفُّ عن مخاطبتي، وكأنني طفل، أمام الآخرين.

قال الأستاذ توشمان: «إذًا يا أوجست. هل رأيت ما يكفي مع الشباب أم تريد أن ترى المزيد؟ لقد نسيتُ أن أطلب منهم اصطحابك إلى صالة الألعاب الرياضية.»

قال جوليان: «لقد ذهبنا إلى هناك يا أستاذ توشمان.»

قال الأستاذ توشمان: «ممتاز!»

قالت تشارلوت: «وأنا أخبرته بأمر المسرحية المدرسية وبعض المواد الاختيارية.»

ثم تابعَت فجأة: «آه. لا! لقد نسينا أن نريه غرفة الفنون.»

قال الأستاذ توشمان: «لا بأس.»

اقترحت تشارلوت: «يمكننا أن نريها له الآن.»

قلت لماما: «ألا يجب أن نذهب لاصطحاب فيا؟»

كانت تلك هي الإشارة المتفَق عليها كي أُخبر ماما أنني أريد المغادرة.

قالت ماما وهي تنهض، وتتظاهر بالنظر إلى ساعتها: «آه، معك حق. أنا آسفة لكم جميعًا. لقد سرقني الوقت. علينا أن نذهب كي نُقِلَّ ابنتي من مدرستها الجديدة. فهي في زيارة غير رسمية اليوم.»

لم تكن تكذب؛ كانت فيا بالفعل تُعاين مدرستها اليوم. الكذبة هي أننا سنذهب كي نُقِلَّها من المدرسة، فالحقيقة أنها سترجع إلى البيت لاحقًا مع بابا.

سأل الأستاذ توشمان وهو ينهض: «ما هي مدرستها؟»

«ستبدأ في مدرسة «فوكنر» الثانوية هذا الخريف.»

«ياه! ليس من السهل الالتحاق بهذه المدرسة. أحسنَت!»

قالت ماما وهي تومئ برأسها: «أشكرك. وإن كان المشوار مرهقًا نوعًا. تأخذ القطار «أ» حتى شارع ٨٦، ثم تستقل حافلة تقطع البلدة حتى الجانب الشرقي. بتلك الطريقة تستغرق ساعة كاملة، لكنها لا تزيد على خمس عشرة دقيقة بالسيارة.»

قال الأستاذ توشمان: «الأمر يستحق. أعرف بعض الأولاد الذين دخلوا فوكنر وأحبوها جدًّا.»

قلت، وأنا أشد حقيبتها: «يجب أن نذهب الآن يا ماما.»

تبادلنا التحية بسرعة، وأعتقد أن الأستاذ توشمان تفاجأ قليلًا برحيلنا فجأة هكذا. ثم تساءلتُ إذا كان سيُلقي باللوم على جاك وتشارلوت، مع أن جوليان وحده هو الذي سبَّب لي قدرًا من الضيق.

وهكذا، حرصت على أن أقول للأستاذ توشمان قبل رحيلنا: «كان الجميع غاية في اللطف.»

قال الأستاذ توشمان، وهو يربت على ظهري: «سوف يُسعدني أن تصبح من تلاميذنا.»

«وداعًا.»

قلتها لجاك وتشارلوت وجوليان، لكنني لم أنظر إليهم - لم أرفع وجهي أصلًا - حتى تركنا المبنى.

البيت

بمجرد أن ابتعدنا عن المدرسة بضعة أمتار، قالت ماما: «إذًا... كيف جرت الأمور؟ هل أعجبتك؟»

قلت: «ليس الآن يا ماما. عندما نرجع إلى البيت.»

فور أن دخلنا البيت، انطلقتُ إلى غرفتي وارتميت على فراشي. أحسست أن ماما لا تفهم ما الأمر، وأظنني لم أفهم أنا الآخر. كنت أشعر بحزن بالغ، وفي الوقت نفسه راودني قدر ضئيل من السعادة، إحساس يُشبه، مجددًا، تلك الرغبة في الضحك والبكاء.

تبعتني كلبتي، «دايزي»، إلى الغرفة، وقفزت على فراشي، وراحت تلعق وجهي.

قلت مقلدًا صوت بابا: «مَن هي جميلتي؟ مَن هي جميلتي؟»

قالت ماما: «هل كل شيء على ما يُرام يا حبيبي؟»

أرادت أن تجلس بجواري، لكن دايزي كانت تشغل المكان كله.

«بعد إذنك يا دايزي!»

أزاحت دايزي قليلًا وجلست: «ألم يعاملك هؤلاء الأولاد بلُطف يا أوجي؟»

قلت، نصف كاذب: «آه، لا. لا بأس بهم.»

«لكن هل عاملوك بلُطف؟ الأستاذ توشمان بالَغ في مدحهم والتأكيد على لُطفهم.»

«آها!»

أومأتُ برأسي، لكنني ظللت أنظر إلى دايزي، أُقبِّلها على أنفها وأحكُّ أذنها حتى بدأت تحرك ساقها الخلفية وكأنها تنفض البراغيث.

قالت ماما: «الولد جوليان خصوصًا يبدو لطيفًا.»

«آه، لا. كان أقلهم لُطفًا. لكنني أحببت جاك، كان لطيفًا. ظننت أن اسمه جاكويل، لكنه جاك فقط.»

«انتظِر، ربما اختلط عليَّ الأمر. مَن هو صاحب الشعر الداكن الممشَّط إلى الأمام؟»

«جوليان.»

«ولم يكن لطيفًا؟»

«لا، ليس لطيفًا.»

«آه!»

فكَّرت في الأمر للحظة: «طيب، إذًا هل هو من هؤلاء الأولاد الذين يظهرون بطريقة أمام الكبار وطريقة أخرى أمام الصغار؟»

«نعم، أظنه كذلك.»

أجابت وهي تومئ برأسها: «آه، أنا أكره هؤلاء الأولاد.»

قلت، دون أن أرفع عيني عن دايزي: «كان يقول أشياء من

قبيل: «إذًا يا أوجست، ما مشكلة وجهك؟ هل تعرَّضت لحريق أو شيء ما؟».»

لم تقل ماما شيئًا. وعندما رفعت نظري إليها، أدركت أنها مصدومة جدًّا.

قلت بسرعة: «لم يقل ذلك بطريقة خسيسة. كان يسأل فقط.»

أومأت ماما برأسها.

قلت: «لكنني أحببت جاك فعلًا. قال له: «اخرس يا جوليان!». وتشارلوت قالت له: «أنت وقح جدًّا يا جوليان!».»

أومأت ماما ثانية. ضغطَت بأصابعها على جبينها وكأنها تعاني من صداع.

قالت بخفوت، وقد احمرَّ خداها: «آسفة جدًّا يا أوجي!»

«لا بأس يا ماما، فعلًا.»

«لستَ مُضطرًّا للذهاب إلى المدرسة إذا كنت لا تريد يا حبيبي.»

قلت: «بل أريد.»

«أوجي...»

«حقًّا يا ماما، أنا أريد الذهاب إلى المدرسة.»

ولم أكن أكذب.

رهبة اليوم الأول

طيب، أعترف إذًا أنني كنت مُتوترًا في أول أيام الدراسة، لدرجة أنني شعرت بـ«كركبة» شديدة في معدتي. والأرجح أن ماما وبابا كانا متوترين قليلًا أيضًا، لكنهما تظاهرَا بالحماس لأجلي، وظلا يلتقطان الصور لي أنا وفيا قبل أن نخرج من البيت، إذ كان أول أيام الدراسة بالنسبة لفيا أيضًا.

حتى أيام قليلة مضت، لم نكن واثقين بعدُ من أنني سأذهب إلى المدرسة أصلًا. فبعد جولتي في المدرسة، تبادل ماما وبابا المواقع بخصوص موقفهما من ذهابي إلى المدرسة. أصبحت ماما هي التي تقول إنني لا يجب أن أذهب، وبابا هو الذي يؤيد ذهابي. كان بابا قد أخبرني بأنه فخور بي للطريقة التي تصرفت بها مع جوليان، وبأنني أتحول إلى رجل قوي. وسمعته يقول لماما إنه أصبح يعتقد أنها كانت محقة منذ البداية. لكنني أدركت أن ماما لم تعد متأكدة. وعندما اقترح عليها بابا أن ينضم إلينا هو وفيا أيضًا لتوصيلي مشيًا إلى المدرسة اليوم، في طريقهما إلى محطة المترو، بدا على ماما الارتياح لأننا سنكون معًا جميعًا. وأظن أن ذلك أراحني أنا أيضًا.

ومع أن مدرسة بيتشر الخاصة لا تبعد عن بيتنا سوى بضعة

شوارع، لم أدخل هذا الشارع إلا مرّات قليلة. عمومًا، أحاول أن أتجنب الشوارع التي يتسكع فيها الكثير من الصبية. في شارعنا، الجميع يعرفونني وأعرف الجميع. أعرف كل طوبة وكل جذع شجرة وكل شقٍّ في الرصيف. أعرف السيدة «جريمالدي»، التي تجلس بجوار نافذتها طوال الوقت، والرجل المُسن الذي يمشي ذهابًا وإيابًا في الشارع وهو يُصفِّر مثل طائر. أعرف المحل الموجود على الناصية، الذي تشتري منه ماما الفطائر، والساقيات في المقهى اللاتي يقلن لي «يا عسل»، ويعطين لي مصاصات كلما رأينني. أحب منطقتنا، «نورث ريفر هايتس»، لذا كان غريبًا جدًا أن أمشي في تلك الشوارع وكأنها أصبحت فجأة جديدة عليَّ. شارع «أمسفورت»، الشارع الذي مشيت فيه مليون مرَّة، بدا مختلفًا جدًّا لسبب ما، مليئًا بأناس لم أرهم من قبل، ينتظرون الحافلات، ويدفعون عربات الأطفال.

قطعنا شارع أمسفورت واستدرنا في ساحة «هايتس». كانت فيا تسير إلى جواري كالمعتاد، وماما وبابا خلفنا. فور أن استدرنا عند الناصية، رأينا كل هؤلاء الأولاد أمام المدرسة – مئات الأولاد يتكلمون بعضهم مع بعض في مجموعات صغيرة، يضحكون، أو يقفون مع آبائهم، الذين يتكلمون مع آباء آخرين. ظللت مُطرقًا برأسي.

قالت فيا في أذني: «الجميع متوترون مثلك تمامًا. تذكَّر أنه أول يوم في المدرسة بالنسبة إلى الجميع. طيب؟»

كان الأستاذ توشمان يُحَيِّي الطلبة والآباء أمام بوابة المدرسة.

يجب أن أعترف، حتى تلك اللحظة لم يقع لي أي سوء، لم ألحظ أي شخص يحدق فيَّ، أو حتى يلاحظني. مرَّة واحدة رفعت رأسي لأرى بعض الفتيات ينظرن تجاهي ويتهامسن وأيديهن مكوَّرة على أفواههن، لكنهن أَشَحْنَ بأنظارهن بعيدًا عندما لاحظن أنني رأيتهن.

وصلنا إلى البوابة الأمامية.

قال بابا، وهو يضع يديه على كتفي: «حان الوقت يا ولدي الكبير!»

قالت فيا، وهي تعطيني قُبلة وحضنًا: «أتمنى أن يكون أول أيامك يومًا رائعًا. أُحبك.»

قلت: «وأنا أيضًا.»

قال بابا، وهو يعانقني: «أُحبك يا أوجي.»

«سلام.»

ثم عانقتني ماما، لكنني لاحظت أنها على وشك البكاء، وهو ما كان سيحرجني جدًّا، فاكتفيت بإعطائها حضنًا سريعًا قويًّا، واستدرت، واختفيت داخل المدرسة.

أقفال

ذهبت مباشرة إلى الغرفة ٣٠١ في الطابق الثالث. كنت سعيدًا لأنني قمت بتلك الجولة الصغيرة، إذ صرت أعرف وجهتي بالضبط، ولست مُضطرًا لأن أرفع رأسي ولا لمرّة واحدة. كان بعض الأولاد قد بدأوا يحدقون فيّ، لكنني فعلت كما أفعل في تلك الحالات، تظاهرت بأنني لم ألاحظهم.

دخلت الفصل، وكانت المُدرِّسة تكتب على السبورة بينما يتخذ الأولاد مقاعدهم. كانت المقاعد مُرتَّبة على هيئة نصف دائرة في مواجهة السبورة، فاخترت مقعدًا في منتصف الصف الخلفي، حيث فكرت أنه سيجعل من الصعب على أي شخص أن يحدق فيّ. أبقيت رأسي مُطرِقًا، أرفع نظري من تحت قُصَّتي فلا أرى إلا أقدام الجميع. ومع قرب امتلاء المقاعد، لاحظت أن أحدًا لم يجلس بجواري. أكثر من مرّة اقترب أحدهم ليجلس بجواري، ثم غيَّر رأيه، أو رأيها، في اللحظة الأخيرة، وجلس في مكان آخر.

«هاي، يا أوجست.»

كانت تشارلوت، تلوِّح لي تلويحتها الصغيرة وهي تجلس على أحد مقاعد الصف الأمامي. ما الذي يجعل أيَّ شخص يختار الجلوس في الصف الأول في الفصل؟ لا أعرف.

قلت، وأنا أومئ برأسي مُرَحِّبًا: «أهلًا.»

ثم لاحظت أن جوليان كان يجلس على بُعد بضعة مقاعد منها، يتكلم مع أولاد آخرين. أعرف أنه رآني، لكنه لم يُلقِ عليَّ التحية.

فجأة وجدت مَن يجلس بجواري. كان جاك ويل. جاك.

قال، وهو يومئ إليَّ: «كيف الأحوال؟»

«أهلًا يا جاك.»

قلتها وأنا ألوِّح له بيدي، وهو ما ندمت عليه فورًا، إذ أحسست أنها حركة سخيفة.

قالت المُدَرِّسة، التي استدارت لنا: «حسنًا يا أولاد، لتجلسوا جميعًا.»

كانت قد كتبت اسمها، الأستاذة بيتوسا، على السبورة. قالت لبعض الأولاد الذين دخلوا الفصل متأخرين: «ليجلس كلٌّ منكم على مقعد، من فضلكم. هيا. يوجد مقعد هنا، وآخر هناك.»

لم تكن قد لاحظتني بعد.

«الآن، أول ما أطلبه منكم أن تتوقفوا عن الكلام و...»

لاحظتني.

«تضعوا حقائبكم على الأرض وتهدأوا.»

لم يطل ارتباكها أكثر من جزء من مليون من الثانية، لكنني لاحظت فورًا أنها رأتني. كما قلت، لقد اعتدت على ذلك.

تابعَت، وهي تجلس على حافة مكتبها، بجوارها ثلاثة صفوف

منتظمة من الملفات المنتفخة: «سآخذ الحضور وأحدد أماكن الجلوس. عندما أنادي على اسمك، قف وسأسلمك ملفًا عليه اسمك، يضم جدول الفصل الخاص بك، والقفل الرقمي، ولا تحاول أن تفتحه حتى أقول لك. أرقام قفلك ستجدها مكتوبة على جدول الفصل. أنبّهكم من الآن أن بعض الخِزانات ليست أمام هذا الفصل مباشرة وإنما في آخر الممر، وأقول لكم قبل أن تسألوا: لا، لا يمكنكم تبديل الخِزانات ولا يمكنكم تبديل الأقفال. وإذا تبقّى لنا وقت في نهاية هذه الحصة، فسنتعارف جميعًا بصورة أفضل، حسنًا؟ حسنًا.»

تناولَت حامل الأوراق من على مكتبها وبدأت تقرأ الأسماء بصوت عالٍ.

قالت، وهي ترفع رأسها: «حسنًا، إذًا، جوليان ألبانز؟»

رفع جوليان يده وهو يقول: «هنا.»

قالت، وهي تضع علامة على خريطتها الخاصة بأماكن الجلوس: «أهلًا يا جوليان.»

تناولت أول ملف ومدته في اتجاهه، قائلة بنبرة حازمة: «تعالَ وخُذْه.»

نهض وتناوله منها.

«هيمينا تشين.»

سلّمت كل واحد ملفًا وهي تقرأ الأسماء. ومع توالي الأسماء، لاحظتُ أن المقعد المجاور لي هو المقعد الوحيد الخالي، مع أن

هناك ولدين يجلسان على مقعد واحد بالقرب من مقعدي. عندما وَصَلت إلى اسم أحدهما، وهو ولد ضخم يُدعى «هنري جوبلن» يبدو عليه أنه بلغ مرحلة المراهقة بالفعل، قالت: «هنري، يوجد مقعد شاغر هناك. لماذا لا تنتقل إليه، طيب؟»

سلّمته ملفه وأشارت إلى المقعد المجاور لي. ومع أنني لم أنظر إلى هنري مباشرة، فقد لاحظت أنه لم يرغب أن ينتقل إلى جواري، لاحظت ذلك عندما رأيته يجرجر حقيبة ظهره على الأرض وهو يمشي، وكأنه يتحرك بالتصوير البطيء. ثم رفع حقيبته وأسقطها بقوة على حافة مكتبه لِتُشَكِّل ما يشبه الجدار بين مكتبه ومكتبي.

كانت الأستاذة بيتوسا تقول: «مايا ماركوفيتس؟»

ردت فتاة على بُعد نحو أربعة مقاعد مني: «هنا.»

«مايلز نوري؟»

قال الولد الذي كان يجلس بجوار هنري جوبلن: «هنا.»

وفي أثناء رجوعه إلى مكتبه رأيته يُلقي على هنري نظرة: «يا لك من مسكين!»

قالت الأستاذة بيتوسا: «أوجست بولمان؟»

قلت بصوت خافت وأنا أرفع يدي قليلًا: «هنا.»

«أهلًا يا أوجست.»

قالتها وهي تبتسم لي بلُطف شديد عندما نهضت كي أتسلّم ملفي. شعرت وكأن كل العيون تلهب ظهري طيلة الثواني القليلة التي وقفتُ فيها في مُقدِّمة الفصل، وخفض الجميع أبصارهم

وأنا أعود إلى مقعدي. عندما جلست، منعت نفسي عن تقليب أرقام القفل، مع أن كل الآخرين كانوا يفعلون ذلك، تحديدًا لأنها أمرتنا بألا نفعل. كنت ماهرًا في فتح الأقفال، على أية حال، لأنني كنت أستخدمها مع دراجتي. ظل هنري يحاول فتح قفله لكنه لم يستطع. بدا مُحبَطًا، وراح يُتمتم بما يُشبه اللعنات.

نادت الأستاذة بيتوسا على بقية الأسماء، وكان الأخير هو جاك ويل.

بعدما سلمت جاك ملفه، قالت: «طيب، إذًا، كلٌّ منكم يكتب رقم القفل الخاص به في مكان آمن لا ينساه، طيب؟ لكن إذا نسيه، وهو ما يحدث بمعدل ثلاث مرّات فاصل اثنين على الأقل في كل فصل دراسي، فالسيدة جارسيا لديها قائمة بجميع أرقام الأقفال. الآن هيا، أخرِجوا أقفالكم من الملفات. أمامكم دقيقتان للتمرين على كيفية فتحها، مع أنني أعرف أن بعضكم بدأ ذلك بالفعل.»

كانت تقول هذا وتنظر إلى هنري.

«وفي هذه الأثناء يا شباب، سأُكلِّمكم عن نفسي قليلًا. ثم كلِّموني أنتم عن أنفسكم قليلًا، حتى، ممم، نتعارف. اتفقنا؟ عظيم.»

ابتسمتْ للجميع، مع أنني شعرت بأنها تبتسم لي أكثر. لم تكن ابتسامة مُشرقة، مثل ابتسامة السيدة جارسيا، ولكن ابتسامة عادية، كأنها صادقة. بدت مختلفة تمامًا عن الصورة التي رسمتُها للمُدرِّسين في خيالي. تصوَّرت أنها ستبدو مثل الآنسة فاول، في

مسلسل الأطفال «جيمي نيوترون» سيدة عجوز، شعرها مكوّر في كعكة كبيرة فوق رأسها. لكنها بدت، في الحقيقة، أشبه بـ«مون موثما» في «حرب النجوم - الجزء الرابع» شعرها مقصوص مثل صبي، وتضع قميصًا أبيض كبيرًا يُشبه جلبابًا قصيرًا.

استدارت وبدأت تكتب على السبورة.

كان هنري لا يزال عاجزًا عن فتح قفله، وكان إحباطه يتزايد في كل مرّة ينجح أحدهم في فتح أحد الأقفال. وقد انزعج بحقٍّ عندما فتحتُ قفلي من أول مرّة. الغريب أنني كنت سأعرض عليه المساعدة لو لم يضع حقيبته بيننا.

في الفصل

حكت لنا الأستاذة بيتوسا قليلًا عن نفسها. كانت أشياء مُملّة عن مَسقط رأسها، وكيف أنها طالما أرادت أن تعمل بالتدريس، وتركت وظيفتها في «وول ستريت»؛ حي الأعمال، قبل نحو ستة أعوام لكي تَتْبع حلمها وتُدرِّس للأطفال. وأنهت كلامها بالاستفسار عما إذا كانت لدينا أسئلة، فرفع جوليان يده.

«نعم...»

نظرَت إلى القائمة كي تتذكر اسمه.

«جوليان.»

قال: «الكلام عن أنك أردت أن تتبعي حلمك، كلام لطيف.»

«أشكرك!»

ابتسم بفخر: «عفوًا.»

«طيب، لماذا إذًا لا تُخبرنا عن نفسك قليلًا يا جوليان؟ الحقيقة أنني أطلب هذا من كل واحد منكم. فكِّر في شيئين تريد أن يعرفهما الناس عنك. أقول لكم، انتظروا دقيقة، كم واحدًا منكم جاء من مدرسة بيتشر الابتدائية؟»

رفع نصف الأولاد تقريبًا أيديهم.

«طيب، يعني بعضٌ منكم يعرفون بعضًا بالفعل. لكن البقية،

أعتقد، مستجدون على المدرسة، صح؟ طيب، إذًا فكِّر في شيئين يريد أن يعرفهما الناس عنك - وإذا كنت تعرف بعض الأولاد الآخرين، فحاول أن تفكر في أشياء لا يعرفونها عنك بالفعل. طيب؟ اتفقنا. لنبدأ إذًا مع جوليان ثم نستمر بالترتيب.»

قطب جوليان وجهه وبدأ ينقِّر على جبهته كما لو كان يفكر بعمق.

قالت الأستاذة بيتوسا: «طيب، عندما تكون مُستعدًّا.»

«طيب، إذًا رقم واحد أنني...»

قاطعته الأستاذة بيتوسا: «اعملوا معروفًا وابدأوا بأسمائكم، اتفقنا؟ فذلك سيساعدني على أن أتذكر الجميع.»

«آه، طيب. إذًا اسمي جوليان. والشيء الأول الذي أحب أن أقوله للجميع عني أنني... حصلت أخيراً على لُعبة «باتلجراوند ميستيك» على جهاز «وي» الخاص بي، ووجدتها رائعة. والشيء الثاني هو أننا اشترينا طاولة «بينج بونج» هذا الصيف.»

قالت الأستاذة بيتوسا: «ظريف جدًّا. أنا أحب الـ«بينج بونج». هل لديكم أسئلة لجوليان؟»

قال الولد المُسمَّى مايلز: «هل لعبة «باتلجراوند ميستيك» للاعب واحد أم لأكثر من لاعب؟»

قالت الأستاذة بيتوسا: «ليست أسئلة من هذا النوع يا شباب. طيب، ماذا عنكِ إذًا...»

أشارت إلى تشارلوت، ربما لأن مقعدها كان أقرب إلى المقدمة.

قالت تشارلوت من دون أن تتردد ولو لثانية، كما لو كانت تعرف بالضبط ما تريد أن تقوله: «آه، طبعًا. اسمي تشارلوت. عندي أختان، وقد حصلنا على كلبة صغيرة جديدة اسمها سوكي في شهر يوليو. أحضرناها من ملجأ للحيوانات، وهي رقيقة جدًّا جدًّا!»

قالت الأستاذة بيتوسا: «هذا عظيم يا تشارلوت، أشكرك. طيب، مَن التالي؟»

كما يُساق الحَمَل إلى المسلخ

«كما يُساق الحَمَل إلى المسلخ» شيء تقوله عن شخص يذهب بهدوء إلى مكان ما، ولا يعلم أن شيئًا سيئًا سوف يحدث له.

بحثتُ عن الكلمة في «جوجل» ليلة أمس. هذا ما كنت أفكر فيه عندما نادت الأستاذة بيتوسا على اسمي وجاء فجأة دوري في الكلام.

قلت، ولعلكم توقَّعتم أنني قلتها بهمهمة: «اسمي أوجست.»

قال أحدهم: «ماذا؟»

قالت الأستاذة بيتوسا: «هل يمكنك أن ترفع صوتك يا عزيزي؟»

قلت بصوت أعلى، مُجبِرًا نفسي على النظر إلى أعلى: «اسمي أوجست. أنا، مم... عندي أخت اسمها فيا وكلبة اسمها دايزي و.. مم.. هذا كل شيء.»

قالت الأستاذة بيتوسا: «رائع! هل لديكم أسئلة لأوجست؟»

لم ينطق أحد بكلمة.

قالت الأستاذة بيتوسا لجاك: «طيب، دورك.»

قال جوليان، وهو يرفع يده: «انتظر، أنا عندي سؤال لأوجست. لماذا عندك هذه الضفيرة الصغيرة في شعرك من الخلف؟ هل تتشبَّه بالـ«بَدوان»؟»

هززت كتفيَّ وأومأت برأسي: «نعم.»

سألتني الأستاذة بيتوسا، وهي تبتسم: «ما هو الـ«بَدوان»؟»

أجاب جوليان: «جماعة من «حرب النجوم». الـ«بَدوان» هو «جيداي» تحت التمرين.»

ردت الأستاذة بيتوسا، وهي تنظر إليَّ: «آه، أمر شيِّق. إذًا، هل أنت من عُشاق «حرب النجوم» يا أوجست؟»

«أظن.»

أومأتُ دون أن أرفع رأسي لأن ما كنت أرغب فيه حقًّا هو أن أختبئ تحت المكتب.

سأل جوليان: «مَن هي شخصيتك المُفضَّلة؟»

بدأت أفكر أنه ليس بهذا السوء.

«جانجو فِت.»

قال: «وماذا عن «دارث سيديوس»؟ هل تحبه؟»

قالت الأستاذة بيتوسا بمرح: «طيب يا شباب، يمكنكم الحديث عن «حرب النجوم» في الاستراحة. لكن دعونا نكمل. لم نسمع منك أنت بعد.»

وجَّهَت كلامها لجاك.

كان دور جاك في الكلام، لكنني أعترف أنني لم أسمع كلمة مما قال. ربما لم يفهم أحد مغزى ذكر دارث سيديوس، وربما لم يقصد جوليان أي شيء على الإطلاق. لكن في «حرب النجوم - الجزء الثالث: انتقام السيث» يرمي واحد من «السيث» صاعقة

على دارث سيديوس تحرق وجهه، فيصير مشوَّهًا. ينكمش جلده ويتجعد، ويبدو وجهه وكأنه قد انصهر.

اختلستُ نظرة إلى جوليان فوجدته ينظر إليَّ. نعم، كان يعرف ما يقوله.

اختر الطّيبة

حدثت حركة وهرج عندما دق الجرس ونهض الجميع كي يغادروا الفصل. راجعت جدولي ووجدته يقول إن حصتي التالية هي اللغة الإنجليزية في غرفة ٣٢١. لم أنتظر لأرى إن كان أحد من غرفة الاستقبال سيسير في نفس الاتجاه. فقط ابتعدت عن الفصل وسرت في الممر، وجلست في أبعد مكان وجدته عن المُقدمة. كان المُدرِّس، وهو رجل طويل جدًّا بلحية صفراء، يكتب على السبورة.

دخل الأولاد وهم يتضاحكون ويتكلمون في مجموعات صغيرة، لكنني لم أرفع رأسي. عمومًا، تكرر ما حدث في غرفة الاستقبال: لم يجلس أحد إلى جواري باستثناء جاك، الذي كان يمزح مع بعض الأولاد من غرفة استقبال أخرى. وقلت إن جاك من ذلك النوع الذي يحبه الآخرون، لديه الكثير من الأصدقاء، وقادر على إضحاك الناس.

عندما دق الجرس الثاني، التزم الجميع الصمت، واستدار المدرس ليواجهنا. قال إن اسمه الأستاذ «براون»، ثم بدأ يتكلم عما سوف يفعله في هذا الفصل الدراسي. وعند نقطة معينة، في مكان ما بين رواية «السفر في الزمن» وقصة «شن والبحر»، لاحظني، لكنه لم يقطع كلامه.

كنت أُخَرْبِش في كُرَّاستي وهو يتكلم، لكن من حين إلى آخر كنت أختلس نظرة إلى الطلبة الآخرين. كانت تشارلوت في هذا الفصل. وكذلك جوليان وهنري. مايلز لم يكن موجودًا.

كان الأستاذ براون قد كتب على السبورة بأحرف سوداء كبيرة كلمة:

و ص ي ة

«طيب، اكتبوا جميعًا هذه الكلمة بأعلى الصفحة الأولى في كُرَّاسة اللغة الإنجليزية.»

وبينما كنا نفعل ما طلبه منا، قال: «طيب، مَن يستطيع إذًا أن يقول لي ما هي الوصية؟ هل يعرف أيٌّ منكم؟»

لم يرفع أحد يده.

ابتسم الأستاذ براون، أومأ برأسه، واستدار ليكتب على السبورة مجددًا:

الوصايا = قواعد للتعامل مع الواقع

أشياء مهمة!

علا صوت: «مثل شعار!»

قال الأستاذ براون، وهو يومئ برأسه ويكمل الكتابة على السبورة: «مثل شعار! مثل قول مأثور! مثل عبارة من تلك التي نجدها في «حلوى الحظ»! أي قول أو قاعدة أساسية يمكنها أن تحفِّزك. وعمومًا، الوصية هي أيُّ شيء يساعد في توجيهنا حين نكون بصدد اتخاذ قرارات بشأن أمور مهمة جدًّا.»

كتب كلَّ ذلك على السبورة، ثم استدار وواجهنا. سألنَا: «إذًا، هل لديكم أمثلة على بعض «الأمور المهمة جدًّا»؟»

رفع بعض الأولاد أيديهم، فأخذ يشير إليهم فيقولون إجاباتهم، فيكتبها على السبورة بخط شديد السوء:

القواعد. الواجبات المدرسية. الواجبات المنزلية

قال وهو يكتب، من دون حتى أن يلتفت إلى الخلف: «وماذا أيضًا؟ قولوا ما يأتي ببالكم!»

وراح يكتب كل ما يسمعه:

العائلة. الوالدان. الحيوانات الأليفة

صاحت إحدى الفتيات: «البيئة.»

فكتب على السبورة:

ثم أضاف:

عالمنا!

«أسماك القرش، لأنها تأكل الأشياء الميتة في المحيط.» قالها أحد الأولاد، صبي يُدعى «ريد»، فكتب الأستاذ براون:

أسماك القرش

«النَّحْل!»

«حِزام الأمان!»

«تدوير المُخلَّفات!»

«الأصدقاء!»

قال الأستاذ براون، وهو يكتب كل هذه الأشياء: «طيب.»

ثم استدار ليواجهنا ثانية بعدما انتهى من الكتابة.

«لكن لم يقل أيٌّ منكم أهم شيء على الإطلاق.»

نظرنا جميعًا إليه، وقد نفدت منا الأفكار.

«الله؟»

قالها أحد الأولاد، وبرغم أن الأستاذ براون كتب كلمة «الله»، عرفتُ أنها ليست الإجابة المنتظرة. ومن دون أن يقول أيَّ شيء آخر، كتب:

من نحن؟!

قال، ولفظ كل كلمة بوضوح: «مَن نحن؟! مَن نحن؟! نحن! صح؟ أيُّ أناسٍ نحن؟ أيُّ شخصٍ أنتَ؟ أليس هذا أهم شيء على الإطلاق؟ أليس هذا هو السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا طوال الوقت؟ «أيُّ إنسان أنا؟». هل لاحظ أحدكم اللافتة المجاورة لباب هذه المدرسة؟ هل قرأ أحدكم المكتوبَ عليها؟ أي أحد؟»

جال بنظره، لكن أحدًا لم يعرف الإجابة.

قال، وهو يبتسم ويومئ برأسه: «مكتوب: «اعرَفْ نفسك». وأنتم هنا تحديدًا لتعرفوا أنفسكم.»

«ظننت أننا هنا لتعلُّم اللغة الإنجليزية.»

قالها جاك وانفجرت منه ضحكة، فضحك الجميع.

أجاب الأستاذ براون: «آه، نعم، وهذا أيضًا!»

ورأيت أن إجابته في غاية اللطف. استدار وكتب بحروف ضخمة وكبيرة امتدت من أول السبورة إلى آخرها:

وصية الأستاذ براون لشهر سبتمبر:
إذا خُيِّرت بين الصواب والطِّيبة. اخترِ الطِّيبة

قال، وهو يواجهنا ثانية: «طيب، إذًا، انتبهوا جميعًا. أريدكم أن تبدأوا قسمًا جديدًا في كُرَّاساتكم تسمونه: وصايَا الأستاذ براون.»

ظل يتكلم ونحن نفعل ما طلبه منا.

«اكتب تاريخ اليوم في أعلى الصفحة الأولى. ومن الآن فصاعدًا، في بداية كل شهر، سوف أكتب وصية جديدة من وصايا الأستاذ

براون على السبورة، وسوف تنقلها في كُرّاستك. بعدها سوف نناقش هذه الوصية ومعناها. وفي نهاية كل شهر، سوف تكتب مقالًا عن هذه الوصية، عن معناها بالنسبة إليك. وهكذا، بنهاية العام، سوف تخرج بقائمتك الخاصة من الوصايا.

في الصيف، أطلب من جميع طلابي أن يخرجوا بوصيتهم الشخصية الخاصة بهم، وأن يكتبوها على بطاقة بريدية، ويرسلوها إليَّ من أي مكان يزورونه في إجازة الصيف.»

قالت فتاة لم أتذكَّر اسمها: «وهل يفعلون ذلك حقًّا؟»

أجاب: «آه، نعم. يفعلون ذلك حقًّا. بل وعندي طلاب ما زالوا يرسلون إليَّ وصايا جديدة بعد أعوام من تخرُّجهم من هذه المدرسة. أمرٌ مدهِش!»

توقف قليلًا ثم مسح على رأسه: «على أية حال، أين نحن من الصيف القادم؟»

قالها مازحًا، فضحكنا.

«إذًا، استَرْخوا قليلًا بينما آخذ الحضور، وعندما ننتهي من هذا، سأُخبركم بكل الأشياء الممتعة التي سنقوم بها هذا العام في اللغة الإنجليزية.»

أشار إلى جاك وهو يقول عبارته الأخيرة، وكان ذلك ظريفًا أيضًا، فضحكنا جميعًا.

وبينما كنت أكتب وصية الأستاذ براون لشهر سبتمبر، أدركت فجأة أنني سأُحب المدرسة، مهما حدث فيها.

الغداء

كانت فيا قد حذرتني من فترة الغداء في المدرسة الإعدادية، لذا كان يجب أن أعرف أن الأمر سيكون صعبًا. لكنني لم أتوقع أن يكون بهذه الصعوبة. ما حدث أن كل الأولاد من كل فصول الصف الخامس تدفقوا على الكافتيريا في الوقت نفسه، يتكلمون بصوت عالٍ، ويتخبطون وهم يركضون إلى مختلف الطاولات. واحدة من مُدَرِّسات قاعة الغداء قالت شيئًا عن عدم السماح بحجز المقاعد، لكنني لم أفهم ما قَصَدَتْه وربما لم يفهمه أحد أيضًا، لأن الجميع تقريبًا راحوا يحجزون المقاعد لأصدقائهم. حاولت أن أجلس على طاولة، لكن الولد في المقعد المجاور قال: «آه، آسف، لكن هناك من يجلس هنا.»

وهكذا انتقلت إلى طاولة خالية، وجلست أنتظر أن ينتهي الجميع من التحرك هنا وهناك، وأن تقول لنا مُدَرِّسة قاعة الغداء ما نفعله بعد ذلك. وعندما بدأت تخبرنا بقواعد الكافتيريا، جُلْتُ بنظري لأرى أين يجلس جاك ويل، لكنني لم أره في الجزء الذي أجلس فيه من القاعة. كان الأولاد لا يزالون يدخلون، وبدأ المُدرِّسون ينادون على أول مجموعة طاولات لكي يأخذوا صوانيهم ويقفوا في الصف عند المِقْصَف. كان جوليان وهنري ومايلز يجلسون إلى طاولة في آخر القاعة.

كانت ماما قد لفَّت لي ساندويتش جُبن، وبسكويتًا، وعلبة عصير، وهكذا لم أكن مُضطرًّا للوقوف في الصف عندما نُودي على طاولتي، بل ركَّزت على فتح حقيبتي، وسَحْب كيس الغداء، وفتح المُغلَّف الألمنيوم حول الساندويتش.

كنت أعرف أنهم يحدقون فيَّ من دون حتى أن أرفع بصري. كنت أعرف أنهم يَلْكِزون بعضهم بعضًا، يراقبونني من زوايا عيونهم. كنت أظن أنني اعتدت هذه النظرات المحدقة، لكن تبيَّن لي أنني كنت مخطئًا.

كانت هناك على وجه الخصوص طاولة عرفتُ أن الفتيات الجالسات إليها يتهامسن عني؛ لأنهن رُحْنَ يتكلمن من وراء أيديهن، وظلت عيونهن وهمساتهن تتطاير في اتجاهي.

أكره طريقتي في الأكل. أعرف كم تبدو غريبة. أُجريت لي جراحة لإصلاح حَلْقي المشقوق عندما كنت رضيعًا، ثم جراحة أخرى لهذا الشق وأنا في الرابعة، لكن لا تزال عندي فتحة في سقف حلقي. ومع أنني أَجريت عملية جراحية لتقويم الفك قبل بضع سنوات، لا زال عليَّ أن أمضغ الطعام في الجزء الأمامي من فمي. ولم أعرف كيف يبدو ذلك إلى يوم كنت في حفل عيد ميلادٍ ذات مرَّة، وقال واحد من الأولاد لأم صاحب عيد الميلاد إنه لا يريد الجلوس إلى جانبي لأنني أُثير الفوضى بكل فُتات الطعام الذي ينطلق من فمي. أعرف أن الولد لم يقصد التصرف بخِسة، لكنه وقع في مشكلة كبيرة فيما بعد، واتصلت أمه بماما تلك الليلة

كي تعتذر. وعندما رجعتُ من الحفل إلى البيت، ذهبت إلى مرآة الحمَّام وبدأت آكل بسكويتة مُملَّحة لأرى منظري وأنا أمضغ. كان الولد على حق؛ أنا آكل مثل سلحفاة، إذا كنت قد رأيت سلحفاة تأكل من قبل، أو مثل وحش مستنقعات آتٍ من عصور ما قبل التاريخ.

طاولة الصيف

«معذرة، هل هذا الكرسي محجوز؟»

رفعت رأسي، فوجدت فتاة لم أرها من قبل تقف على الجانب الآخر من طاولتي، حاملة صينية غداء مملوءة بالطعام. كان لها شعر بُني طويل متموِّج، وترتدي تيشيرتًا بُنيًّا مرسومًا عليه باللون الأرجواني علامة السلام.

قلت: «آه، لا.»

وضعَت صينية الغداء على الطاولة، وأسقطَت حقيبتها على الأرض، وجلست في مواجهتي. بدأت تأكل المعكرونة بالجُبن في طبقها.

قالت بعد أن ابتلعت القضمة الأولى: «اغغ! كان يجب أن أُحضِر ساندويتشًا مثلك!»

قلت، وأنا أومئ برأسي: نعم.

«اسمي «سمر»، بالمناسبة. ما اسمك؟»

«أوجست.»

«لطيف.»

جاءت بنت أخرى إلى الطاولة وهي تحمل صينية: «سمر! لماذا تجلسين هنا؟ عودي إلى الطاولة.»

أجابتها سمر: «إنها مُزدحمة جدًّا. تعالي اجلسي هنا. المكان هنا أوسع.»

بدا الارتباك على البنت الأخرى للحظة. وتعرفتُ عليها. كانت إحدى البنات اللاتي ضبطتُهن وهن ينظرن إليَّ قبل دقائق؛ يدها مُقوَّسة على فمها، تهمس. أظن أن سمر كانت واحدة من بنات تلك الطاولة أيضًا.

قالت البنت وهي تغادر: «لا بأس.»

نظرت سمر إليَّ، وهزت كتفيها مُبتسمة، وتناوَلت قضمة أخرى من المعكرونة بالجبن.

قالت وهي تمضغ: «هل لاحظت أن اسمينا منسجمان؟»

أظنها أدركت أنني لم أفهم قصدها.

قالت، مُبتسمة، وعيناها تتسعان، وكأنما تنتظر مني أن أفهم: «سمر (الصيف)؟ أوجست (أغسطس)؟»

قلت بعد لحظة: «آه، نعم.»

قالت: «يمكن أن نجعل هذه الطاولة «طاولة الصيف». الأولاد والبنات أصحاب الأسماء الصيفية هم المسموح لهم بالجلوس هنا. لنرَ، هل هناك أي شخص اسمه جون (يونيو) أو جولاي (يوليو)؟»

قلت: «هناك مايا.»

ردت سمر: «من الناحية الفعلية، مايو في الربيع. لكن إذا أرادت أن تجلس هنا، يمكننا أن نمنحها استثناء.»

قالتها كما لو كانت قد أمعنت التفكير في الأمر بأكمله، ثم تابعت: «هناك جوليان، وهو مثل اسم جوليا، يأتي من «يوليو».»

لم أُعَلِّق. ثم قلت: «هناك صبي اسمه ريد معي في فصل اللغة الإنجليزية.»

سألتْ: «نعم، أعرف ريد، لكن كيف لـ«ريد» أن يكون اسمًا من أسماء الصيف.»

هززت كتفيَّ: «لا أعرف. فقط تصورت أن يكون مثل «ريد أوف جراس»، العشبة التي تنمو في الصيف.»

أومأت، وهي تسحب كُرّاستها: «آه، طيب. ويمكن للأستاذة بيتوسا أن تجلس هنا أيضًا. فاسمها مشتق من «بتلة الأزهار»، وهو شيء مرتبط بالصيف أيضًا على ما أظن.»

قلت: «إنها مُدرِّسة غرفة استقبال صفِّنا.»

ردت، وهي تقطب وجهها: «وتُدرِّس لي الرياضيات.»

بدأت تكتب قائمة بالأسماء في الصفحة قبل الأخيرة من كُرّاستها.

قالت: «إذًا، مَن أيضًا؟»

بانتهاء الغداء، كنا قد خرجنا بقائمة كاملة من أسماء التلاميذ والمُدرِّسين الذين يمكن أن يجلسوا على طاولتنا إذا أرادوا. لم تكن معظم الأسماء أسماء صيفية تمامًا، لكن كان لها علاقة بالصيف بشكل ما. بل إنني وجدت طريقة لأجعل اسم جاك ويل يصلح، حيث أوضحت أننا يمكن تحويل اسمه إلى جملة عن الصيف، مثل

«جاك ويل جو تو ذا بيتش» (جاك سيذهب إلى الشاطئ)، وهو ما رأته سمر اقتراحًا مقبولًا.

قالت بجدية بالغة: «لكن ماذا لو وجدنا شخصًا ليس لديه اسمٌ صيفيٌ ويريد أن يجلس معنا. سنسمح له برغم ذلك إذا كان لطيفًا، اتفقنا؟»

أومأتُ برأسي: «اتفقنا. حتى لو كان اسمًا شتويًا.»

«لطيف وظريف!»

قالتها وهي ترفع إبهامها موافِقةً.

كانت سمر اسمًا على مُسمًى. تشبه الصيف، بشرتها برونزية، وعيناها خضراوان مثل أوراق الشجر.

من واحد إلى عشرة

كانت ماما عادة أن تسألني عن شعوري بالأشياء وفقًا لمقياس من واحد إلى عشرة. بدأ ذلك بعد أن أُجريت لي جراحة الفك، عندما لم أكن أستطيع الكلام لأن فمي كان مغلقًا بالسلك. كانوا قد أخذوا جزءًا من عظمة الفخذ وأدخلوها في ذقني ليجعلوها تبدو مثل الطبيعية، وهكذا كنت أشعر بالألم في مناطق مختلفة. وكانت ماما تشير إلى إحدى ضَمَّاداتي، فأرفع أصابعي لأُظهر لها كم تؤلمني. واحد يعني قليلًا، عشرة يعني كثيرًا جدًّا جدًّا جدًّا. ثم كانت تنتظر مرور الطبيب لتخبره بما يحتاج إلى تعديل أو أشياء من هذا القبيل. وقد أصبحت ماما ماهرة جدًّا في قراءة ما يدور بخاطري في بعض الأحيان.

بعدها، اعتدنا تطبيق مقياس واحد إلى عشرة على أي شيء مؤلم، فمثلًا لو عانيت من التهاب عادي في الحلق، تسألني: «من واحد إلى عشرة؟»، فأقول: «ثلاثة» أو أيًّا كان.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، خرجتُ لمقابلة ماما، التي كانت تنتظرني عند البوابة الأمامية مثل غيرها من الآباء أو جلساء الأطفال. وأول ما قالته لي بعدما عانقتني كان: «إذًا، كيف كان يومك؟ من واحد إلى عشرة؟»

«خمسة.»

قلتها وأنا أهز كتفيَّ، ورأيتها اندهشت كثيراً.

قالت بهدوء: «يا للروعة! هذا أفضل مما تمنيته.»

«هل سنذهب لإحضار فيا؟»

«اليوم ستحضرها والدة «ميرندا». هل تريدني أن أحمل حقيبتك يا حبيبي؟»

كنا قد بدأنا نشق طريقنا وسط جموع التلاميذ والآباء، وكان معظمهم يلاحظني، فيشيرون بعضهم إلى بعض «خفية» في اتجاهي.

قلت: «أنا بخير.»

مدت يدها لتأخذها مني: «تبدو ثقيلة يا أوجي.»

«ماما!»

قلتها وأنا أسحب الحقيبة بعيدًا عنها، ورحت أمشي أمامها وسط الزحام.

«أراك غدًا يا أوجست!»

كانت سمر، وكانت تسير في الاتجاه العكسي.

قلت وأنا ألوِّح لها: «سلام يا سمر.»

فور أن قطعنا الشارع وصرنا بعيدين عن الزحام، قالت ماما: «مَن هذه الفتاة يا أوجي؟»

«سمر.»

«هل هي في فصلك؟»

«عندي فصول كثيرة.»

قالت ماما: «هل هي في أي فصل من فصولك؟»

«لا.»

انتظرت ماما أن أقول شيئًا، لكنني لم أرغب في الكلام.

قالت ماما: «إذًا سارت الأمور على ما يُرام.»

شعرت أن لديها مليون سؤال تريدني أن أجيب عنها.

«كل شيء لطيف؟ هل أحببت مُدَرِّسيك؟»

«نعم.»

«وماذا عن أولئك الأولاد الذين قابلتهم الأسبوع الماضي؟ هل تعاملوا معك بلُطف؟»

«تمام، تمام. جاك ظل معي وقتًا طويلًا.»

«هذا عظيم يا حبيبي. وماذا عن هذا الولد، جوليان؟»

فكرت في تعليقه بخصوص دارث سيديوس، لكنني شعرت لحظتها أن ذلك قد مرت عليه مائة عام، فقلت: «لا بأس به.»

«والفتاة الشقراء؟ ماذا كان اسمها؟»

«تشارلوت. ماما قلت لك إن الجميع عاملوني بلُطف!»

ردت ماما: «طيب.»

صدقًا، لا أعرف لماذا كنت أشعر بنوع من الغضب تجاه ماما. لكن هذا ما شعرت به. قطعنا شارع أمسفورت، ولم تنطق بكلمة أخرى حتى انعطفنا ودخلنا شارعنا. فقالت: «إذًا، كيف قابلت سمر وهي ليست معك في الفصول؟»

قلت: «جلسنا معًا على الغداء.»

كنت قد بدأت أركل حجرًا بين قدمي وكأنه كرة، أدفعه وأطارده على الرصيف.

«تبدو لطيفة.»

«نعم، لطيفة.»

قالت ماما: «وجميلة جدًّا.»

رددت: «نعم، أعرف. أنا وهي أشبه بالجميلة والوحش.»

لم أنتظر حتى أرى رد فعل أمي. فقط بدأت أجري على الرصيف وراء الحجر، بعد أن ركلته إلى الأمام بأقصى قوة.

بَدوان

تلك الليلة قصصت الضفيرة الصغيرة في مؤخرة رأسي. وكان بابا أول مَن لاحظ.

قال: «عظيم. لم أحب هذه الضفيرة قَطُّ.»

أما فيا فلم تُصدِّق أنني قصصتها. وقالت، بنبرة غاضبة: «لقد قضيت أعوامًا لتُطيل تلك الضفيرة، لماذا قصصتها؟»

أجبت: «لا أعرف.»

«هل سَخِر منها أحدهم؟»

«لا.»

«هل قلت لكريستوفر إنك ستقصها؟»

«نحن لم نعد صديقين حتى!»

قالت: «هذا ليس صحيحًا.»

وأضافت والمخاط يسيل من أنفها: «لا أُصدِّق أنك قصصتها بهذه البساطة.»

ثم غادَرَت غرفتي وصفعتِ الباب خلفها.

كنت راقدًا على فراشي محتضنًا دايزي عندما جاء بابا لاحقًا ليُحكِم عليَّ الغطاء. قلَّبَ دايزي جانبًا برفق وتمدد إلى جواري فوق البطانية.

قال: «إذًا يا أوجي دوجي. كان يومًا معقولًا بحق؟»

بالمناسبة، بابا استوحى هذا الاسم من شخصية قديمة من الرسوم المتحركة لكلب ألماني اسمه «أوجي دوجي». وقد اشترى لي البرنامج من موقع «ebay» عندما كنت في الرابعة تقريبًا، وظللنا لفترة نشاهده كثيرًا - خصوصًا في المستشفى. كان يسميني «أوجي دوجي»، وأسمِّيه أنا «بابا العزيز العجوز» مثلما ينادي الجَرْو أباه الكلب الألماني في البرنامج.

قلت، وأنا أومئ برأسي: «نعم، معقول جدًّا.»

«لم تتكلم طوال الليل.»

«أعتقد أنني متعب.»

«كان يومًا طويلًا، هه؟»

أومأت برأسي.

«لكنه كان معقولًا، حقًّا.»

أومأت ثانية، ولم يقل هو شيئًا، فقلت بعد بضع ثوانٍ: «كان أكثر من معقول.»

همس وهو يُقبِّل جبيني: «عظيم أن أسمع ذلك يا أوجي. إذًا يبدو أن اقتراح ماما كان جيدًا - أن تذهب إلى المدرسة.»

«نعم، لكنني أستطيع أن أتوقف عن الذهاب إذا أردت، صحيح؟»

أجاب: «نعم، هذا كان اتفاقنا. مع أنني أعتقد أن ذلك سوف

يعتمد على السبب الذي يجعلك تريد التوقف عن الذهاب أيضًا، كما تعرف. سيكون عليك أن تُخبرنا. سيكون عليك أن تتكلم معنا وأن تُخبرنا بشعورك، وإذا ما كان شيء سيِّئ يحدث، اتفقنا؟ هل تعدني أنك ستخبرنا؟»

«نعم.»

«إذًا هل يمكن أن أسألك سؤالًا؟ هل أنت غاضب من ماما أو شيء من هذا القبيل؟ بدا عليك طول الليل وكأنك غضبان منها. تعرف يا أوجي، أنا مَلُوم على إرسالك إلى المدرسة مثلها تمامًا.»

«لا، هي الملومة أكثر. لقد كانت فكرتها.»

عندها، طرقت ماما على الباب ودَسَّتْ رأسها داخل غرفتي. قالت، وقد بدا عليها الخجل لثوانٍ: «أردت فقط أن أقول لك تُصبح على خير.»

قال بابا، وهو يتناول يدي ويشير بها إليها: «أهلًا يا ماما.»

قالت ماما، وهي تجلس على حافة السرير بجوار دايزي: «سمعت أنك قصصت ضفيرتك.»

أجبت بسرعة: «ليست قضية.»

قالت ماما: «لم أقل إنها قضية.»

قال بابا لماما وهو ينهض: «لماذا لا تساعدين أوجي على النوم الليلة؟ عندي شغل يجب أن أنجزه على أية حال. ليلة سعيدة يا بُنيَّ، يا بُنيَّ.»

كانت تلك عادة أخرى من عاداتنا المستوحاة من «أوجي

دوجي»، برغم أنني لم أكن في مزاج طيب لأقول له ليلة سعيدة يا بابا العزيز العجوز.

قال بابا: «أنا فخور بك.»

ثم نهض من على الفراش.

كانت العادة أن يتناوب بابا وماما على مساعدتي على النوم. أعرف أنه تصرُّف طفولي مني، لكننا هكذا كنا.

قالت ماما لبابا وهي تتمدد إلى جواري: «هل يمكنك أن تلقي نظرة على فيا؟»

توقف عند الباب واستدار: «ماذا حدث لفيا؟»

قالت ماما وهي تهز كتفيها: «لا شيء. على الأقل لم تقل لي شيئًا. لكن... أنت تعرف أول يوم في المدرسة الثانوية.»

قال بابا: «ممم!»

ثم أشار بإصبعه إليَّ وغمز بعينه: «دائمًا لديكم موضوع ما يا أولاد!»

قالت ماما: «إثارة لا تنتهي.»

وردد بابا: «إثارة لا تنتهي. ليلة سعيدة يا شباب.»

فور أن أغلق الباب، تناولت ماما الكتاب الذي ظلت تقرأ لي منه طوال الأسبوعين الماضيين. شعرت براحة لأنني خفت من أن تكون لديها رغبة في «الكلام»، وأنا لم أكن أشعر برغبة في ذلك. لكن بدا أن ماما أيضًا لا تريد الكلام. فقط تصفَّحت الكتاب حتى

وصلت إلى الصفحة التي توقفنا عندها. كنا تقريبًا في منتصف كتاب «الهوبيت».

قالت ماما، وهي تقرأ بصوت عالٍ:

> **صرخ ثورين: «توقف! توقف!»، لكن قد فات الأوان، وأهدر الأقزام المتحمسون آخِرَ سهامهم، وهكذا صارت الأقواس التي أعطاها لهم بيرون بلا فائدة.**
>
> **غمرتهم الكآبة تلك الليلة، وغاصت الكآبة فيهم أعمق وأعمق في الأيام التالية. كانوا قد عبروا النهر المسحور، لكن الدرب من ورائه بدا ممتدًا على غير هدًى كما سابقه، وفي الغابة لم يبد لهم أن شيئًا قد تغير.**

لا أعرف لماذا، لكنني فجأة شرعت في البكاء.

وضعت ماما الكتاب وأحاطتني بذراعيها. لم تبدُ مندهشة من بكائي. وهمست في أذني: «لا بأس. ستكون الأمور على ما يُرام.»

قلت وأنا أشهق: «أنا آسف!»

قالت وهي تمسح دموعي بظهر يدها: «شش! لا تتأسف.»

همستُ: «لماذا كان يجب أن أكون بهذا القُبح يا ماما؟»

«لا يا حبيبي، أنت لست...»

«أنا أعرف أنني قبيح جدًا.»

غمرتْ وجهي بالقُبلات. قبّلتْ عينيَّ المنخفضتين الساقطتين. قبّلتْ خديَّ الغائرين الأجوفين. قبّلتْ فمي الأشبه بفم السلاحف.

قالت كلمات رقيقة أعرف أنها أرادت بها مساعدتي، لكن لا تستطيع الكلمات أن تُبدِّل وجهي.

أيقظوني عندما ينتهي سبتمبر

كانت بقية سبتمبر صعبة. لم أكن مُعتادًا على الاستيقاظ في الصباح مبكرًا هكذا. لم أكن معتادًا على فكرة أداء الواجبات المنزلية. وخُضت أول «اختبار» لي في آخر الشهر. لم أكن أخوض اختبارات عندما كانت ماما تُدرِّس لي في البيت. كذلك أزعجني أنه لم يعد لديَّ وقتٌ فراغ. من قبلُ، كنت ألعب وقتما أريد، لكن الآن أشعر أن لديَّ دائمًا ما أفعله من أجل المدرسة.

كذلك كان الوجود في المدرسة فظيعًا في بدايته. كل فصل جديد كان يمثل فرصة جديدة كي لا «يحدق فيَّ» الأولاد. كانوا يختلسون النظرات إليَّ من خلف كُرَّاساتهم أو عندما يظنونني غير منتبه لهم. كانوا يدورون حولي دورات واسعة ليتجنبوا أدنى احتمال للاصطدام بي، وكأنني مُصابٌ بجرثومة يمكن أن تنتقل عدواها إليهم، وكأن وجهي مُعْدٍ.

في الممرَّات، التي كانت مزدحمة دائمًا، كان وجهي دائمًا يفاجئ ولدًا على غير توقُّع، ولدًا لم يسمع عني. تجد الولد وقد أصدر صوتًا مثل الذي تُصدره عندما تكتم أنفاسك قبل أن تغطس في الماء؛ آهة قصيرة. كان ذلك يحدث نحو أربع أو خمس مرَّات في اليوم على مدى الأسابيع الأولى. على السلالم، أمام الخزانات، في

المكتبة. خمسمائة ولد في المدرسة. وفي النهاية، لا بد لكل منهم أن يرى وجهي في لحظة ما. وعرفت بعد انقضاء الأيام الأولى أن خبري قد ذاع، لأنني، بين حين وآخر، كنت أضبط ولدًا وهو يَلْكِز صديقه حين يمرّان بي، أو يتكلمان من وراء يديهما عندما أمُرُّ بهما. ولا يسعني إلا أن أتخيَّل ما يقولانه عني. والحقيقة أنني لا أريد حتى أن أتخيَّل.

لا أقول إنهم كانوا يفعلون أيًّا من تلك الأشياء بطريقة خسيسة. بالمناسبة، لم يحدث، ولا مرَّة واحدة، أن ضحك أيُّ ولد أو رفع صوته، أو أي شيء من هذا القبيل. كانوا يتصرفون مثل أولاد عاديين مغفلين، أعرف هذا. وقد شعرت برغبة أن أقول لهم ذلك. أن أقول: «طيب، أنا أعرف أن منظري غريب، ألقوا نظرة، أنا لا أعضُّ.» والحقيقة أنه لو خرج أحد مخلوقات الـ«ووكي» من أفلام حرب النجوم وبدأ يرتاد المدرسة فجأة، فسيتملكني الفضول، بل وغالبًا سأحدق فيه قليلًا! ولو كنت أمشي مع جاك أو سمر، فغالبًا سوف أهمس لهما: «انظرا، ها هو الـ«ووكي».» ولو ضبطني الـ«ووكي» وأنا أقول هذا، فسيعرف أنني لا أقصد أن أكون خسيسًا. أنا فقط أُوضِّح حقيقة أنه «ووكي».

مرَّ نحو أسبوع قبل أن يعتاد زملائي في الفصل على وجهي. وكان هؤلاء هم الأولاد الذين سأراهم كل يوم في كل الفصول.

ومرَّ نحو أسبوعين قبل أن يعتاد بقية زملائي في الصف على وجهي. كان هؤلاء هم الأولاد الذين سأراهم في الكافتيريا،

وفي الفناء، وفي التربية الرياضية، والموسيقى، والمكتبة، وحصة الكمبيوتر.

ومرَّ نحو شهر قبل أن يعتاد بقية زملائي في المدرسة بأكملها عليه. هؤلاء هم الأولاد في كل الصفوف الأخرى، بعضهم كانوا أولادًا كبارًا، بعضهم له قصَّة شعر مجنونة، بعضهم يضع قرطًا في أنفه، بعضهم لديه بُثُور، لكن لا أحدَ منهم يشبهني.

جاك ويل

كنت أرافق جاك في غرفة الاستقبال، وحصص اللغة الإنجليزية، والتاريخ، والكمبيوتر، والموسيقى، والعلوم، أي في كل الفصول التي نحضرها معًا. كان المُدرِّسون يُخصصون المقاعد في كل فصل، وانتهيت إلى الجلوس بجانب جاك في كل الفصول، وهكذا فهمت أن المُدرِّسين تلقوا تعليمات بأن يُجلسونا أنا وجاك متجاورين، أو أنها كانت مصادفة لا تُصدَّق.

كنت أسير إلى الفصول مع جاك أيضًا. أعرف أنه كان يلاحظ الأولاد وهم يحدقون فيَّ، لكنه كان يتظاهر بأنه لا يلاحظهم. مع ذلك، فذات مرَّة، ونحن في طريقنا إلى فصل التاريخ، اصطدم بنا هذا الولد الضخم من الصف الثامن الذي كان ينزل السُّلم درجتين في كل مرَّة، فأسقطني أرضًا. وفيما كان الفتى يساعدني على الوقوف، لمح وجهي، ومن غير حتى أن يقصد، قال: «يا خبر!». ثم ربت على كتفي، وكأنه ينفض عني التراب، وانطلق في أعقاب أصدقائه. ولسبب ما، انفجرنا أنا وجاك ضاحكين.

قال جاك عندما اتخذنا مقاعدنا: «هذا التعبير على وجه الفتى كان مُضحكًا جدًّا.»

قلت: «نعم، هل رأيت؟ وقال: «يا خبر»!»

«أُقسم إنه بلل سرواله!»

كنا نضحك بقوة، حتى إن الأستاذ «روتش» طلب منا أن نهدأ لاحقًا، بعد أن انتهينا من القراءة عن السُّومريين القدماء وكيف كانوا يصنعون الساعات الشمسية، همس جاك: «ألا تشعر برغبة أحيانًا في أن تُلقِّن هؤلاء الأولاد درسًا؟»

هززت كتفيَّ: «أظن، لا أعرف.»

«أنا أريد ذلك. أعتقد أنك يجب أن تحصل على بخَّاخ خفيٍّ أو شيء من هذا القبيل، وتلصقه بعينيك بطريقة ما. وكلما حدق فيك أحدهم، تبخُّ في وجهه.»

رددت: «بخاخ مليء بلعاب مُخدِّر أو شيء من هذا القبيل.»

«لا، لا. مليء بعصير ديدان مخلوط ببول كلاب.»

قلت، وأنا أوافقه تمامًا: «هو ذلك!»

قال الأستاذ روتش من آخر الغرفة: «يا شباب، زملاؤكم ما زالوا يقرأون.»

أومأنا برأسينا ونظرنا في الكتاب، ثم همس جاك: «هل سيظل شكلك هكذا يا أوجست؟ أقصد، ألا يمكن أن تُجري جراحة تجميل أو شيئًا من هذا القبيل؟»

ابتسمت وأشرت إلى وجهي: «أهلًا، هذا هو وجهي بعد جراحة التجميل!»

ضرب جاك جبينه بيده وبدأ يضحك بهستيريا. ورد عليَّ بين قهقهاته: «يا صاحبي، عليك أن ترفع قضية ضد الطبيب!»

تلك المرّة ضحكنا عاليًا، حتى إننا لم نستطع التوقف، حتى بعدما جاء إلينا الأستاذ روتش وجَعَلَنا نبدل مِقْعَدَينا مع الولدين اللذين يجلسان بجوارنا.

وصية الأستاذ براون لشهر أكتوبر

كانت وصية الأستاذ براوُن لشهر أكتوبر تقول:

أفعالك هي الآثار الشاهدة عليك

قال لنا: «إن هذه العبارة كانت مكتوبة على شاهد قبر أحد المصريين الذين ماتوا قبل آلاف السنين. وبما أننا كنا على وشك دراسة مصر القديمة في التاريخ، فقد رأى الأستاذ براون اختيار تلك العبارة كوصية.»

كان واجبنا المدرسي هو كتابة فقرة عن المعنى الذي نفهمه من الوصية أو عن شعورنا تجاهها.

وكان هذا ما كتبته:

هذه الوصية تعني أن الناس يجب أن يتذكرونا من الأشياء التي نفعلها. الأشياء التي نفعلها هي أهم الأشياء على الإطلاق، هي أهم مما نقوله أو ما نبدو عليه. الأشياء التي نفعلها تبقى بعد موتنا. الأشياء التي نفعلها تشبه الآثار التي يقيمها الناس لتكريم الأبطال بعد موتهم. لكنها ليست مبنية من الحجارة، وإنما من ذكريات الناس عنا. لهذا السبب فإن أفعالك تشبه آثارك. وإن كانت مشيدة من الذكريات لا من الأحجار.

تفاح

وُلِدتُ في ١٠ أكتوبر. أحب تاريخ ميلادي: ١٠/١٠. لو كنت ولدت في الساعة ١٠:١٠ بالضبط، صباحًا أو مساء، لكان ذلك أمرًا عظيمًا. لكن ذلك لم يحدث. لقد وُلِدتُ بعد منتصف الليل. لكنني ما زلت أرى تاريخ ميلادي لطيفًا.

عادة ما نقيم حفلة صغيرة في البيت، لكن تلك السنة طلبت من ماما أن نقيم حفل «بولينج» كبيرًا. فوجئت ماما لكنها سُرَّت. سألتني من سأدعو من فصلي، وقلت: «جميع زملائي في غرفة استقبال الصف بالإضافة إلى سمر.»

قالت ماما: «هذا عدد كبير يا أوجي.»

«يجب أن أدعو الجميع لأنني لا أريد أن أجرح مشاعر أحد إذا اكتشفوا أن غيرهم دُعوا وهم لم يُدعوا، طيب؟»

وافقت ماما: «طيب. ستدعو أيضًا الولد الذي سألك: «ما مشكلة وجهك؟».»

أجبت: «نعم، يمكنك دعوة جوليان. يا خبر يا ماما! ما زلت تتذكرين؟»

«أعرف، أنت مُحق.»

بعدها ببضعة أسابيع، سألتُ ماما من سيحضر حفل عيد

ميلادي، فقالت: «جاك ويل وسمر. «ريد كنجسلي». «ماكس» و«ماكس». وبعض الأولاد الآخرين قالوا إنهم سيحاولون الحضور.»

«مثل مَن؟»

«والدة تشارلوت قالت إن تشارلوت لديها عَرْضُ راقصٍ قبل الموعد في اليوم نفسه، لكنها ستحاول أن تلحق بالحفل إذا سمح الوقت. ووالدة «تريستان» قالت إنه ربما يأتي بعد مباراة كرة القدم التي سيشارك فيها.»

قلت: «هذا كل شيء إذًا؟ خمسة أشخاص؟»

ردت ماما: «أكثر من خمسة أشخاص يا أوجي. أعتقد أن كثيرًا منهم كانوا قد رتبوا خططًا بالفعل.»

كنا في المطبخ. كانت تقطع إحدى التفاحات التي اشتريناها للتوِّ من سوق المُزارعين إلى «فُتات الفُتات» حتى أستطيع أن آكلها.

سألتُ: «أية خطط؟»

«لا أعرف يا أوجي. لقد أرسلنا الدعوات متأخرًا بعض الشيء.»

«يعني ماذا قالوا لك؟ ما الأسباب التي قالوها؟»

بدا عليها شيء من نفاد الصبر: «كل واحد قال سببًا مختلفًا يا أوجي. صَدِّقني يا حبيبي، أسبابهم لا تهمك. الناس لديهم خطط، هذا هو كل شيء.»

سألتُ: «ما السبب الذي قاله جوليان؟»

قالت ماما: «تعرف، والدته كانت الوحيدة التي لم ترد على الإطلاق.»

نظرَت إليّ وتابعت: «العِرْق دَسّاس!»

ضحكتُ لأنني ظننتها تمزح، ثم أدركت أنها لا تمزح.

سألتُ: «ما معنى هذا؟»

«لا تشغل بالك. اذهب واغسل يديك حتى تأكل.»

هكذا، أصبحت حفلة عيد ميلادي أصغر كثيراً مما توقعت، لكنها كانت عظيمة. جاك وسمر وريد وتريستان وماكس وماكس جاءوا من المدرسة، وكريستوفر جاء أيضًا - بعد أن قطع طريقًا طويلًا من بريدجبورت مع والديه. وجاء «العم بين»، وجاءت «الخالة كيت» و«العم بو» بالسيارة من بوسطن، لكن تاتا وبوبا كانا يقضيان الشتاء في فلوريدا. كانت الأجواء مرحة، حيث انتهى كل الكبار إلى لعب البولينج في الحارة المجاورة لحارتنا، وهكذا بدا وكأن الكثيرين جاءوا للاحتفال بعيد ميلادي.

الهالووين

في اليوم التالي على الغداء، سألتني سمر عن الشخصية التي سأختارها لاحتفالات الهالووين التَّنكُّرية. بالطبع كنت أفكر في هذا الأمر منذ الهالووين الماضي، وهكذا أجبت على الفور: «بوبا فِت.»

«تعرف أنك تستطيع الحضور إلى المدرسة يوم الهالووين في زي تَنَكُّري، صح؟»

«مستحيل، حقًّا؟»

«ما دام هذا الزي لائقًا من الناحية السياسية.»

«تقصدين ممنوع المسدسات وما شابه؟»

«بالضبط.»

«وماذا عن البنادق الناسفة؟»

«أعتقد أن البندقية الناسفة مثل المسدس يا أوجي.»

«يا خسارة!»

قلتها وأنا أهز رأسي، فبوبا فِت يحمل بندقية ناسفة.

«على الأقل لم نعد مُضطرِّين لأنْ نتنكر في زي شخصيات الكتب. في المدرسة الابتدائية عليك أن تفعل ذلك. في العام الماضي تنكرت في زي ساحرة الغرب الشريرة، إحدى شخصيات «ساحر أوز».»

«لكنه فيلم وليس رواية!»

ردت سمر: «يا رجل! إنه كتاب أصلًا! بل وأحد أفضل الكتب في العالم بالنسبة إليَّ. كان بابا يقرأ لي منه كل ليلة وأنا في الصف الأول.»

عندما تتكلم سمر، خصوصًا عندما تتحمس لشيء ما، تضيق عيناها وكأنها تحدق في الشمس.

في الغالب لا أرى سمر نهارًا، فالحصة الوحيدة التي نحضرها معًا هي حصة اللغة الإنجليزية. لكن منذ أول غداء لنا في المدرسة ونحن نجلس على «طاولة الصيف» معًا كل يوم، نحن فقط.

سألتها: «إذًا، أي شخصية ستختارين؟»

«لا أعرف بعدُ. أعرف ماذا أريد، لكنني أظنه سيكون حماقة. تعرف، شلة «سافانا» لن ترتدي أزياء هذه السنة. يعتقدن أنهن أكبر من موضوع الهالووين.»

«ماذا؟ هذا عَبَط!»

«أليس كذلك؟»

«ظننتك لا تهتمين برأي أولئك البنات.»

هزت كتفيها وشربت جرعة كبيرة من اللبن.

سألتها مُبتسمًا: «إذًا، ما هو الزي الأحمق الذي تريدين ارتداءه؟»

«عِدْنِي ألا تضحك.»

رفعت حاجبيها وكتفيها في حرج.

«الحصان وحيد القرن.»

ابتسمتُ ونظرتُ إلى أسفل في ساندويتشي.

ضحكَتْ: «لقد وعدتني ألا تضحك.»

قلت: «طيب، طيب. لكنك محِقة: هذه حماقة.»

قالت: «أعرف. لكنني خططت لكل شيء: سأصنع الرأس من عجينة الورق، وأُلَوِّن القرن بالذهبي، وأجعل العُرف ذهبيًّا أيضًا... سيكون رائعًا.»

هززت كتفيَّ: «طيب. افعلي ذلك إذًا. من يهتم برأي الآخرين؟ صح؟»

قالت، وهي تفرقع بإصبعيها: «ربما أرتدي هذا الزي في موكب الهالووين. وفي المدرسة أرتدي زيًّا من قبيل الفتاة القوطية التي تُشبه مصاصي الدماء. نعم، هو كذلك. هذا ما سأفعله.»

أومأت: «تبدو خطة جيدة.»

قهقهَت: «شكرًا يا أوجي. تعرف، هذا أكثر ما يعجبني فيك. أشعر بأنني أستطيع أن أُخبرك بأي شيء.»

أجبت وأنا أومئ برأسي: «صحيح.»

ثم رفعتُ إبهامي استحسانًا: «لطيف وظريف!»

صور مدرسية

لا أظن أن أحدًا سيُصدم حين يعرف أنني لا أرغب في الظهور في الصور المدرسية التي ستُلتقط يوم ٢٢ أكتوبر. مستحيل. لا.. شكرًا! لقد توقفت عن السماح لأي شخص بأن يلتقط لي صورًا منذ زمن طويل. تستطيع أن تسميه خوفًا مرضيًا. لا، في الحقيقة ليس خوفًا مرضيًا، بل هو «نفور»، وهي كلمة تعلَّمتها مؤخرًا في حصة الأستاذ براون. لديَّ نفور تجاه التقاط صور لي. ها أنا قد وضعتها في جملة مفيدة.

ظننت أن ماما ستحاول أن تُثْنِيَني عن نفوري من التقاط صور مدرسية، لكنها لم تحاول. وقد استطعت تجنب التقاط الصورة الشخصية، لكنني، لسوء الحظ، لم أستطع تفادي المشاركة في صورة الفصل. اغغ! عندما وقعت عينا المصور عليَّ، بدا وكأنه أكل ليمونة. مؤكد أنه قال لنفسه إنني أفسدت الصورة. كنت مع التلاميذ الجالسين في الصف الأول. لم أبتسم، ولو ابتسمت لَما عرف أحد.

لمسة الجُبن

لاحظت منذ زمن ليس ببعيد أنه، برغم اعتياد الناس عليَّ، لا أحد يلمسني. لم أدرك ذلك في البداية لأنه لم يكن من الطبيعي بالنسبة لأولاد في المدرسة الإعدادية، أن يلمسوا بعضهم بعضًا على أية حال. لكن الخميس الماضي في حصة الرقص، وهي أقل حصة أُحبُّها، حاولت الأستاذة «أتانابي» أن تجعل هيمينا تشين رفيقتي في الرقص. لم أرَ شخصًا يصاب بـ«نوبة هلع» من قبل، لكنني سمعت عنها، وأنا واثق أن ما أُصيبت به هيمينا تلك اللحظة كان نوبة هلع. ارتبكَت ارتباكًا بالغًا، وشحب وجهُها، وتصبَّب منها العرق في لحظة، ثم خرجت بعذر مفضوح، وهو أنها يجب أن تذهب إلى الحمَّام. على أية حال، انتهى الأمر بأن أطلقت الأستاذة أتانابي سراحها، وقررت ألا يرقص أحد مع أحد.

بعدها، حدث أمس في حصة العلوم الاختيارية، أننا كنا نُجري تجربة المسحوق الغامض، تلك التجربة اللطيفة التي نقوم فيها بتصنيف المواد كأحماض أو قواعد. كان على كلٍّ منا أن يُسَخِّن مسحوقه على صفيحة، وأن يَخرج بملاحظات، وهكذا كنا جميعًا مُنكَبِّين على المساحيق، ومعنا كُرَّاساتنا. كان هناك ثمانية أولاد في هذا الفصل الاختياري، سبعة منهم محشورون معًا عند أحد

جانبي الصفيحة، بينما واحد فقط - هو أنا - لديه مساحة هائلة على الجانب الآخر. وقد لاحظتُ ذلك بالطبع، لكنني تمنيت ألا تلاحظه الأستاذة «روبين»، لأنني لم أُرِدْها أن تقول شيئًا. لكنها طبعًا لاحظت، وطبعًا قالت شيئًا: «يا شباب، هناك مساحة كبيرة في الجانب الآخر. تريستان و«نينو»، إلى هناك!»

وهكذا انزاح تريستان ونينو إلى الجانب الذي أقف فيه. عمومًا، كان تريستان ونينو يعاملانني بلُطف، وأنا أريد أن أشهد على ذلك. ليس بلُطف بالغ، كأن يتجها نحوي خِصِّيصًا لكي يتحدثا معي، لكن بلُطف معقول، كأن يقولا لي أهلًا ويتكلما معي بصورة عادية. كما أنهما لم يظهرا أي امتعاض عندما قالت لهما الأستاذة روبين أن ينتقلا إلى ناحيتي، وهو ما يفعله الكثير من الأولاد عندما يظنون أنني لا أنظر إليهم. على أية حال، كان كل شيء يسير على ما يُرام، حتى بدأ المسحوق الغامض الخاص بتريستان في الانصهار. أزاح ورقته المُفضَّضة عن الصفيحة في اللحظة نفسها التي بدأ فيها مسحوقي في الانصهار أيضًا، وهو ما جعلني أمُدُّ يدي لإزاحته عن الصفيحة، وهكذا اصطدمت يدي عفوًا بيده لجزء من الثانية. نفض تريستان يده بسرعة، حتى إنه أسقط الورقة المُفَضَّضة على الأرض، وأطاح ببقية الأوراق المُفضَّضة عن صفيحة التسخين.

صاحت الأستاذة روبين: «تريستان!»

لكن تريستان لم يبدُ مشغولًا بالمسحوق المنثور على الأرض، أو بكونه أفسد التجربة. ما كان مشغولًا به أكثر من أي شيء،

هو الذهاب إلى حوض الغسيل في المختبر لكي يغسل يديه بأسرع ما يمكن. في هذه اللحظة تأكدت من وجود هذا الشيء المتعلّق بلمسي في مدرسة بيتشر الخاصة.

أعتقد أن ذلك مثل «لمسة الجُبن» في رواية «مذكرات طالب». كان الأولاد في تلك القصة يخافون من التقاط العدوى إذا لمسوا قطعة الجُبن القديمة العَفِنة في ملعب كرة السلة. في مدرسة بيتشر الخاصة، أنا قطعة الجُبن القديمة العَفِنة.

أزياء تَنكُّرية

بالنسبة إليَّ، الهالووين هو أفضل عيد في العالم. أفضل حتى من أعياد الكريسماس. ففيه أرتدي زيًّا تَنكُّريًّا، وفيه أضع قناعًا، وفيه أتجول مثل كل الأطفال الآخرين بالقناع دون أن يظن أحدٌ أنني غريب. لا أحد ينظر إليَّ مرتين، لا أحد يلاحظني، لا أحد يعرفني.

أتمنى لو أن كل الأيام هالووين. يمكننا جميعًا أن نضع أقنعة طوال الوقت. وهكذا يمكننا أن نسير هنا وهناك، ونتعارف قبل أن نرى أشكالنا من وراء الأقنعة.

عندما كنتُ صغيراً، كنت أضع خوذة رائد فضاء أينما ذهبت: في الملعب، في السوبر ماركت، حين نذهب لاصطحاب فيا من المدرسة، حتى في عز الصيف، برغم أن الجو يكون شديد الحرارة ووجهي يتصبب عرقًا. أظنني ظللت أضعها بضعة أعوام، لكنني اضطررت إلى التوقف عن ذلك عندما أُجريت عملية في عيني. كنت في السابعة تقريبًا، كما أتذكر. وبعدها لم نجد الخوذة. ماما بحثت عنها في كل مكان. وتوصلت إلى أنها على الأغلب ستكون في صندرة جدتي. وظلت تنوي البحث عنها، لكنني كنت قد اعتدت على اختفائها.

عندي صور وأنا أرتدي كل أزياء الهالووين. أول عيد هالووين كنتُ ثمرة قَرْع، وفي الثاني كنت النمر «نمُور»، وفي الثالث كنت «بيتر بان» (وارتدى بابا زي «الكابتن هوك»)، وفي الرابع كنت «الكابتن هوك» (وارتدى بابا زي «بيتر بان»)، وفي الخامس كنت رائد فضاء، وفي السادس كنت «أوبي وان كينوبي» (من «حرب النجوم»)، وفي السابع كنت جنديًّا مُستنسَخًا، وفي الثامن كنت دارث فيدر، وفي التاسع كنت «الصرخة الدامية»، تلك الشخصية التي لها رأس جمجمة يَنزُّ منها دمٌ صناعي.

هذا العام سأكون «بوبا فِت». ليس «بوبا فِت» الصبي في «حرب النجوم - الجزء الثاني: هجوم المستنسخين»، ولكن «بوبا فِت» الرجل في «حرب النجوم - الجزء الخامس: الإمبراطورية ترد الهجوم». بحثت ماما في كل مكان عن الزِّي، لكنها لم تجد مقاسي، فاشترت لي زي «جانجو فِت» - حيث إن «جانجو فِت» هو والد «بوبا» ويرتدي نفس الدِّرع - ثم لوَّنَت الدرع بالأخضر. وفعلَت أشياء أخرى لتجعله يبدو باليًا أيضًا. على أية حال فقد أصبح يبدو حقيقيًّا جدًّا. ماما ماهرة في الأزياء.

في غرفة الاستقبال أخذنا جميعًا نتكلم عن الشخصيات التي سنختارها للهالووين. تشارلوت ستأتي في زي «هرمايوني» من «هاري بوتر». جاك سيأتي في زي «الرجل الذئب». وسمعت أن جوليان سيأتي في زي «جانجو فِت»، وهي مصادفة غريبة. لا أعتقد أنه كان سعيدًا عندما سمع أنني سأحضر في زي «بوبا فِت».

في صباح الهالووين، انهمرت دموع فيا على شيء ما. فيا هادئة ولطيفة بطبعها، لكن تلك السنة أصابتها بضع نوبات من هذا النوع. كان بابا متأخرًا على عمله، وكان ينادي ويقول: «فيا، هيا بنا! هيا بنا!». عادة، يتعامل بابا بصبر مع كل شيء، إلا عندما يتعلق الأمر بتأخره عن عمله، وأخذ صياحه يزيد من توتر فيا، فبدأت تبكي بصوت أعلى، وهكذا طلبت ماما من بابا أن يأخذني إلى المدرسة على أن تتعامل هي مع فيا. ثم قبّلتني ماما بسرعة، حتى قبل أن أرتدي زيِّي، واختفت في غرفة فيا.

قال بابا: «أوجي، هيا نذهب الآن. عندي اجتماع لا أستطيع أن أتأخر عنه.»

«لكنني لم أرتدِ زيي بعدُ.»

«إذًا ارتده الآن. أمامك خمس دقائق. سأُقابلك في الخارج.»

اندفعتُ إلى غرفتي وبدأت أرتدي زي بوبا فِت، لكن فجأة لم أعد أرغب في ارتدائه. لا أعرف لماذا؛ ربما لأن به كل تلك الأحزمة التي تحتاج إلى شدٍّ، وأردت شخصًا يساعدني على ارتدائه، وربما لأن رائحة الطلاء كانت لا تزال تفوح منه. كل ما فكرت فيه أن ارتداء هذا الزي يحتاج إلى الكثير من العناء، وبابا كان ينتظر وسوف ينفد صبره إذا جعلته يتأخر. وهكذا، في آخر لحظة، ألقيت عليَّ رداء «الصرخة الدامية»، الذي ارتديته العام الماضي. كان زيًّا سهلًا: مجرد رداء أسود طويل وقناع أبيض كبير. صحت مُوَدِّعًا ماما عند الباب وأنا في طريقي إلى الخارج، لكنها لم تسمعني أصلًا.

عندما خرجت قال بابا: «ظننتك سترتدي زي جانجو فِت.»

«بوبا فِت!»

قال بابا: «أيًّا كان. هذا الزي أفضل على أية حال.»

رددت: «نعم، زي لطيف.»

الصرخة الدامية

يجب أن أقول إن المشي في الممرَّات هذا الصباح في الطريق إلى الخزانات كان غايةً في الروعة. كل شيء صار مختلفًا. أنا صرت مختلفًا. وحيثما كنت أمشي مُطرقًا برأسي، محاولًا تجنُّب أن يراني أحد، كنت اليوم أمشي ورأسي مرفوع، أجول ببصري. أردت أن يشاهدوني. أحد الأولاد كان يرتدي نفس الزي الذي أرتديه، وجه جمجمة بيضاء طويلة يَنزُّ منها دمٌ أحمر صناعي. ضرب كفه بكفي عاليًا حين مر بي على السلم. ليس عندي فكرة مَن كان، ولم يكن لديه فكرة مَن كنتُ أنا، وتساءلت للحظة ما إذا كان سيفعل ذلك لو عرف أن من وراء القناع هو أنا.

كنت قد بدأت أفكر في أن هذا اليوم سيُصبح أحدَ أروع الأيام في تاريخ حياتي، لكنني ساعتها وصلت إلى غرفة الاستقبال. أول زي رأيته عندما دخلت من الباب كان دارث سيديوس. كان له واحد من تلك الأقنعة المطاطية شديدة الواقعية، بقلنسوة سوداء كبيرة فوق رأسه وثوب أسود طويل. عرفت على الفور أنه جوليان، بالطبع. لا بد أنه غيَّر زيه في آخر لحظة، لأنه ظن أنني سآتي في زي بوبا فِت. كان يتكلم مع اثنتين من المومياوات، لا بد أنهما مايلز وهنري، وكانوا جميعًا ينظرون إلى الباب وكأنما ينتظرون دخول

شخص ما. أعرف أنهم لم يكونوا في انتظار الصرخة الدامية، وإنما بوبا فِت.

كدت أتحرك لأجلس في مقعدي المعتاد، لكن لسببٍ ما، لا أعرف لماذا، وجدت نفسي أتجه نحو مقعد قريب منهم، وأصبح بإمكاني سماعهم.

كانت إحدى المومياوين تقول: «الزي يُشبهه فعلًا.»

قال صوت جوليان: «خصوصًا من هذا الجزء...»

ووضع أصابعه على خَدَّي وعَيْنَي قناع دارث سيديوس.

قالت المومياء: «الحقيقة أنه يُشبه تمامًا واحدًا من تلك الرؤوس المُنْبَعِجة. هل سبق لك أن رأيتها؟ يبدو مثلها بالضبط.»

«أظن أنه يشبه مسوخ الـ«أورك».»

«نعم، صحيح!»

جاء صوت جوليان بنبرة ضاحكة: «لو كان شكلي هكذا، أقسم بالله إنني كنت سأُغطي وجهي بالقلنسوة كل يوم.»

قالت المومياء الثانية، وقد بدت عليه الجِدِّية: «لقد فكرت في الأمر طويلًا. وأعتقد بحق... لو كان شكلي مثله، وأنا جاد، أعتقد أنني كنت سأنتحر.»

رد دارث سيديوس: «لن تنتحر.»

أصرت المومياء نفسها: «سأنتحر، بجد. لا أتخيل أن أنظر في المرآة كل يوم وأرى نفسي على هذا الشكل. سيكون ذلك بَشِعًا، وأن يحدق الناس فيّ طوال الوقت.»

سأل دارث سيديوس: «إذًا لماذا تقضي هذا الوقت الطويل بصحبته؟»

أجابت المومياء: «لا أعرف. توشمان طلب مني أن أُرافقه في بداية السنة، ولا بد أنه قال للمُدرِّسين أن يُجلسونا متجاورين في كل الفصول، أو شيئًا من هذا القبيل.»

هزت المومياء كتفيها. عرفت تلك الحركة بالطبع. عرفت الصوت. عرفت أنني أريد أن أركض خارجًا من الفصل في ذلك الزمان والمكان. لكنني ظللت واقفًا مكاني أنصِت لجاك ويل وهو يُنهي ما كان يقوله: «أقصد، الموضوع هو أنه يتبعني أينما ذهبت. فماذا أفعل؟»

قال جوليان: «تَخلَّصْ منه.»

لا أعرف بِمَ أجاب جاك، لأنني خرجت من الفصل من دون أن يعرف أحد أنني كنت هناك. شعرت بوجهي وكأنه يحترق وأنا أعود أدراجي نزولًا على السلم. كنت أتصبَّب عرقًا من تحت زيِّي. وبدأت أبكي. لم أستطع أن أمنع نفسي. كانت الدموع كثيفة جدًّا في عيني، حتى إنني لم أعد أرى تقريبًا، لكنني لم أستطع أن أمسحها من تحت القناع وأنا أمشي. رحت أبحث عن مكان صغير أختبئ فيه. حفرة أسقط فيها، حفرة صغيرة مُظلمة تنشقُّ وتبتلعني.

أسماء

الرجل الفأر. المَسخ. الغول. فريدي كروجر. إي تي. المشوَّه. وجه السحلية. المتحول. أعرف الأسماء التي يطلقونها عليَّ. من كثرة ترددي على الملاعب، عرفت مدى الخسة التي تكون لدى الصغار أحيانًا. أعرف، أعرف، أعرف.

انتهيت إلى حمَّام الطابق الثاني. لم يكن أحد هناك، لأن الحصة الأولى كانت قد بدأت، وكان الجميع في الفصول. أقفلت باب كابينتي وخلعت قناعي ورحت أبكي لا أعرف لِكَمْ من الوقت. ثم ذهبت إلى مكتب الممرضة وقلت لها إن معدتي تؤلمني، وكانت حقيقة، لأنني شعرت وكأن شخصًا قد ركلني في بطني. اتصلت الممرضة «مولي» بماما، وجعلتني أرقد على الأريكة بجوار مكتبها. بعدها بخمس عشرة دقيقة كانت ماما على الباب.

قالت، وهي تتجه نحوي لتحتضنني: «يا حبيبي!»

همهمتُ: «أهلًا.»

لم أكن أريد أية أسئلة ساعتها.

سألتني، وهي تضع يدها بصورة آلية على جبيني لتقيس حرارتي: «معدتك تؤلمك؟»

قالت الممرضة مولي، وهي تنظر إليَّ بعينين غاية في الرِّقة: «قال إنه يشعر برغبة في القيء.»

همستُ: «وعندي صداع.»

قالت ماما، وقد بدا عليها القلق: «هل هو شيء أكلته يا تُرى؟»

قالت الممرضة مولي: «هناك جرثومة مَعِدية منتشرة هذه الأيام.»

قالت ماما، وحاجباها يرتفعان وهي تهز رأسها: «يا ربي!» ساعدتني على الوقوف: «هل أطلب تاكسي أم تستطيع المشي حتى البيت؟»

«أستطيع المشي.»

قالت الممرضة مولي، وهي تربت على ظهري وتصحبنا حتى الباب: «أنت ولد شجاع. إذا بدأ يتقيأ أو ارتفعت حرارته، عليك الاتصال بطبيب.»

قالت ماما، وهي تصافح الممرضة مولي: «بالتأكيد. شكرًا جزيلًا لكِ على اهتمامك به.»

ردت الممرضة مولي وهي تضع يدها أسفل ذقني وترفع وجهي إلى أعلى: «على الرحب والسعة. اهتم بنفسك، اتفقنا؟»

أومأت برأسي وهمهمتُ: «شكرًا.»

سرت إلى جوار ماما وهي تطوقني بذراعها طوال الطريق إلى البيت. لم أُخبرها بأيٍّ مما حدث، وعندما سألتني لاحقًا إذا كنت أشعر بتحسُّن وأستطيع أن أُشارك الصِّبية في المرور على الجيران وسؤالهم «حيلة أم حلوى؟»، قلت: «لا.» وقد أقلقها هذا، لأنها كانت تعرف كم كنت أحب هذا الجزء من العيد.

سمعتها تقول لبابا في التلفون: «... إنه حتى لم يجد لديه القوة لزيارة الجيران وسؤالهم «حيلة أم حلوى؟»... لا، لا، ليست لديه حمى... طيب، سأفعل ذلك غدًا إذا كان قد تحسَّن... أعرف، يا له من مسكين... تخيل أن العيد سيفوته!»

أُعفيت من المدرسة اليوم التالي أيضًا، وكان يوم جمعة. وهكذا كانت أمامي عطلة نهاية الأسبوع بأكملها لأفكر في كل شيء. وكنت متأكدًا أنني لن أرجع إلى المدرسة ثانية مهما حصل.

الجزء الثاني



فيا

«عاليًا عاليًا، فوق العالم

كوكب الأرض أزرق

وما باليد حيلة.»

- دافيد بووِي، من أغنية «غريب في الفضاء»

جولة في المجرّة

أوجست هو الشمس. أنا وماما وبابا الكواكب التي تدور حول الشمس. بقية العائلة والأصدقاء هم الكويكبات والمُذَنَّبات التي تطوف حول الكواكب التي تدور حول الشمس. الجرم السماوي الوحيد الذي لا يدور حول «أوجست الشمس» هو دايزي الكلبة، وهذا فقط لأن عينيها الكلبيتين الصغيرتين لا تريان في وجه أوجست اختلافًا عن وجه أي إنسان آخر. بالنسبة إلى دايزي، تبدو وجوهنا جميعًا متشابهة، ملساء وشاحبة كالقمر.

وقد اعتدتُ على قوانين هذا العالم. لم أعترض عليها قَطُّ، لأنني لم أعرف غيرها. لطالما فهمت أن أوجست حالة خاصة وله احتياجات خاصة. إذا كنت ألعب بصخب عالٍ وكان هو يحاول أن يغفو، كنت أعرف أن عليَّ تغيير اللعبة لأنه يحتاج إلى راحة بعد أن أُجريت له عملية ما جعلته ضعيفًا ومتألمًا. إذا أردت من ماما أو بابا أن يشاهداني وأنا ألعب كرة القدم، كنت أعرف أنهما سيتغيبان على الأقل تسع مرّات من كل عشرٍ لأنهما سينشغلان بنقل أوجست إلى جلسة علاج التخاطب، أو العلاج الطبيعي، أو إلى إخصائي جديد، أو جراحة جديدة.

ماما وبابا دائمًا يقولان إنني أكثر فتاة مُتفهِّمة في العالم. لا

أعرف إن كان ذلك حقيقيًا، لكنني فقط أفهم أنه لا جدوى من الشكوى. لقد رأيت أوجست بعد جراحاته: وجهه الصغير ملفوف بالضمادات ومُنتفخ، جسده الضئيل مليء بمحاقن وريدية وأنابيب تُبقيه على قيد الحياة. بعد أن ترى شخصًا آخر في تلك الحالة، سيكون من الجنون أن تشكو لأنك لم تحصل على اللعبة التي طلبتها، أو لأن والدتك تغيَّبت عن مباراة مدرسية. عرفتُ ذلك منذ كنت في السادسة من عمري. لم يخبرني أحد به، لكنني فهمته.

وهكذا، اعتدت ألا أشكو. واعتدت ألا أُضايق ماما وبابا بالتفاهات. اعتدت أن أتصرف بنفسي: كيف أركِّب الألعاب، كيف أُنظِّم حياتي فلا أتغيب عن حفلات عيد ميلاد أصدقائي، كيف أظل متفوقة في دراستي ولا أتأخر عن بقية زملائي. لم أطلب مساعدة قَطُّ في واجباتي المنزلية. لم أكن بحاجة إلى مَن يُذَكِّرني بإنهاء أحد المشاريع أو المذاكرة قبل أحد الامتحانات. إذا واجهت مشكلة مع إحدى المواد الدراسية، أذهب إلى البيت وأُذاكر حتى أحل المشكلة بنفسي. بالدخول على الإنترنت، عَلَّمتُ نفسي كيفية تحويل الكسور الاعتيادية إلى كسور عشرية. نفَّذت كل المشاريع المدرسية تقريبًا بنفسي. وعندما تسألني ماما أو بابا عن أحوالي في المدرسة، أقول دائمًا: «بخير» - حتى لو لم تكن على خير حال دائمًا. فأسوأ يوم قد أمرُّ به، أسوأ سقطة، أسوأ صداع، أسوأ كدمة، أسوأ تقلص عضلي، أسوأ شيء خسيس يمكن أن يقوله لي أي شخص، لا يُقارَن أبدًا بما

قد مَرَّ به أوجست. ليس الأمر كرم أخلاق مني، بالمناسبة، إنما هذا ما وجدت الأمور عليه.

هكذا كانت الأمور بالنسبة إليَّ، بالنسبة إلى عالمنا الصغير. لكن يبدو أن هناك تحولًا في هذا الكون. المجَرَّة تتغير. الكواكب تخرج عن أفلاكها.

قبل أوجست

بكل صدق، لا أتذكر حياتي قبل أن يدخلها أوجست. أنظر إلى صوري وأنا طفلة رضيعة، فأرى ماما وبابا يبتسمان بسعادة، وهما يحملانني. لا أصدق كم كانا يبدوان أصغر وقتها. كان بابا ذلك الشاب البوهيمي، وماما تلك البرازيلية المتأنقة. لي صورة وحيدة في عيد ميلادي الثالث: بابا يقف خلفي وماما ترفع كعكة بها ثلاث شمعات، ومن خلفنا تاتا وبوبا، جدتي، العم بين، الخالة كيت، والعم بو. كلهم ينظرون إليّ وأنا أنظر إلى الكعكة. يمكن أن ترى في هذه الصورة كيف كنت الطفلة الأولى بحق، الحفيدة الأولى، ابنة الأخ والأخت الأولى. لا أتذكر إحساسي بالطبع، لكنني أرى الأمر بوضوح بقدر ما تتيح لي الصور.

لا أتذكر اليوم الذي جاءوا فيه بأوجست إلى المنزل من المستشفى. لا أتذكر ما قلته أو فعلته أو شعرت به عندما رأيته للمرّة الأولى. مع أن كل شخص يروي قصة عما حدث. لكن الظاهر أنني نظرت إليه طويلًا دون أن أقول أي شيء، ثم قلت في النهاية: «لا يبدو مثل لِيلي!». كان هذا هو اسم الدُّمية التي أحضرتها لي جدتي عندما كانت ماما حاملًا، حتى أستطيع أن «أتمرن» على أن أكون أختًا كبرى. كانت واحدة من تلك الدُّمى التي تشبه الأطفال

الحقيقيين، وقضيت شهورًا وأنا آخذها معي في كل مكان، أُغيِّر لها حفاظاتها، وأطعمها، بل وأخبروني أنني صنعت لها حمَّالة أطفال. وتقول القصة إنني بعد رد فعلي الأول تجاه أوجست، لم أستغرق سوى بضع دقائق (وفقًا لجدتي)، أو بضعة أيام (وفقًا لماما) قبل أن يصبح شغلي الشاغل: أُغرقه بالقُبلات، أحضنه، أكلِّمه بكلام الأطفال. بعدها لم ألمس لِيلي أو آتِ على ذكر لها على الإطلاق.

أن ترى أوجست

لم أكن أرى أوجست كما يراه الآخرون. كنت أعرف أنه لا يبدو طبيعيًا تمامًا، لكنني لم أفهم حقًّا لماذا تبدو الصدمة على الغرباء عندما يرونه. الذعر. الهلع. الاشمئزاز. هناك الكثير من الكلمات التي أستطيع استخدامها لوصف ما تبدو عليه وجوه الناس. ولزمن طويل ظللت لا أفهم. فقط كنت أغضب. أغضب عندما يحدقون. أغضب عندما يُشِيحون بوجوههم. وأقول للناس، حتى الكبار منهم: «اللعنة! لماذا تحدقون هكذا؟».

ثم، عندما شارفت على الحادية عشرة، ذهبت لكي أقيم مع جدتي في مونتوك لأربعة أسابيع، بينما كان أوجست يُجري جراحة الفك الكبرى. كانت تلك أطول فترة أقضيها بعيدًا عن البيت، ويجب أن أقول إنه كان شعورًا رائعًا أن أتحرر فجأة من كل الأشياء التي تثير غضبي. لا أحد يحدق فينا أنا وجدتي عندما كنا نذهب إلى البلدة لشراء البقالة، لا أحد يشير إلينا، لا أحد يلاحظنا حتى.

كانت جدتي واحدة من أولئك الجدات اللاتي يفعلن كل شيء مع أحفادهن. كانت مستعدة لأن تقفز في المحيط إذا طلبت منها، حتى بكامل ملابسها. كانت تسمح لي باللعب في أدوات زينتها، ولا

تمانع أن أضعها على وجهي حتى أتمرَّن على مهارات تجميل الوجه. كانت تصحبني لتناول الآيس كريم حتى قبل أن نتناول العشاء. كانت ترسم جيادًا بالطباشير على الرصيف أمام بيتها. وذات ليلة، ونحن عائدون على أقدامنا من البلدة، قلت لها إنني أتمنى لو أعيش معها إلى الأبد. كنت سعيدة هناك، وأعتقد أنها كانت أفضل فترة في حياتي.

عندما عدت إلى البيت بعد أربعة أسابيع، شعرت أول الأمر بشعور غريب جدًّا. أتذكر بوضوح شديد وأنا أدخل من الباب وأرى أوجست يجري ناحيتي لكي يُرحب بي، ولجزء ضئيل من الثانية لم أره بالطريقة التي كنت أراه بها دائمًا، وإنما بالطريقة التي يراه بها الآخرون. كانت ومضة خاطفة، لحظة واحدة حين كان يعانقني، وهو سعيد جدًّا بعودتي. لكن ذلك فاجأني لأنني لم أره بهذه الصورة من قبل، ولم أشعر بهذا الشعور من قبل؛ شعور كرهت نفسي عليه لحظة أن أتاني. لكن حين كان يُقبِّلني من كل قلبه، لم أرَ سوى ريالته التي تسيل على ذقنه. وفجأة وجدت نفسي، مثل كل الآخرين الذين يحدقون أو يشيحون بوجوههم.

الذعر. الهلع. الاشمئزاز.

الحمد لله أن ذلك لم يستمر لأكثر من ثانية؛ فلحظة ما سمعت أوجست وهو يضحك ضحكته الصغيرة المبحوحة، انتهى الأمر. عاد كل شيء كما كان من قبل، لكن ذلك كان قد فتح بابًا أمامي. فتحة صغيرة. وعلى الجانب الآخر من الفتحة كان هناك «اثنان

أوجست»: أوجست الذي أراه من دون أن أنظر إليه، وأوجست الآخر الذي يراه الناس.

أعتقد أن الشخص الوحيد في العالم الذي كان يمكن أن أخبره بهذا هو جدتي، لكنني لم أُخبرها. كان الأمر أعقد من أن يُشرح في التلفون. وفكرت أنني قد أُخبرها عما شعرتُ به عندما تأتي في عيد الشكر. لكن بعد شهرين فقط من الفترة التي قضيتها معها في مونتوك، ماتت جدتي الجميلة. حدث ذلك فجأة. والظاهر أنها قد ذهبت إلى المستشفى لأنها شعرت بغثيان. وذهبنا أنا وماما لزيارتها، لكن المستشفى كان يبعد عن بيتنا ثلاث ساعات بالسيارة، وعندما وصلنا، كانت جدتي قد ماتت. قالوا لنا إنها أزمة قلبية. هكذا من غير مُقدِّمات.

غريب جدًّا، كيف تكون على سطح الأرض يومًا، وفي اليوم التالي لا تكون. أين ذهبَت؟ هل سأراها ثانية يومًا، أم أن تلك حكاية أطفال؟

أنت تشاهد الأفلام والمسلسلات التلفزيونية التي يستقبل فيها الناس أخبارًا فظيعة من المستشفيات، لكن بالنسبة إلينا، مع كل رحلاتنا إلى المستشفى مع أوجست، كانت النتائج دائمًا طيبة. أكثر ما أتذكره من يوم وفاة جدتي هو انهيار ماما على الأرض ببطء، ونشيجها الجيَّاش، وهي تمسك معدتها وكأن شخصًا لكمها فيها. لم أرَ ماما هكذا من قبل. لم أسمع أصواتًا مثل التي خرجت

منها. وحتى في كل الجراحات التي أُجريت لأوجست، كانت ماما دائمًا تضع قناع الشجاعة.

في آخر أيامي في مونتوك، كنا قد شاهدنا الشمس وهي تغيب على الشاطئ، أنا وجدتي. أخذنا بطانية لنجلس عليها، لكن الجو صار باردًا، فالتحفنا بها وتعانقنا وظللنا نتكلم حتى لم يعد هناك أيُّ بريق من الضوء على سطح المحيط. ثم أخبرتني جدتي أن لديها سرًا: إنها تحبني أكثر من أي إنسان في العالم.

سألتها: «حتى أوجست؟»

ابتسمت ومَسَّدت شعري، وكأنها تفكر فيما ستقول. ثم قالت برِقة: «أحب أوجي كثيراً كثيراً.»

ما زلت أتذكر لكنتها البرتغالية، والطريقة التي كانت تدوِّر بها حرف «الراء».

«لكنه لديه ملائكة كُثر يعتنون به يا فيا. وأنا أريدك أن تعرفي أن لديك من يعتني بك أيضًا، أنا. اتفقنا يا ابنتي الحبيبة؟ أريدك أن تعرفي أنك رقم واحد بالنسبة إليَّ. أنك...»

نظرت إلى المحيط ومدت ذراعيها، كما لو كانت تحاول أن تهدئ الموج: «أنت كل شيء بالنسبة إليَّ. هل تفهمين يا فيا؟»

كنت أفهمها، وكنت أعرف لماذا قالت إنه سر. لا يُفترض من الجدة أن تحب حفيدًا أكثر من حفيد. الجميع يعرفون ذلك. لكن بعدما ماتت، تشبثت بهذا السر، والتحفت به مثل البطانية.

أوجست من فتحة الباب

عيناه تبعدان نحو بوصة أسفل مكانهما الطبيعي على وجهه، تقريبًا في منتصف خديه. وهما تميلان إلى أسفل بزاوية حادة، تبدوان مثل جرحين قطريين شقهما شخص في وجهه، كما أن اليسرى منخفضة عن اليمنى بصورة ملحوظة. وهما جاحظتان، لأن محجريهما أكثر ضحالة من أن يَسَعاهما. والجفنان العلويان نصف مغمضين دائمًا، وكأنه على حافة النعاس. أما الجفنان السفليان فهما متهدلان كثيرًا، حتى إنهما يبدوان وكأن خيطًا خفيًا يشدهما إلى أسفل؛ يمكنك أن ترى الجزء الأحمر داخلهما، وكأنهما مقلوبان. وهو ليس لديه حاجبان ولا رموش. أنفه كبير بما لا يتناسب ووجهه، وبه طراوة زائدة. رأسه معقوف من الجانبين حيثما وجب أن تكون الأذنان، وكأن شخصًا جاء بزَرَدِيَّة عملاقة وقَرَص على الجزء الأوسط من وجهه. وجنتاه خاليتان من العظام. وثمة تجاعيد عميقة تجري على جانبي أنفه وصولًا إلى فمه، وهو ما يضفي عليه مظهرًا شمعيًا. أحيانًا يظن الناس أنه قد أُصيب في حريق؛ فملامحه تبدو وكأنها في حالة انصهار، مثل سائل يقطر على جانب شمعة. وقد خلَّفت الجراحات العديدة التي استهدفت معالجة حلقه بضع ندوب حول فمه، أكثرها وضوحًا هو ذلك القطع المُحزَّز الذي يجري من منتصف شفته العليا إلى أنفه.

أسنانه العلوية صغيرة ومُفَلْطَحة. وفكه العلوي يبدو شديد البروز فوق فكه السفلي شديد الضمور. وله ذقن دقيق جدًّا. عندما كان صغيراً جدًّا، قبل أن تُزرع قطعة من عظمة فخذه جراحيًّا في فكه السفلي، لم يكن لديه ذقن أصلًا. كان لسانه يتدلى داخل فمه فلا يحجزه شيء. الحمد لله أنه صار أفضل الآن. صار بإمكانه أن يأكل على الأقل؛ عندما كان أصغر كان يستخدم أنبوب تغذية، ويستطيع أن يتكلم، وقد تعلَّم أن يُبقي لسانه داخل فمه، وإن كانت تلك المهارة استغرقت منه عدة سنوات لكي يتقنها. كما أنه تعلَّم التحكُّم في ريالته التي كانت تسيل حتى عنقه. وقد كانت تلك ضروبًا من الإعجاز. فعندما كان رضيعًا، ظن الأطباء أنه لن يعيش.

وهو يسمع أيضًا. معظم الأطفال المولودين بهذه العيوب الخِلقية لديهم مشاكل في الأذن الوسطى تمنعهم من السماع، لكن حتى الآن يستطيع أوجست أن يسمع بصورة معقولة بأذنيه الصغيرتين اللتين تشبهان القرنبيط. مع ذلك، يعتقد الأطباء أنه سيحتاج إلى استخدام السماعات مستقبلًا. ويكره أوجست مجرد التفكير في ذلك، إذ يعتقد أن السماعات ستكون ملحوظة جدًّا. ولا أقول له إن السماعات ستكون أقل مشكلاته، بالطبع، لأنني متأكدة أنه يعرف.

ثم إنني لست متأكدة حقًّا ما الذي يعرفه أوجست وما الذي لا يعرفه، ما الذي يفهمه وما الذي لا يفهمه.

هل يرى أوجست كيف يراه الناس الآخرون، أم أنه أصبح ماهرًا جدًّا في التظاهر بأنه لا يرى لدرجة أن ذلك لا يضايقه، أم أنه يضايقه؟ عندما ينظر في المرآة، هل يرى أوجي الذي تراه ماما وبابا، أم يرى أوجي الذي يراه الآخرون، أم أن هناك أوجي آخر يراه، شخص في أحلامه خلف الرأس والوجه المشوهين؟ أحيانًا عندما كنت أنظر إلى جدتي، كنت أرى الفتاة الجميلة التي كانتها تحت التجاعيد. أرى الفتاة اليافعة، الفتاة البرازيلية - «فتاة إيبانيما» كما تقول الأغنية - داخل هذه السيدة العجوز. هل يرى أوجست نفسه كما كان سيبدو من دون هذا الجين الواحد الذي أصاب وجهه بهذه الكارثة؟

أتمنى لو أستطيع سؤاله عن هذه الأمور. أتمنى لو يُخبرني كيف يشعر. لقد كانت قراءته أسهل قبل الجراحات. عندما تضيق عيناه تعرف أنه سعيد. عندما يستقيم فمه فهو يتخابث. عندما يرتعش خداه فهو على وشك البكاء. الآن يبدو أفضل، لا شك في ذلك، لكن كل الأمارات التي كنا نقيس بها أمزجته اختفت. ظهرت أمارات جديدة بالطبع، وتستطيع ماما وبابا قراءة كل أمارة منها، لكنني لا أستطيع متابعتها كلها. وهناك جزء مني لا يريد أن يستمر في المحاولة: لماذا لا يقول ما يشعر به مثل الآخرين؟ لم يعد يضع أنبوب تنفُّس في فمه يمنعه عن الكلام، ولم يعد فكاه مربوطين بالأسلاك. إنه في العاشرة. يستطيع أن يستخدم الكلمات. لكننا نلتف حوله وكأنه لا يزال رضيعًا. إننا نغير الخطط، ننتقل إلى

الخطة «ب»، نقطع الأحاديث، نرجع في تعهداتنا وفقًا لأمزجته، لنزواته، لاحتياجاته. كان ذلك لا بأس به عندما كان صغيراً، لكنه يجب أن يكبر الآن. يجب أن نتركه يكبر، أن نساعده على ذلك، وندفعه إلى ذلك. هذا رأيي: لقد قضينا جميعًا وقتًا طويلًا جدًّا ونحن نحاول أن نجعل أوجست يظن أنه عادي، حتى إنه أصبح يظن بالفعل أنه عادي، والمشكلة أنه ليس عاديًّا.

المدرسة الثانوية

أكثر ما أحببته في المدرسة الإعدادية، هو أنها كانت منفصلة عن البيت ومختلفة عنه. كان بوسعي أن أذهب إلى هناك وأن أصبح «أوليفيا بولمان» - لا فيا - وهو اسمي في البيت. كما كان فيا الاسم الذي ينادونني به في المدرسة الابتدائية. في ذلك الوقت، كان الجميع يعرفون كل شيء عنا بالطبع. كانت ماما تأتي لتأخذني بعد المدرسة، وكان أوجست دائمًا في عربة الأطفال. لم يكن هناك الكثير من الناس المؤهلين لمجالسة أوجي، لذا كان بابا وماما يصحبانه إلى جميع المسرحيات والحفلات الموسيقية والعروض الراقصة الخاصة بفصلي، كل الأنشطة المدرسية، الحفلات الخيرية، ومعارض الكتب. كان أصدقائي يعرفونه. آباء أصدقائي يعرفونه. أساتذتي يعرفونه. البوّاب يعرفه. (كان يقول له: «كيف حالك يا أوجي؟»، ويضرب كفه بكف أوجست عاليًا). كان أوجست علامة من علامات «المدرسة العامة رقم ٢٢».

لكن في المدرسة الإعدادية كان الكثيرون لا يعرفون بأمر أوجست. بالطبع كان أصدقائي القدامى يعرفون، لكن أصدقائي الجُدد لم يعرفوا. وحتى إذا عرفوا، لا يكون ذلك بالضرورة أول ما يعرفونه عني. ربما يكون ثاني أو ثالث شيء يسمعونه عني.

«أوليفيا؟ نعم، فتاة لطيفة. هل سمعت أن لديها أخًا مُشوهًا؟». لطالما كرهت هذه الكلمة، لكنني عرفت أنها الكلمة التي يستخدمها الناس لوصف أوجي. وكنت أعرف أن محادثات من هذا النوع تجري غالبًا طوال الوقت بعيدًا عن مسمعي، كلما غادرت الغرفة في حفلة، أو صادفت مجموعات من الأصدقاء في مطعم بيتزا. ولا بأس بهذا، فسوف أظل دائمًا أخت الولد المُصاب بعيب خِلقي؛ ليس هذا هو الموضوع، فقط لا أريد أن أُعرَف هكذا طوال الوقت.

أفضل ما في المدرسة الثانوية أن أغلب مَن فيها لا يعرفونني أصلًا، باستثناء «ميرندا» و«إيلا»، بالطبع. وهما أفضل من أن تثرثرا في هذا الأمر.

أنا وميرندا وإيلا نعرف بعضنا بعضًا منذ الصف الأول. اللطيف جدًا هو أننا لا نضطر أبدًا إلى شرح الأمور بعضنا لبعض. عندما قررت أنني أريد منهما مناداتي باسم أوليفيا بدلًا من فيا، فهمتا الأمر من دون أن أضطر للشرح.

وقد عرفتا أوجست منذ كان طفلًا رضيعًا. عندما كنا صغارًا، كان أكثر ما نحبه هو أن نلعب لعبة تزيين أوجي، فنثقل جسده بأوشحة الريش، والقبعات الكبيرة، والباروكات. وكان يحب ذلك بالطبع، وكنا نراه جميلًا ومُحببًا بطريقته الخاصة. كانت إيلا تقول إنه يذكرها بـ«إي تي». لم تقل ذلك من باب الخِسة، بالطبع (وإن كان ذلك فيه قدر من الخسة). الحقيقة أن هناك مشهدًا في الفيلم

عندما تضع «درو باريمور» باروكة شقراء على رأس «إي تي»، وكان أوجي يشبهه بالضبط. كان ذلك في أيام وَلَعِنا بالنجمة «مايلي سايرس»، نجمة المراهقات.

طوال سنوات المدرسة الإعدادية، كنا أنا وميرندا وإيلا مجموعة صغيرة قائمة بنفسها. نقع في نقطة وسطى بين نجوم المدرسة وبين التلاميذ أصحاب الشعبية؛ لسنا من مهاويس المذاكرة، ولا من المتميزات في الرياضة، لا ثَرِيَّات ولا متعاطيات مخدرات، لا خسيسات ولا نموذجًا للفضيلة، لا عظمة فينا ولكننا لا نخلو من مميزات. لا أعرف هل اجتمعنا لأننا كنا متشابهات في وجوه كثيرة، أم أننا أصبحنا متشابهات في وجوه كثيرة لأننا اجتمعنا. كنا سعيدات جدًا عندما انتقلنا معًا إلى مدرسة فوكنر الثانوية. كانت مصادفة سعيدة أن نُقبَل نحن الثلاث، خصوصًا أن المدرسة لم تَقبل أحدًا آخر تقريبًا من مدرستنا الإعدادية. أتذكر كيف أخذنا نتبادل صرخات الفرح عبر الهاتف يوم استلمنا خطابات القبول.

لهذا السبب لم أفهم ما صار بيننا مؤخرًا، بعد أن صرنا بالفعل في المدرسة الثانوية، إذ جرت الأمور على خلاف ما توقعت.

الميجور توم

من بين ثلاثتنا، كانت ميرندا هي الأكثر رِقة مع أوجست، تظل تعانقه وتلاعبه لوقت طويل بعد أن نكون أنا وإيلا قد انتقلنا لنلعب شيئًا آخر. وحتى بعدما كبرنا، ظلت ميرندا تسعى لإشراك أوجست في حواراتنا، فتسأله عن حاله، وتتكلم معه عن «أفاتار» أو «حرب النجوم» أو مجلة «بون» المصورة، أو شيء تعرف أنه يحبه. كانت ميرندا هي التي أهدت أوجي خوذة رجل الفضاء التي ظل يضعها كل يوم على مدى عام كامل حين كان في الخامسة أو السادسة. كانت تسميه «الميجور توم»، ويغنيان معًا أغنية «غريب في الفضاء» لـ«دافيد بوبي» (التي تقول: «من مركز التحكم الأرضي إلى الميجور توم. ابتلع أقراص البروتين، وضَعْ خوذتك على رأسك»). كانت تلك لُعبتهما. كانا يعرفان كل الكلمات ويشغلانها على جهاز «آي بود» ويغنيان الأغنية بصوت عالٍ.

ولأن ميرندا كانت تتصل بنا فور أن ترجع إلى بيتها من المخيم الصيفي، فقد اندهشت عندما لم أسمع منها، بل وأرسلت إليها رسالة قصيرة فلم ترد، وظننت أنها ربما بقيَت في المخيم لوقت أطول، الآن وقد أصبحت من مُرشدات الكشافة، ربما قابلت شابًّا لطيفًا.

ثم أدركت من حسابها على «فيس بوك» أنها عادت إلى البيت من أسبوعين كاملين، فأرسلت إليها رسالة فورية ودردشنا على الإنترنت قليلًا، لكنها لم تفسر لي لماذا لم تتصل بي، وهو ما رأيته غريبًا. لكن ميرندا مشوشة قليلًا بطبيعتها، فظننت أن هذا كل ما في الأمر. رتبنا لأن نلتقي في وسط البلد، لكنني اضطررت لإلغاء الموعد لاحقًا لأننا قررنا زيارة تاتا وبوبا في عطلة نهاية الأسبوع.

وهكذا، لم أرَ لا ميرندا ولا إيلا حتى اليوم الأول في الدراسة. ويجب أن أعترف أنني صُدمت. كانت ميرندا قد تغيرت كثيرًا: قصت شعرها قصَّة «بوب» القصيرة الجميلة للغاية، وصبغته باللون الوردي الفاقع، من بين كل الألوان، وكانت ترتدي قميصًا بلا أكتاف ولا أكمام. كان (أ) يبدو غير مناسب للمدرسة بأية حال، و(ب) لا يشبهها على الإطلاق. طالما كانت ميرندا محتشمة في ملابسها، وها هي الآن بشعر وردي وقميص عارٍ. لكن التغير لم يكن قاصرًا على مظهرها؛ كانت تتصرف بشكل مختلف أيضًا. لا أستطيع أن أقول إنها لم تكن لطيفة، لأنها كانت لطيفة، لكنها بدت بعيدة نوعًا، تعاملني كصديقة عابرة. كان ذلك أغرب شيء في العالم!

ساعة الغداء جلس ثلاثتنا معًا كالمعتاد، لكن التفاعل بيننا اختلف. كان واضحًا لي أن إيلا وميرندا قد تقابلتا بضع مرَّات في أثناء الصيف مع غيري، مع أنهما لم تقولا ذلك صراحة. وقد تظاهرتُ بأنني لست منزعجة على الإطلاق ونحن نتكلم، مع أنني

كنت أشعر بوجهي يسخن، وبأن ابتسامتي مُصطنعة. وبرغم أن إيلا لم تذهب إلى الحد الذي ذهبت إليه ميرندا، فقد لاحظت تغييرًا في أسلوبها أيضًا. وبدا الأمر وكأنهما قد تحدثتا مسبقًا حول تبديل مظهرهما في المدرسة الجديدة، لكنهما لم تشغلا باليهما بإخباري. أعترف أنني ظننتني دائمًا أكبر من تفاهات المراهقين تلك، لكنني ظللت أشعر بغُصّة في حلقي طوال فترة الغداء. وارتعش صوتي وأنا أقول «أراكما لاحقًا» عندما دق الجرس.

بعد المدرسة

«سمعت أننا سنوصلك إلى البيت بالسيارة اليوم.»

هكذا قالت ميرندا في الحصة الثامنة، وهي تجلس على المقعد خلف مقعدي. كنت قد نسيت أن ماما اتصلت بوالدة ميرندا الليلة السابقة لتسألها إذا كان بإمكانها توصيلي من المدرسة إلى البيت.

رددت غريزيًّا: «لستم مضطرين، ماما ستمر عليَّ.»

«ظننتها يجب أن تمر على أوجي أو شيئًا من هذا القبيل.»

«اتضح أنها يمكن أن تأتي لتصحبني لاحقًا. لقد أرسلت إليَّ رسالة قبل قليل. لا توجد مشكلة.»

«آه. طيب.»

«أشكرك.»

كان كل ذلك كذبًا، لكنني لم أتخيَّل نفسي جالسة في سيارة مع ميرندا الجديدة. بعد المدرسة اختبأتُ في الحمَّام حتى لا أصادف والدة ميرندا بالخارج. بعدها بنصف ساعة، خرجت من المدرسة، وركضت ثلاثة شوارع حتى موقف الحافلات، ثم قفزت في الحافلة «م ٨٦» المتجهة إلى «سنترال بارك ويست»، ثم أخذت المترو إلى البيت.

قالت ماما لحظةَ رأتني أدخل من الباب الأمامي: «أهلًا

يا حبيبتي. كيف كان يومك الأول؟ لقد بدأت أتساءل لماذا تأخرتن.»

«توقفنا لتناول البيتزا.»

مدهشة السهولة التي قد تنساب بها الكذبة من بين شفتيك.

«ألم تأتِ ميرندا معك؟»

بدت مندهشة لأنها لا ترى ميرندا خلفي.

«ذهبَت إلى البيت. لدينا الكثير من الواجبات المنزلية.»

«في أول يوم؟»

«نعم، في أول يوم!»

قلتها زاعقة، وهو ما أدهش ماما كثيراً، لكنها لم تقل شيئًا. قلت: «المدرسة كانت جيدة، وإن كانت كبيرة جدًا، والتلاميذ يبدون لُطفاء.»

أردت أن أعطيها معلومات كافية لا تشعر معها أنها بحاجة لأن توجه إليّ المزيد من الأسئلة: كيف كان أول أيام أوجي في المدرسة؟

ترددت ماما، وكان حاجباها لا يزالان مرفوعين على جبينها منذ أن احتدَدْتُ عليها قبل ثوانٍ. ثم قالت ببطء، كما لو كانت تزفر الكلمة: «معقول.»

قلت: «ماذا تعنين بـ«معقول»؟ هل كان جيدًا أم سيئًا؟»

«قال إنه كان جيدًا.»

«إذًا لماذا تظنين أنه لم يكن جيدًا؟»

«يا ربي، لم أقل إنه ليس جيدًا! فيا، ما مشكلتك؟»

رددتُ: «انسي أنني سألتك عن أي شيء أصلًا.»

ثم اندفعتُ بصورة درامية إلى غرفة أوجي وصفعتُ الباب. كان يلعب على الـ«بلاي ستيشان»، ولم يُكلِّف نفسه حتى بالنظر إليّ. أكره الطريقة التي يجلس بها أمام ألعاب الفيديو وكأنه مسحور.

قلت، وأنا أزيح دايزي جانبًا حتى أستطيع الجلوس إلى جواره على الفراش: «كيف كانت المدرسة إذًا؟»

أجاب، دون أن يرفع رأسه عن اللعبة: «تمام.»

سحبت ذراع الـ«بلاي ستيشان» من يديه: «أوجي، أنا أكلمك!»

قال بغضب: «إيه؟»

«كيف كانت المدرسة؟»

صرخ كما صرخت، وهو يشد ذراع الـ«بلاي ستيشان» ليستعيده مني: «قلت تمام!»

«هل عاملوك بلُطف؟»

«نعم!»

«لم يعاملك أحد بخِسة؟»

وضع ذراع الـ«بلاي ستيشان» ورفع رأسه إليّ كما لو كنت قد سألته لتَوِّي أغبى سؤال في العالم. ثم قال: ولماذا يعاملونني بخسة؟

كانت تلك أول مرّة أراه مُتهكمًا بهذه الدرجة. لم أعرف أنه يمتلك هذه القدرة على التَّهكُّم.

الـ«بَدوان» يأكل التراب

لست متأكدة متى تحديدًا في تلك الليلة قَصَّ أوجي ضفيرة الـ«بَدوان»، أو السبب الذي جعلني أغضب لهذه الدرجة. لطالما رأيت تعلقه بكل ما يخص «حرب النجوم» نوعًا من الهوس، وكانت تلك الضفيرة في رأسه من الخلف، وحبات الخرز الصغيرة التي ترصعها، بشعة المنظر. لكنه كان فخورًا بها، وبأنه استغرق وقتًا طويلًا لإطالتها، وكيف أنه اختار حبات الخرز بنفسه من محلٍّ للمصنوعات اليدوية في حي سوهو. وكان هو وكريستوفر، صديقه المُقرَّب، يلعبان بسيوف الليزر ومعدات «حرب النجوم» كلما تقابلا، وكانا قد بدآ في إطلاق الضفيرة في الوقت نفسه. عندما قص أوجست ضفيرته تلك الليلة، من دون تفسير، ومن دون أن يُخبرني قبلها (وهو ما أدهشني) - أو حتى يتصل بكريستوفر - أصابني غضب شديد لم أعرف له سببًا.

كنت أرى أوجي وهو يُمَشِّط شعره في مرآة الحمَّام. يحاول أن يضع كل شعرة في مكانها بكل دقة. يميل رأسه لينظر إلى نفسه من زوايا مختلفة، وكأنما هناك منظور سحري مختلف داخل المرآة يمكن أن يغير أبعاد وجهه.

طرقت ماما بابي بعد العشاء. بدت مستنزفة، وأدركتُ أن يومها هي الأخرى كان مُرهِقًا، بيني وبين أوجي.

سألتني بلُطف ورِقة: «إذًا هل ستخبرينني بما حدث؟»

أجبتُ: «ليس الآن، طيب؟»

كنت أقرأ. كنت مُتعبة. ربما لاحقًا أُصبِح مُستعدة لإخبارها بأمر ميرندا، لكن ليس الآن.

قالت: «سأُلقي نظرة عليكِ قبل النوم.»

ثم جاءت وقبّلتني على رأسي.

«هل يمكن أن تنام دايزي معي الليلة؟»

«طبعًا، سأُحضرها لكِ.»

قلت لها وهي تخرج: «لا تنسَيْ أن ترجعي.»

«أعدك.»

لكنها لم ترجع تلك الليلة، وجاء بابا بدلًا منها. قال لي إن أول أيام الدراسة كان سيئًا مع أوجي، وإن ماما تساعده على تجاوز الأمر. سألني كيف سار يومي، فقلت له بخير. قال إنه لا يصدقني، فأخبرته أن ميرندا وإيلا تتصرفان بطيش (لكنني لم أذكر له أنني أخذت المترو إلى البيت بمفردي). قال إنه ما من اختبار للصداقة أفضل من المدرسة الثانوية، ثم تابع ممازحته لي بشأن قراءتي لرواية «الحرب والسلام»؛ ليس مزاحًا حقيقيًا، بالطبع، فقد سمعته وهو يتفاخر أمام الناس أن لديه «ابنة في الخامسة عشرة تقرأ تولستوي». لكنه كان يحب أن يشاكسني حول الصفحة التي وصلت إليها، وهل أنا في جزء يعمه السلم أم جزء تضطرم فيه الحرب، وإذا ما كان هناك أي شيء عن الأيام التي قضاها نابليون

راقصًا للـ«هِب هوب». كانت أشياء سخيفة، لكن بابا كان يجعل الجميع يضحكون. وأحيانًا يكون ذلك هو كل ما يلزم حتى يشعر الشخص بتَحسُّن.

قال وهو ينحني ليُقبّلني قُبلة النوم: «لا تغضبي من ماما. تعرفين كيف تقلق على أوجي.»

اعترفتُ: «أعرف.»

قال، وهو يتوقف قليلًا عند مفتاح النور بجوار الباب: «هل تريدين النور مُضاءً أم مطفأً؟ لقد تأخر الوقت.»

«هل يمكن أن تحضر دايزي أولًا؟»

بعد ثوانٍ عاد ودايزي مدلاة بين ذراعيه، ووضعها بجواري على الفراش.

قال، وهو يُقبّل جبيني: «ليلة سعيدة يا حبيبتي.»

ثم قبّل دايزي هي الأخرى على جبينها: «ليلة سعيدة يا فتاتي. أحلامًا سعيدة.»

شبح بالباب

ذات مرّة، استيقظت في منتصف الليل أشعر بالعطش، ورأيت ماما تقف خارج غرفة أوجي. كانت يدها على مِقبض الباب، وجبينها يستند على الباب، الذي كان مواربًا. لم تكن في طريقها لدخول الغرفة أو الخروج منها. فقط تقف خارج الباب، وكأنها تنصت إلى صوت أنفاسه وهو نائم. كانت أضواء الردهة مُطفأة. لا يكشف ماما سوى الضوء الأزرق السهّاري المنبعث من غرفة أوجست.

بدت أشبه بشبح وهي تقف هناك، أو ربما يجدر بي أن أقول أشبه بملاك. حاولتُ أن أرجع إلى غرفتي من دون أن أُزعجها، لكنها سمعتني فجاءت إليّ.

سألتها: «هل أوجي بخير؟»

كنت أعرف أنه يستيقظ أحيانًا مختنقًا بلُعابه إذا تقلب على ظهره دون قصد.

قالت، وهي تحيطني بذراعيها: «آه، إنه بخير.»

سارت معي إلى الغرفة، وأحكمَت الغطاء عليّ، وقبّلتني قُبلة النوم. لم تَذكر قَطُّ سبب وقوفها عند بابه، وأنا لم أسألها.

لكنني أتساءل: «كم ليلة وقفت ببابه؟ وأتساءل إن كانت قد وقفت ببابي بتلك الطريقة ولو مرّة؟»

الفطور

في الصباح التالي، وأنا أدهن فطيرتي بكريمة الجبن، قلت: «هل يمكن أن تأخذيني من المدرسة اليوم؟»

كانت ماما تُعِد غداء أوجست (جُبنًا أمريكيًا على خبز أسمر، طري حتى يستطيع أوجي أن يأكله)، بينما كان أوجست جالسًا يأكل عصيدة الشُوفان على المنضدة. كان بابا يستعد للذهاب إلى العمل. الآن وقد صرت في المدرسة الثانوية، أصبح النظام المدرسي الجديد هو أن نأخذ المترو أنا وبابا معًا في الصباح، وهو ما يعني أنه يجب أن يغادر البيت أبْكَر من المعتاد بخمس عشرة دقيقة، ثم أنزل أنا في محطتي ويكمل هو طريقه، وتأتي ماما لتأخذني بعد المدرسة بالسيارة.

ردت ماما: «كنت سأتصل بوالدة ميرندا لأرى إن كانت تستطيع توصيلك اليوم أيضًا.»

قلت بسرعة: «لا يا ماما. تعالي أنت، أو سآخذ المترو!»

ردت قائلة: «تعرفين أنني لا أريد أن تأخذي المترو بمفردك!»

«ماما، أنا في الخامسة عشرة! كل مَن في سِني يأخذون المترو بمفردهم.»

قال بابا من الغرفة الأخرى، وهو يعدل ربطة عنقه ويدخل المطبخ: «يمكنها أن تأخذ المترو إلى البيت.»

جادَلَته ماما: «ولماذا لا توصلها والدة ميرندا اليوم أيضًا؟»

أصرّ بابا: «لقد أصبحت كبيرة بما يكفي لتأخذ المترو بمفردها.»

نظرت ماما إلينا، ثم قالت سؤالًا لم يكن موجّهًا لأيٍّ منا تحديدًا: «ما الأمر؟»

قلت بغيظ: «كنتِ ستعرفين لو كنتِ رجعتِ إليَّ قبل أن أنام.»

تذكرَتْ ماما كيف تَخلَّت عني ليلة أمس، فقالت وهي تضع السكين التي تقطع بها حبات العنب إلى نصفين من أجل أوجي (ومع ذلك يظل عُرضة للاختناق لصغر مساحة سقف فمه): «يا إلهي يا فيا! أنا آسفة! رُحت في النوم في غرفة أوجي، وعندما استيقظت...»

أومأتُ بلا مبالاة: «أعرف، أعرف.»

جاءت ماما إليّ، ووضعت يديها على خديَّ، ورفعت وجهي لكي أنظر إليها، ثم همست: «أنا آسفة جدًّا جدًّا!»

وشعرت أنها آسفة فعلًا. قلت: «طيب!»

«فيا...»

«ماما، لا توجد مشكلة.»

تلك المرّة كنت أعني ما أقول. لقد كانت آسفة بحق، لدرجة أنني أردت أن أُطلق سراحها.

قبّلتني وعانقتني، ثم عادت إلى حبات العنب. سألَت: «إذًا، هل هناك شيء بينك وبين ميرندا؟»

قلت: «هي فقط تتصرف بطيش شديد.»

قاطعني أوجي بسرعة: «ميرندا ليست طائشة.»

صرختُ: «بل تكون طائشة أحيانًا. صدقني.»

قالت ماما بصورة قاطعة، وهي تزيح أنصاف حبات العنب بحافة السكين لكي تُسقطها في كيس الوجبات الخفيفة: «اتفقنا إذًا. سآتي لآخذكِ، لا توجد مشكلة. تلك هي الخطة الأصلية بأي حال. سأذهب لآخذ أوجي من المدرسة في السيارة ثم سنأتي إليك. على الأغلب سنصل إلى هناك في الرابعة إلا الرُّبع.»

«لا!»

قلتها بثبات قبل حتى أن تُكمل كلامها.

قال بابا بنفاد صبر: «إيزابيل، يمكنها أن تأخذ المترو! لقد أصبحت فتاة كبيرة. إنها تقرأ «الحرب والسلام» يا ناس!»

ردت ماما، وقد بدا عليها الضيق: «ما علاقة «الحرب والسلام» بأي شيء؟»

قال بحزم: «يعني أنك لست مُضطرَّة لأن تُقِلّيها في السيارة كما لو كانت طفلة صغيرة. فيا، هل أنت جاهزة؟ خذي حقيبتك وهيا بنا.»

قلت، وأنا أُعلِّق حقيبة الظهر: «أنا جاهزة. سلام يا ماما! سلام يا أوجي!»

قبَّلتهما بسرعة واتجهت إلى الباب.

تابعتني ماما قائلة: «هل لديك أصلًا بطاقة مترو؟»

رد بابا ساخطًا: «بالطبع لديها بطاقة مترو. اهدئي يا ماما! كُفّي عن القلق هكذا! سلام.»

قالها وهو يُقبّلها على خدها، ثم قال لأوجست وهو يُقبّله على رأسه: «سلام أيها الولد الكبير. أنا فخور بك. يومًا سعيدًا.»

«سلام يا بابا، يومًا سعيدًا لك أيضًا.»

هَرْوَلنا أنا وبابا على السلالم المنحدرة، وخرجنا إلى الشارع.

صاحت ماما فيّ من النافذة: «كلّميني بعد المدرسة قبل أن تركبي المترو!»

لم أستدر حتى، لكنني أشرت لها بيدي حتى تعرف أنني سمعتها. أما بابا فاستدار، وأخذ يمشي بظهره لبضع خطوات، وهو يصيح مبتسمًا ويشير إليّ: ««الحرب والسلام» يا إيزابيل! «الحرب والسلام»!»

عائلة بابا من الناحيتين من يهود روسيا وبولندا. فقد هرب جدًا «بوبا» (جدي) من المذابح، وانتهى بهما الأمر في مدينة نيويورك في أول القرن. أما والدا «تاتا» (جدتي) فقد هربا من النازيين، وانتهى بهما الأمر في الأرجنتين في الأربعينيات. وقد تقابل «بوبا» و«تاتا» في حفلة رقص في «لوار إيست سايد»، حيث كانت في البلدة في زيارة لأحد أولاد عمومتها. تزوجا، وانتقلا إلى «بايسايد»، وأنجبا بابا والعم بين.

أما عائلة ماما فمن البرازيل. وباستثناء أمها، جدتي الجميلة، وأبيها، أجوستو، الذي تُوفِّي قبل مولدي، فإن بقية عائلة ماما - كل المتألقين من العمّات والخالات والأعمام والأخوال وأولاد العم والخال - ما زالوا يعيشون في «ألتو ليبلون»، وهي ضاحية راقية جنوبي ريو.

انتقلت جدتي مع أجوستو إلى بوسطن في أوائل الستينيات، وأنجبا ماما والخالة كيت، التي تزوجت من العم بورتر.

تقابلت ماما وبابا في جامعة براون، وظلا معًا من وقتها. إيزابيل ونيت نصفان لا يفترقان. انتقلا إلى نيويورك بعد الكلية مباشرة، وأنجباني بعدها ببضع سنوات، ثم انتقلا، عندما كان عمري سنة تقريبًا، إلى منزل راقٍ من الطوب في «نورث ريفر هايتس»، أحد أحياء «أبر مانهاتن» التي تسكنها عائلات من الشباب المتأنق.

في هذا الخليط الغرائبي المكوَّن لحوض جينات عائلتي، لم تبدُ أية إشارة على أن أي شخص يعاني مما يعاني منه أوجست. وقد تمعَّنت في صور بُنِّية مُغَبَّشة لقريبات تُوفين منذ زمن طويل، يربطن المناديل حول رؤوسهن على الطريقة الروسية، ولقطات بالأبيض والأسود لأقارب بعيدين يرتدون بدلات مكرمشة من الكتان، وجنود في أزياء عسكرية، وسيدات عقصن شعورهن فوق رؤوسهن. صور التُقطت بكاميرا فورية لمراهقين يرتدون بنطلونات تتسع من عند الرُّكبة، و«هيبيين» بشعور طويلة، ولم أستطع أن أقتفي - ولو مرَّة - أخفَّ أثرٍ لوجه أوجست في وجوههم، ولا واحد منهم. لكن بعد ميلاد أوجست، ذهب والداي لتلقي استشارة جينية. وقيل لهما إن أوجست يعاني مما يبدو أنه «نوع لم يكن معروفًا من خلل تَعظُّم الوجه والفك، نتج عن طفرة في الموروثات المتنحية في الجين «TCOF1»، الذي يقع على الصبغي رقم ٥. وزاد الأمر تعقيدًا متلازمةُ صِغر الفم وصِغر الوجه النصفي، وهي أحد أعراض خلل التنسُّج الوجهي الجانبي». أحيانًا تحدث تلك الطفرات في أثناء الحمل. أحيانًا تنتقل من والد يحمل الجين السائد. أحيانًا تنتج عن تفاعل بين العديد من الجينات، ربما بمصاحبة عوامل بيئية. وهذا يُسمَّى «الوراثة متعددة العوامل». في حالة أوجست، استطاع الأطباء تحديد واحدة من «طفرات حذف نيوكليتيدة واحدة» التي أشعلت الحرب في وجهه. الغريب هو أن والديَّ كليهما يحملان الجين الممسوخ، برغم أنك لن تعرف ذلك أبدًا من وجهيهما.

وأنا أيضًا أحمل هذا الجين.

مربع بونيت

إذا أنجبتُ أطفالًا، فهناك احتمال واحد إلى اثنين أن أنقل إليهم الجين المعطوب. لا يعني ذلك أنهم سوف يُشبهون أوجست، لكنهم سيحملون الجين الذي تضاعف في أوجست فساعد على جعله على ما هو عليه. فإذا تزوجتُ بشخص لديه الجين المعطوب نفسه، فهناك احتمال واحد إلى اثنين أن يحمل أطفالنا الجين وأن يبدوا طبيعيين تمامًا، واحتمال واحد إلى أربعة ألا يحمل أطفالنا الجين على الإطلاق، واحتمال واحد إلى أربعة أن يبدو أطفالنا مثل أوجست.

وإذا أنجب أوجست أطفالًا من امرأة ليس لديها أثر من الجين، فهناك احتمال مائة في المائة أن يرث أطفالهما الجين، لكن احتمال صفر في المائة أن يتضاعف في أطفالهما، كما هو حال أوجست. وهو ما يعني أنهم سيحملون الجين على أية حال، لكنهم قد يبدون طبيعيين تمامًا. فإذا تزوج بامرأة لديها الجين، ستكون أمام أطفالهما فرص أطفالي نفسها.

هذه الاحتمالات لا تُفسِّر سوى الجزء القابل للتفسير من أوجست. وهناك هذا الجزء الآخر من تكوينه الجيني غير الموروث، إنما الناجم فقط عن سوء حظ لا يُصدَّق.

على مدى السنوات، رسم عدد لا يُحصى من الأطباء ملايين النماذج المبسطة في محاولة لتفسير اليانصيب الجيني لأبي وأمي. يستخدم علماء الجينات مربعات «بونيت» تلك لتحديد الوراثة، والجينات المُتَنَحِّية والسائدة، والاحتمالات والفرص. لكن مع كل ما يعرفونه، يظل ما يجهلونه أكثر. يستطيعون تجريب التنبؤ بالاحتمالات، لكنهم لا يستطيعون ضمانها. يستخدمون مصطلحات مثل «تزيُّق النسل الجرثومي» أو «إعادة ترتيب الصبغيات» أو «الطفرات المؤجلة» لتفسير الأسباب التي لا تجعل علمهم علمًا بحتًا. الواقع أنني أحب الطريقة التي يتكلم بها الأطباء. أحب صوت العلم. أحب كيف يمكن لكلمات لا تفهمها أن تشرح أشياء لا تستطيع أن تفهمها. هناك عدد لا يُحصى من الناس يندرجون تحت كلمات مثل: «تزيُّق النسل الجرثومي» أو «إعادة ترتيب الصبغيات» أو «الطفرات المؤجلة». عدد لا يُحصى من الأطفال الذين لن يولدوا، مثل أطفالي.

تخلّص من القدامى!

انطلقت ميرندا وإيلا بلا كابح. انضمَّتا إلى شلّة جديدة مكتوب لها الشهرة في المدرسة الثانوية. بعد أسبوع من مرافقتهما على وجبات غداء مؤلِمة لا تتكلمان في أثنائها إلا عن أناسٍ لا أهتم بأمرهم. قررتُ أن أضع حدًّا للموضوع. لم تسألاني، ولم أكذب. فقط سرنا في طريقين مختلفين.

بعد فترة، لم أعد أهتم لأمرهما، لكنني توقفت عن تناول الغداء في المدرسة لنحو أسبوع حتى أجعل الفترة الانتقالية أسهل، وحتى أتجنب أن تأتي لحظة تقول لي فيها إحداهما بحسرة مصطَنعة شيئًا من قبيل: «يا خبر! ليس لك مكان على الطاولة يا أوليفيا!». كان من الأسهل أن أذهب إلى المكتبة لأقرأ.

أنهيت «الحرب والسلام» في أكتوبر. رواية رائعة. يظن الناس أنها صعبة في القراءة، لكنها ليست أكثر من مسلسل طويل به الكثير من الشخصيات. أناس يقعون في الحب، يحاربون لنَيل الحب، يموتون من أجل الحب. أريد أن أحب بهذه الطريقة يومًا. أريد أن يُحبني زوجي كما أحَبَّ الأميرُ أندريه ناتاشا.

أصبحت أقضي أوقاتي مع فتاة اسمها إيلانور، عرفتها من أيام «المدرسة العامة رقم ٢٢»، وإن تفرَّقنا في المرحلة الإعدادية.

لطالما كانت إيلانور فتاة ذكية بحق - كانت وقتها كثيرة التذمُر كالأطفال، لكنها لطيفة. لم أُدرك من قبلُ قدرتها على المزاح (ليست مثل بابا الذي يجعل كل مَن حوله يُقهقهون، ولكن لديها الكثير من النوادر)، وهي أيضًا لم تكن تعرف أنني أُصبح مَرِحة أحيانًا. أظن أن إيلانور كانت تراني جادة جدًّا. وعرفتُ لاحقًا أنها لم تحب ميرندا ولا إيلا قَطُّ. وكانت تراهما مغرورتين.

عن طريق إيلانور أصبحتُ أجلس على طاولة الأذكياء وقت الغداء. كانوا مجموعة كبيرة، أكبر من العدد الذي اعتدت مرافقته، وأكثر تنوعًا. وكانت تضم حبيب إيلانور، كيفن، الذي سيُصبح رئيسًا للصف بالتأكيد يومًا ما، وبعض الشباب من عشاق التكنولوجيا، وفتيات مثل إيلانور كُن أعضاءً في «لجنة إعداد الكتاب السنوي» و«نادي المناظرات»، وشابًّا هادئًا اسمه «جوستن» يضع نظارة مستديرة صغيرة ويلعب على الكمان، وقد شعرت نحوه بإعجاب من أول نظرة.

وعندما كنت أرى ميرندا وإيلا، اللتين أصبحتا ترافقان شلة المشاهير، كنا نتبادل عبارات من قبيل: «ها، كيف الأحوال؟» ثم نمضي في طريقنا. ومن حين إلى آخر كانت ميرندا تسألني عن أحوال أوجست، ثم تقول: «انقلي له تحياتي». وهذا ما لم أفعله قَطُّ، ليس نكاية في ميرندا، لكن لأن أوجست كان في عالمه الخاص في تلك الأيام. كانت هناك أوقات، في البيت، لا يتقاطع فيها طريقانا.

31 أكتوبر

كانت جدتي قد ماتت الليلة السابقة على الهالووين. ومن وقتها، وبرغم مُضِي أربع سنوات، ظلت تلك الأيام أيام حُزنٍ بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى ماما أيضًا، مع أنها تُخفي ذلك أحيانًا، وتشغل نفسها بإعداد زِي أوجست، إذ نعرف جميعًا أن الهالووين هو أجمل أيام السنة بالنسبة إليه.

هذا العام كان مختلفًا؛ أراد أوجست أن يتنكر في زي شخصية من شخصيات «حرب النجوم» تُدعى «بوبا فِت»، وبحثت ماما عن زي بوبا فِت من قياس أوجست، ولكنه، للعجب، كان قد نفد من كل المتاجر. زارت كل المتاجر على الإنترنت، ووجدت بعض القِطع على موقع «ebay» لكنها كانت باهظة الثمن، وفي النهاية اشترت زي جانجو فِت، ثم صبغته بالأخضر لتُحَوِّله إلى بوبا فِت. وأقول، إجمالًا: إنها قضت أسبوعين تقريبًا وهي تعمل على هذا الزي الغبي. لن أذكر هنا أن ماما لم تُعد لي زيًّا من قبل، لأن هذا ليس له علاقة بأي شيء على الإطلاق.

صبيحة الهالووين استيقظت وأنا أفكر في جدتي، وهو ما جعلني حزينة جدًّا وراغبة في البكاء. ظل بابا يطلب مني أن أُسرع بارتداء ملابسي، وهو ما ضغط على أعصابي أكثر فأكثر، وفجأة بدأتُ في البكاء، وأردت أن أبقى في البيت وحسب.

وهكذا اصطحب بابا أوجست إلى المدرسة هذا الصباح، وقالت ماما إن بإمكاني البقاء في البيت. وظللنا نبكي نحن الاثنتان معًا لبعض الوقت. هناك شيء واحد أعرفه عن يقين، أيًّا كان قدر اشتياقي لجدتي، فلا بد أن ماما تشتاق إليها أكثر. في كل المرّات حيث كان أوجست يتشَبَّث بالحياة بعد عملية جراحية ما، في كل تلك الرحلات المحمومة إلى غرفة الطوارئ، كانت جدتي هناك دائمًا، تقف بجوار ماما. شعرت براحة وأنا أبكي مع ماما. كلتانا شعرت براحة. وعند لحظة، راودَت ماما فكرةٌ أن نشاهد «الشبح والسيدة موير» معًا، وهو أحد أكثر الأفلام الأبيض والأسود التي نُحبها. اتفقت معها على أن تلك فكرة عظيمة. كان يمكن أن أستغل جلسة البكاء هذه كفرصة أحكي فيها لماما عن كل ما يدور في المدرسة مع ميرندا وإيلا، لكن لحظة جلسنا أمام مُشَغِّل الأسطوانات، رنَّ جرس التلفون. كانت الممرضة في مدرسة أوجست تتصل لتخبر ماما أن أوجست يعاني من المغص، وعليها أن تذهب لتأخذه. وانتهى أمر الأفلام القديمة والرابطة بين الأم والابنة.

أحضرت ماما أوجست، ولحظة دخل البيت، ذهب مباشرةً إلى الحمّام وتقيأ، ثم ذهب إلى فراشه وسحب الأغطية على رأسه. قاست ماما درجة حرارته، وأعدت له شايًا ساخنًا، وعادت إلى دور «أم أوجست» ثانية، وأزاحت دور «أم فيا» الذي تقمّصته لفترة وجيزة. لكنني تفهّمت، فقد كان أوجست في حالة يُرثى لها.

لم يسأله أيٌّ منا لماذا ارتدى زي «الصرخة الدامية» وهو

يذهب إلى المدرسة بدلًا من زي بوبا فِت الذي جهَّزَتْه له ماما. ربما شعرت ماما بالضيق لرؤية الزي الذي تعبت فيه لأسبوعين مُلقى على الأرض، غير مستعمَل، لكنها لم تُظهر ذلك.

حيلة أم حلوى

قال أوجست إنه ليس على ما يُرام، ولا يستطيع الخروج بعد الظهر والمرور على البيوت بزيِّه التَّنكُّري وسؤال أصحابها سؤال العيد المعتاد: «حيلة أم حلوى؟»، وهو أمر مؤسف؛ لأنني أعرف كم كان يحب هذا الطقس - خصوصًا بعدما حل الظلام في الخارج. ومع أنني كبرتُ على هذه اللعبة، فلا زلت أضع هذا القناع أو ذاك، لأصطحبه من بنايةٍ إلى أخرى، وأراقبه وهو يطرق الأبواب، مفعَمًا بالحماس. كنت أعرف أنها الليلة الوحيدة في السنة التي يستطيع فيها أن يكون مثل غيره من الأطفال؛ لا يعرف أحدٌ أنه مختلِف من وراء القناع. وبالنسبة إلى أوجست، لا شك أن ذلك أمر مدهش.

في الساعة السابعة تلك الليلة، طرقتُ بابه. قلت: «أهلًا.»

قال: «أهلًا.»

لم يكن يلعب على الـ«بلاي ستيشان» أو يقرأ قصصًا مُصوَّرة. كان راقدًا في سريره فقط ينظر إلى السقف. وكانت دايزي، كالعادة، بجانبه على السرير، رأسُها مرتاح على ساقيه. وكان زي «الصرخة الدامية» مُكوَّمًا على الأرض بجوار زي بوبا فِت.

جلست إلى جواره على السرير وأنا أقول: «كيف حال مَعِدتكَ؟»

«ما زلت أشعر بغثيان!»

«هل أنت متأكد أنك لا تريد المشاركة في موكب الهالووين؟»

«أكيد.»

فاجأني ردُّه. كان أوجست في العادة شُجاعًا فيما يتعلق بالأمور الطبية، يلعب بلوح التزلُّج بعد أيام قليلة من إجراء عملية جراحية، أو يشفط الطعام بشفَّاط وفمه مغلق بالأسلاك. كان ما دخل جسده من محاقن وأدوية وما أُجبر عليه من جراحات وهو لا يزال في العاشرة من عمره، أكثر مما يتعرض له أيُّ إنسان آخر في عشر حيوات متتالية، وها هو يستسلم أمام إحساس بقليل من الغثيان.

قلت، بنبرة تشبه بعض الشيء نبرة ماما: «هل تريد أن تخبرني ما الأمر؟»

«لا.»

«هل هي المدرسة؟»

«نعم.»

«المُدرِّسون؟ الواجبات المدرسية؟ الأصدقاء؟»

لم يَرد.

سألته: «هل قال أحدهم شيئًا ما؟»

أجاب بمرارة، حتى إنني شعرت به على حافة البكاء: «الناس يقولون شيئًا ما طوال الوقت!»

قلت: «أخبِرني بما حدث.»

وأخبَرني بما حدث. كان قد سمع أشياء خسيسة جدًّا قالها بعض الأولاد عنه. لم يشغله ما كان يقوله الأولاد الآخرون، فقد توقَّع هذا. لكن ما آلمه أن أحد هؤلاء الأولاد كان «صديقه المُقرَّب» جاك ويل. تذكرت أنه أتى على ذِكر جاك بضع مرّات على مدى الأشهر القليلة السابقة. تذكرتُ ماما وبابا يقولان إنه يبدو فتى لطيفًا بحق، يقولان إنهما سعيدان لأن أوجست قد حَظِي بصديق مثله.

قلت برِقة، وأنا أمسك يده: «الأولاد يتصرفون بغباء أحيانًا. أنا متأكدة أنه لا يقصد.»

«إذًا، لماذا يقول ذلك؟ لقد ظل يتظاهر بأنه صديقي طوال الوقت. وأغلب الظن أن توشمان رشاه بدرجات جيدة أو شيء ما. أراهنك أنه قال شيئًا من قبيل: اسمع يا جاك، إذا أصبحت صديقًا لهذا المَسخ، سأعفيك من كل الاختبارات هذا العام.»

«أنت تعرف أن ذلك ليس حقيقيًّا. ولا تقل على نفسك مَسخًا.»

«أيًا كان. أتمنى لو لم أذهب إلى المدرسة أصلًا!»

«لكنني ظننت أنك أحببتَها.»

«أنا أكرهُها!»

جُنَّ جنونه فجأة، ولَكَمَ وسادَتهُ: «أكرهها! أكرهها! أكرهها!» كان يصرخ بعلوِّ صوته.

لم أقل شيئًا. لم أعرف ماذا أقول. لقد كان مجروحًا. كان غاضبًا

تركته لدقائق كي يُنهي نوبة غضبه. بدأت دايزي تَلْعق الدموع عن وجهه.

قلت، وأنا أربت على ظهره برِقة: «هيا يا أوجي. لماذا لا تضع زي جانجو فِت و...»

«إنه زي بوبا فِت! لماذا تخلطون كلكم بين الاثنين؟»

قلت، وأنا أحاول المحافظة على هدوئي: «زي بوبا فِت.»

وضعت ذراعي حول كتفيه: «هيا نذهب إلى الموكب. طيب؟»

«إذا ذهبت إلى الموكب، ستظن ماما أنني صرت أحسنَ وتجعلني أذهب إلى المدرسة غدًا.»

أجبت: «ماما لن تجعلك تذهب إلى المدرسة أبدًا. هيا يا أوجي. هيا بنا. سيكون الأمر مُمتعًا، أعدك. وسأجعلك تأخذ كل ما أحصل عليه من حلوى.»

لم يجادل. نزل عن السرير وبدأ يضع زي بوبا فِت ببطء. ساعدته على تسوية الأشرطة ورَبْط الحزام، وعندما كان يضع خوذته على رأسه، عرفت أنه بشعر بتحسُّن.

وقتٌ للتفكير

في اليوم التالي، لعب أوجي بحجة ألَمِ المعدة حتى لا يضطر إلى الذهاب إلى المدرسة. أعترف أنني تعاطفت مع ماما التي أصابها قلق حقيقي من أن يكون قد أُصيب بجرثومة مَعِدية، لكنني كنت قد وعدت أوجست أنني لن أُخبرها بما حدث في المدرسة.

يوم الأحد، ظل مُصممًا على عدم العودة إلى المدرسة.

عندما أخبرني سألته: «ماذا ستقول لماما وبابا؟»

«لقد قالا إن باستطاعتي أن أترك المدرسة وقتما أشاء.»

قال ذلك وتركيزه لا يزال مُنصبًّا على مجلة القصص المُصوَّرة التي يقرأ فيها.

قلت له صادقة: «لكنك لم تكن قَطُّ من هؤلاء الأطفال الذين يستسلمون. هذا ليس من طبعك.»

«أنا أستسلم.»

أوضحت له، وأنا أشد مجلة القصص المُصوَّرة من يده حتى يضطر إلى النظر إليَّ وأنا أكلمه: سيكون عليك أن تُخبر ماما وبابا بالسبب. وبعدها ستتصل ماما بالمدرسة وسيعرف الجميع بالأمر.

«هل سيقع جاك في مشكلة؟»

«أعتقد ذلك.»

«هذا أمر جيد.»

يجب أن أعترف، كان أوجست يُثير دهشتي أكثر فأكثر. سحب مجلة أخرى من على الرّف وبدأ يتصفَّحها.

قلت: «أوجي. هل فعلًا ستترك بضعة أطفال أغبياء يحولون بينك وبين العودة إلى المدرسة؟ أعرف أنك كنت تستمتع بالدراسة. لا تجعلهم يتحكمون فيك. لا تُشعرهم بالرضا.»

شرح قائلًا: «ليس لديهم فكرة أنني سمعتهم أصلًا.»

«أعرف، ولكن...»

«فيا، لا بأس. أعرف ما أفعل. لقد اتخذت قراري.»

قلت بإصرار، وأنا أشد المجلة الجديدة أيضًا من يده: «لكن هذا جنون يا أوجي. يجب أن ترجع إلى المدرسة. الجميع يكرهون المدرسة أحيانًا. أنا أكره المدرسة أحيانًا. أكره أصدقائي أحيانًا. هكذا الحياة يا أوجي. أنت تريد أن يعاملك الناس بشكل عادي، صح؟ هذا هو العادي! يجب علينا جميعًا أن نذهب إلى المدرسة أحيانًا برغم أننا نمر بأيام سيئة، اتفقنا؟»

أجاب قائلًا: «هل ينحرف الناس عن طريقهم ليتجنبوا لَمسَكِ يا فيا؟»

للحظة لم أستطع الإجابة.

«نعم، صحيح. هذا ما ظننته. إذًا لا تقارِني أيامك السيئة في المدرسة بأيامي السيئة، اتفقنا؟»

قلت: «طيب، هذا صحيح. لكننا لسنا في مسابقة على من يمر بأيام أسوأ يا أوجي. الفكرة أننا علينا جميعًا التعامل مع الأيام السيئة. الآن، ما لم تكن تريد أن يعاملك الناس كطفل صغير كبقية حياتك، أو كصبي من ذوي الاحتياجات الخاصة، عليك أن تتحمل وتمضي في طريقك.»

لم يرد، لكنني أظن أن تلك العبارة الأخيرة أثَّرَتْ فيه. واصلتُ: «لستَ مُضطرًّا إلى أن تقول شيئًا لهؤلاء الأطفال. أوجست، بجد، أمر رائع أنك تعرف ماذا قالوا، لكنهم لا يعرفون أنك تعرف ماذا قالوا. تعرف؟»

«ماذا تقولين؟»

«أنت تعرف قصدي. لستَ مُضطرًّا إلى أن تتحدث معهم ثانية، إذا لم ترغب في ذلك. ولن يعرفوا السبب أبدًا. هل ترى؟ أوَتستطيع التظاهر بأنك صديقهم، لكن من داخلك تعرف أنكم لستم أصدقاء؟»

سأل: «هل هذا هو حالك مع ميرندا؟»

أجبت بسرعة، بشكل دفاعي: «لا. أنا لم أزيِّف مشاعري تجاه ميرندا قَطُّ.»

«لماذا إذًا تطلبين مني ذلك؟»

«لا أطلب! أنا فقط أقول إنك لا يجب أن تدع هؤلاء المغفَّلين ينالون منك، هذا هو كل شيء.»

«مثلما نالت منكِ ميرندا.»

صرختُ بنفاد صبر: «لماذا تُصر على ذكر ميرندا؟ أنا أحاول أن أكلمك عن أصدقائك. أرجوك دع أصدقائي بعيدًا عن هذا.»

«لم تعودا صديقتين حتى.»

«ما علاقة هذا بما نتكلم فيه؟»

رمقني بنظرة ذكّرتني بوجه دُمية. كان يحدق فيّ بوجه جامد، بعيني دُمية نصف مغمضتين.

أخيرًا قال: «اتصلَت مؤخرًا.»

قلت مشدوهة: «ماذا؟ ولم تخبرني؟»

أجاب، وهو يسحب كلتا المجلتين من يدي: «لم تكن تريدكِ، كانت تريدني أنا. اتصلتْ لتُلقي التحية، لتطمئن على أحوالي. لم تكن تعرف حتى أنني أذهب إلى مدرسة حقيقية الآن. لا أُصدِّق أنك لم تهتمي بإخبارها. قالت إنكما لم تعودا تقضيان أوقاتًا طويلة معًا مثلما كان، لكنها أرادت أن تُعْلِمني أنها ستظل تُحبني دائمًا كشقيقة كبرى.»

مذهولة. مصدومة. مبهوتة. لم تستطع كلمة واحدة أن تتجسد في فمي.

قلت أخيرًا: «لماذا لم تخبرني؟»

هزَّ كتفيه، وهو يفتح أول مجلة مرَّة أخرى: «لا أعرف.»

أجبت: «طيب، سأخبر ماما وبابا بأمر جاك ويل إذا توقفت عن الذهاب إلى المدرسة. وغالبًا سيستدعيك توشمان إلى المدرسة ويجعل جاك وبقية الأطفال يعتذرون لك أمام الجميع، وسوف

يعاملك الجميع مثل طفل يجب أن يذهب إلى مدرسة الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. هل هذا ما تريده؟ لأن هذا ما سيحدث. إما ذلك، وإما أن ترجع إلى المدرسة وتتصرف وكأن شيئًا لم يحدث. أو إذا أردت مواجهة جاك بالموضوع، فلا بأس. لكن في كلتا الحالتين، إذا...»

قاطعني: «طيب. طيب. طيب.»

«ماذا؟»

صرخ، ليس بصوت عالٍ: «طيب! سأذهب! فقط كُفّي عن الكلام في الموضوع. هل يمكنني أن أقرأ المجلة الآن من فضلك؟»

أجبته: «طيب.»

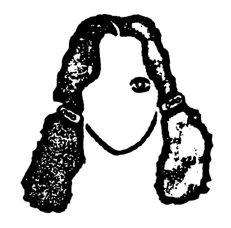
فكرت في شيء آخر وأنا أستدير لأترك غرفته: «هل قالت ميرندا أي شيء آخر عني؟»

رفع رأسه عن المجلة ونظر في عيني مباشرة: «قالت بالنّص أن أُخبركِ بأنها تشتاق إليك.»

أومأت برأسي: «شكرًا.»

قلتها بصورة عابرة، وأنا أشعر بالحرج، ولا أريده أن يرى مدى سعادتي لذلك.

الجزء الثالث



سمر

«أنت جميل مهما قالوا

ما من كلمات تستطيع أن تحط من قدرك

أنت جميل بكل ما فيك

نعم، ما من كلمات تستطيع أن تحط من قدرك.»

- كريستينا أجيليرا، من أغنية «جميل»

أولاد غرباء

حدث أن جاء بعض الصبية وسألوني لماذا أقضي وقتًا طويلًا مع «المَسخ». هؤلاء لا يعرفونه جيدًا. لو عرفوه، ما قالوا عنه ذلك.

أجيبهم دائمًا: «لأنه ولد ظريف. ولا تقولوا عنه ذلك.»

في أحد الأيام قالت لي هيمينا تشين: «أنت قديسة يا سمر. أنا لا أستطيع أن أفعل ما تفعلين.»

وقد أجبتها بصدق: «الموضوع بسيط.»

سألت تشارلوت كودي: «هل طلب منك الأستاذ توشمان أن تصاحبيه؟»

أجبت: «لا. لقد صاحبته لأنني أردت أن أصاحبه.»

مَن كان يعرف أن جلوسي مع أوجست بولمان للغداء سيكون بتلك الأهمية؟ تصرُّف الناس وكأن ذلك أغرب شيء في الدنيا. غريبٌ هو حال الأولاد الغرباء.

لقد جلست معه ذاك اليوم الأول لأنني أسِفتُ لحاله. هذا هو كل شيء. كان هنا، هذا الولد ذو الوجه الغريب في مدرسة جديدة تمامًا. لا أحد يتكلم معه. الجميع يحدقون فيه. كل البنات على طاولتي كن يتهامسن عنه. لم يكن الولد الجديد الوحيد في مدرسة بيتشر الخاصة، لكنه كان الوحيد الذي يتكلَّم عنه الجميع.

أطلق عليه جوليان اسم «الولد الزومبي»، ثم صار الجميع يدعونه هكذا. «هل رأيت الولد الزومبي؟». أسماء مثل هذه تنتشر بسرعة، وكان أوجست يعرف ذلك. من الصعب أصلًا أن تكون تلميذًا جديدًا حتى وأنت صاحب وجه عادي. تخيَّل نفسك إذًا بوجهه؟

هكذا، اتجهت إليه وجلست معه. موضوع بسيط. أتمنى أن يكف الناس عن محاولة تحويله إلى أمر جلل.

إنه مجرد ولد. الولد صاحب أغرب هيئة رأيتها في حياتي، نعم. لكنه مجرد ولد.

الطاعون

أُقِر وأعترف أن وجه أوجست يحتاج إلى بعض الوقت قبل الاعتياد عليه. أسبوعان الآن وأنا أجلس معه، ودعونا نقُل فقط إن طريقته في تناول الطعام ليست الأكثر أناقة في العالم. لكن بخلاف ذلك، فهو لطيف جدًّا. يجب أن أقول أيضًا إنني لم أعد آسَفُ لحاله. ربما هذا ما جعلني أجلس معه أول مرَّة، لكنه ليس ما جعلني أواصل الجلوس معه. أنا أواصل الجلوس معه لأنه مرح.

أحد الأشياء التي لا أحبها في هذا العام هي أن الكثير من الأولاد أصبحوا يتصرفون وكأنهم كبروا على اللعب. أصبح كل ما يريدونه هو «التَّسكُّع» و«الكلام» في الفسحة. وكل ما يتكلمون عنه الآن هو مَن يُحب مَن، ومَن هو الوسيم، ومَن هي الحسناء. أوجست لا يُزعج نفسه بهذه الأمور، إنه يحب أن يلعب «مربع بأربعة» في الفسحة، وهي لعبة أُحبها أنا أيضًا.

والواقع أنني عرفت بأمر «الطاعون»، لأنني كنت ألعب «مربع بأربعة» مع أوجست. والظاهر أن هذا «الطاعون» هو «لُعبة» بدأت منذ بداية العام الدراسي؛ فكل مَن يلمس أوجست عَرَضًا أمامه ثلاثون ثانية فقط ليغسل يديه أو ليجد منديلًا معطَّرًا قبل أن يُصاب بعدوى «الطاعون». لست واثقة مما يحدث لك

إذا أُصِبت بـ«الطاعون»، لأن أحدًا لم يلمس أوجست بعدُ - ليس بشكل مباشر.

وقد اكتشفت الأمر عندما أخبرتني مايا ماركوفيتس أن ما يمنعها من مشاركتنا في لعبة «مربع بأربعة» في الفسحة، هو أنها لا تريد أن تلتقط «الطاعون». وسألتها: «ما هو الطاعون؟»، فأخبرتني. قلت لمايا إنني أرى ذلك غباءً، وقد وافقتني، لكنها ظلت لا تلمس الكُرة بعد أن يلمسها أوجست، طالما أمكنها ذلك.

حفلة الهالووين

كنت مُتحمِّسة بحق لأنني تلقيت دعوة لحفلة الهالووين في بيت سافانا.

وسافانا هي، على الأرجح، أكثر البنات شعبية في المدرسة. كل الأولاد يحبونها، وكل البنات يسعين لصداقتها. كانت أول بنت في صفنا تحظى بـ«حبيب» حقيقي. كان فتى يذهب إلى المدرسة الإعدادية العامة رقم ٢٨١، ثم هجرته وبدأت تواعد هنري جوبلن، وكان ذلك منطقيًا لأن كلًّا منهما يبدو شابًّا قبل الأوان.

على أية حال، ومع أنني لم أكن في الشلة صاحبة «الشعبية»، فقد تلقيت دعوة، وهو أمر لطيف جدًّا. عندما أخبرت سافانا أنني تسلَّمت دعوتها وسوف أذهب إلى حفلتها، كانت في غاية الرِّقة معي، وإن حرصت على أن تؤكد لي أنها لم توجِّه الدعوة للكثيرين، لذا لا يجب أن أتفاخر بين الناس أنني دُعيت. مايا لم تُدعَ، على سبيل المثال. كذلك حرصت سافانا على التنبيه عليَّ بألا أرتدي زيًّا تَنكُّريًّا. وهذا أمر طيب لأنني، بالطبع، كنت سأرتدي زيًّا في حفلة الهالووين - ليس زي الحصان وحيد القرن الذي أعددته من أجل موكب الهالووين، ولكن زي الفتاة القوطية الذي ارتديته في المدرسة. لكن حتى ذلك كان مرفوضًا في حفلة سافانا. العيب

الوحيد في ذهابي إلى حفلة سافانا هو أنني لن أتمكن من المشاركة في الموكب، وسوف يضيع زي الحصان وحيد القرن هباءً. كانت تلك خسارة، لكن لا بأس.

على أية حال، أول ما حدث عندما وصلت إلى حفلة سافانا أنها استقبلتني عند الباب وسألتني: «أين حبيبك يا سمر؟»

لم أعرف حتى عن أي شيء تتكلم.

أضافت: «أعتقد أنه ليس مُضطرًا لوضع قناع في الهالووين، صح؟»

عندها أدركت أنها تتكلم عن أوجست.

قلت: «إنه ليس حبيبي!»

«أعرف. أنا أمزح معك فقط!»

قبّلتني على خدي (كل الفتيات في شلتها أصبحن يتبادلن القبلات على الخد عند التحية)، وألقت بسُترتي على شماعةٍ في المدخل، ثم تناولت يدي واصطحبتني نزولًا على السلم إلى القبو، حيث تقام الحفلة. ولم تقع عيناي على والديها في أي مكان.

كان هناك نحو خمسة عشر ولدًا وبنتًا إجمالًا: جميعهم من التلاميذ ذوي الشعبية الواسعة، إما من شلة سافانا، وإما من شلة جوليان. أظن أنهم قد اتحدوا معًا في شلة كبيرة للتلاميذ ذوي الشعبية الواسعة، الآن وقد بدأ بعضهم يواعد بعضًا.

لم أكن أعرف بوجود هذا العدد من الأزواج. أقصد، كنت

أعرف بأمر سافانا وهنري، لكن هيمينا ومايلز؟ و«إيلي» و«أموس»؟ إيلي صدرها مستوٍ تمامًا مثل صدري!

على أية حال، بعد خمس دقائق تقريبًا من دخولي، كان هنري وسافانا يقفان بجانبي، أو لنَقُل فوق رأسي.

قال هنري: «نريد أن نعرف لماذا تقضين هذا الوقت الطويل مع «الولد الزومبي».»

ضحكتُ، وكأنهما قالا نكتة: «إنه ليس زومبي.»

كنت أبتسم ولكن من دون رغبة في الابتسام.

قالت سافانا: «تعرفين يا سمر؟ سوف تزداد شعبيتك كثيرًا لو توقفت عن قضاء هذا الوقت الطويل معه. سأكون صريحة جدًا معك، جوليان مُعجَب بك، ويريد أن يطلب منك الخروج معه.»

«حقًّا؟»

«هل ترينه وسيمًا؟»

«ممم... نعم، أظن. نعم، هو وسيم.»

قالت سافانا: «إذًا عليك اختيار الشخص الذي تقضين معه أوقاتك.»

كانت تتحدث إليّ مثلما تتكلم شقيقة كبرى إلى شقيقتها الصغرى.

«الجميع يحبونك يا سمر. الجميع يرونك لطيفة جدًا وجميلة جدًا جدًا. يمكنك الانضمام إلى شلتنا إذا أردت، وصدِّقيني، الكثير من البنات في صفنا يتمنون هذا.»

أومأت برأسي: «أعرف. شكرًا.»

ردت: «لا شكر على واجب. هل تريدينني أن أقول لجوليان أن يأتي ويتكلم معك؟»

نظرتُ إلى حيث أشارت، فرأيت جوليان ينظر تجاهنا.

«ممم. الحقيقة أنني يجب أن أذهب إلى الحمّام. أين هو؟»

ذهبت إلى حيث أشارت، وجلست على حافة حوض الاستحمام، واتصلت بماما وطلبت منها أن تأتي لتأخذني.

قالت ماما: «هل أنت على ما يُرام؟»

قلت: «نعم، فقط لا أريد أن أبقى.»

لم تسأل ماما أية أسئلة أخرى، وقالت إنها ستكون عندي بعد عشر دقائق.

قلت لها: «لا تضربي الجرس. اتصلي بي، وسأخرج لك.»

ظللت في الحمّام حتى اتصلت بي ماما، ثم تسللتُ صاعدة السلم من دون أن يراني أحد، وتناولت سُترتي، وخرجت.

كانت الساعة التاسعة والنصف لا تزال. وكان موكب الهالووين على أشده في شارع أمسفورت. حشود غفيرة في كل مكان. الجميع في أزياء تَنكُّرية: هياكل عظمية. قراصنة. أميرات. مصاصي دماء. أبطال خارقين.

لكن لا يوجد حصان ذو قرن واحد.

نوفمبر

في اليوم التالي في المدرسة قلت لسافانا إنني أكلت حلوى هالووين فاسدة وشعرت بإعياء، ولهذا السبب تركت الحفلة وعدت إلى المنزل مبكرًا، وصدقتني. والواقع أن جرثومة مَعِدية كانت منتشرة وقتها، وهكذا كانت كذبة جيدة.

أخبرتها أنني مُغرمة بشخص آخر بخلاف جوليان حتى تتركني وشأني في هذا الأمر، وعلى أمل أن تنقل الخبر إلى جوليان أنني غير مُهتمة به. بالطبع، أرادت أن تعرف الشخص الذي أُغرمت به، فقلت لها إنه سر.

تغيَّب أوجست في اليوم التالي للهالووين، وعندما عاد، عرفت أن شيئًا أصابه. كان يتصرف بغرابة شديدة على الغداء!

لم ينطق بكلمة تقريبًا، وظل ينظر في طعامه وأنا أكلِّمه، وكأنه لا يريد النظر في عيني.

أخيرًا، قلت له: «أوجي، هل كل شيء على ما يُرام؟ هل أنت غاضب مني؟»

قال: «لا.»

«آسفة أنك لم تكن بصحة جيدة في الهالووين. لقد ظللت أبحث في الممرَّات عن بوبا فِت.»

«نعم. كنت مريضًا!»

«هل أُصبت بجرثومة المعدة؟»

«نعم، أظن.»

فتح كتابًا وبدأ يقرأ، وكانت تلك وقاحة منه.

قلت: «أنا مُتحمسة جدًّا لمشروع المتحف المصري. ألست مُتحمسًا؟»

هز رأسه، وفمه محشوٌّ بالطعام. الواقع أنني أشحتُ ببصري لأنني، بين طريقته في مضغ الطعام، وقد بدا أنه يتعمد أن يبدو قبيحًا، والطريقة التي تبدو بها عيناه نصف مغمضتين، شعرتُ أنني أستقبل منه طاقة سلبية بحق.

سألته: «ما هو المشروع الذي ستعمل عليه؟»

هز كتفيه، وسحب قطعة ورق من جيب بنطاله الجينز، وألقاها على الطاولة تجاهي.

كل تلاميذ الصف كُلِّفوا بالعمل على أحد الآثار المصرية بمناسبة يوم المتحف المصري، المقرر في ديسمبر. كتب المُدرِّسون كل التكليفات على قطع صغيرة من الورق، وضعوها في وعاء زجاجي، ثم اختار كل تلميذ في الصف ورقة بالتتابع.

وهكذا، فضضت ورقة أوجست الصغيرة.

قلت، ربما بحماسة زائدة لأنني كنت أحاول أن أرفع من معنوياته: «رائع! لقد حصلت على هرم سقارة المُدَرَّج!»

قال: «أعرف!»

«أنا حصلت على أنوبيس، إله الحياة الآخرة.»

«ذلك الذي له رأس كلب؟»

صححت له: «ابن آوى في الواقع. اسمع، هل تريد أن نبدأ العمل على مشروعينا معًا بعد المدرسة؟ بإمكانك أن تأتي إلى منزلي.»

وضع ساندويتشه على الطاولة وأرجع ظهره على كرسيه. لا أستطيع حتى أن أصف النظرة التي كان يرميني بها.

قال: «هل تعرفين يا سمر؟ لستِ مُضطرة إلى ذلك.»

«عن أي شيء تتكلم؟»

«لستِ مُضطرة إلى أن تصاحبيني. أعرف أن الأستاذ توشمان تكلَّم معك!»

«ليست لديَّ أدنى فكرة عن أي شيء تتكلم.»

«لستِ مُضطرة إلى التظاهر، هذا ما أقوله. أعرف أن الأستاذ توشمان تكلَّم مع بعض التلاميذ قبل بدء المدرسة وقال لهم إنهم يجب أن يصاحبوني.»

«لم يتكلم معي يا أوجست!»

«نعم، تكلَّم معك.»

«لا، لم يحدث.»

«نعم، حدث.»

«لا، لم يحدث!! أقسم بحياتي.»

رفعت يديَّ عاليًا ليرى أنني لا أعقد أصابعي (لإبطال القَسَم).

سارع بالنظر إلى قدميّ، فخلعت حذائي ليرى أن أصابع قدمي ليست معقودة.

قال بنبرة اتهام: «أنت ترتدين جوارب.»

صرخت فيه: «أنت ترى بعينيك أن أصابعي مفرودة.»

«طيب، لا تصرخي.»

«لا أحب الاتهامات، طيب؟»

«طيب. أنا آسف!»

«نعم، المفروض أن تأسف.»

«ألم يتحدث إليكِ فعلًا؟»

«أوجي!»

«طيب، طيب، أنا آسف!»

كنت سأظل غاضبة منه، لكنه أخبرني بشيء سيِّئ حدث له في الهالووين، فلم أستطع أن أظل غاضبة منه. باختصار، سمع جاك وهو يتكلم عنه بسوء ويقول أشياء فظيعة بحق من وراء ظهره. وقد فسَّر لي هذا موقفه، وجعلني أفهم لماذا «مرض» ولم يأتِ إلى المدرسة.

قال: «عِديني أنك لن تُخبري أحدًا.»

أومأت برأسي: «لن أُخبر أحدًا. عِدني أنت أنك لن تُعاملني بهذه الخِسة ثانية.»

قال: «وَعْد.»

وتعاهَدْنا على ذلك بأن عقدنا خنصرينا.

تحذير: هذا الولد للكبار فقط!

كنت قد حذرت ماما من وجه أوجست. وصفت لها شكله. وقد فعلت ذلك لأنني أعرف أنها ليست ماهرة دائمًا في إخفاء مشاعرها، وكان أوجست سيأتي للمرَّة الأولى يومها، بل وقد أرسلت إليها رسالة وهي في عملها لأُذكِّرها بالأمر. لكن لدى عودتها من عملها، أدركت من تعبيرات وجهها أنني لم أُهيئها بالقدر الكافي. لقد أصابتها صدمة عندما دخلت من الباب ورأت وجهه للمرَّة الأولى.

قلت بسرعة: «أهلًا يا ماما، هذا أوجي. هل يمكن أن يظل معنا على العشاء؟»

قالت: «أهلًا يا أوجي. ممم، بالطبع يا حبيبتي. إذا كانت والدة أوجي لا تُمانع.»

بينما كان أوجي يتصل بوالدته من هاتفه المحمول، همستُ لماما: «امسحي عن وجهك هذا التعبير الغريب!»

كان على وجهها تعبير يُشبه ذلك الذي يرتسم عليه عندما ترى مشهدًا فظيعًا في نشرة الأخبار. أومأت برأسها بسرعة، وكأنها لم تلحظ التعبير على وجهها، وبعدها صارت لطيفة وطبيعية جدًّا مع أوجي.

بعد فترة قصيرة، تعبنا أنا وأوجي من العمل على مشروعنا، وخرجنا لنقضي بعض الوقت في غرفة المعيشة. راح أوجي ينظر إلى الصور فوق رفِّ المدفأة، ورأى صورة لي أنا وبابا.

قال: «هل هذا والدكِ؟»

« نعم.»

«لم أكن أعرف أنك... ما هي الكلمة؟»

«خلاسية.»

«نعم! هذه هي الكلمة.»

«نعم.»

نظر إلى الصورة ثانية.

«هل والداك منفصلان؟ لم أره يوصلك أو أي شيء.»

قلت: «آه، لا. كان رقيبًا في الجيش، وقد تُوفِّي قبل بضع سنوات.»

«ياه، لم أكن أعرف.»

أومأت برأسي، وأنا أناوله صورة لبابا في الزي العسكري: «نعم.»

«ياه! كل هذه النياشين!»

«نعم، لقد كان رائعًا.»

«ياه! يا سمر. أنا آسف!»

«نعم. أمر مؤسف. كم أشتاق إليه.»

أومأ برأسه وهو يُعيد إليَّ الصورة: «نعم. ياه.»

سألته: «هل سبق وعرفت شخصًا ثم مات؟»

«جدتي فقط، ولكنني لا أتذكَّرها حقًّا.»

«أمر مؤسف جدًّا.»

أومأ أوجي برأسه.

سألته: «هل سبق وتساءلت ماذا يحدث للناس عندما يموتون؟»

هز كتفيه: «لا. أقصد، أظن أنهم يذهبون إلى الجنة؟ هذا هو المكان الذي ذهبت إليه جدتي.»

قلت: «أنا أفكر في الأمر كثيرًا. أظن أن الناس عندما يموتون، تذهب أرواحهم إلى الجنة ولكن لوقت قصير فقط. هناك يقابلون أصدقاءهم القدامى وما إلى ذلك، ويسترجعون أيام زمان. لكن بعدها أعتقد أن الأرواح تبدأ في التفكير في حياتها على الأرض، بمعنى هل كانوا طيبين أم أشرارًا أو أيًّا كان. ثم يولدون من جديد كأطفال في العالم.»

«ولكن لماذا يرغبون في ذلك؟»

أجبته: «لأنهم عندئذ يحظون بفرصة أخرى لإنجاز الأمور على نحو سليم. أرواحهم تحظى بفرصة لتعويض ما فات.»

فكَّر فيما قلته ثم أومأ برأسه، وقال: «مثلما يحدث عندما تدخلين دورًا ثانيًا في الامتحان؟»

«صحيح.»

قال: «لكنهم لا يرجعون بالهيئة نفسها. أقصد، يبدون مختلفين تمامًا عندما يعودون، صحيح؟»

أجبت: «آه، نعم. روحك تبقى كما هي، لكن كل شيء آخر مختلف.»

قال وهو يومئ برأسه كثيراً: «يُعجبني هذا. يُعجبني هذا حقًّا يا سمر. هذا يعني أنني في حياتي التالية لن أظل أحمل هذا الوجه!»

أشار إلى وجهه وهو يقول هذا وربت على عينيه، ما جعلني أضحك.

هززت كتفيّ: «أعتقد ذلك.»

قال، وهو يبتسم: «اسمعي، ربما أُصبح وسيمًا إذًا. سيكون ذلك رائعًا جدًّا، أليس كذلك؟ يُمكنني أن أعود وأن أكون فتًى بَهِيَّ الطلعة، طويلًا ومفتول العضلات.»

ضحكتُ ثانية. كانت روحه رياضية جدًّا فيما يتعلق بشكله. وهذا واحد من أكثر الأشياء التي أُحبها في أوجي.

«اسمع يا أوجي. هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟»

قال، وكأنه يعرف بالضبط ماذا أريد أن أسأل: «نعم.»

ترددت. أردت أن أسأله عن ذلك لوقت طويل، لكن دائمًا ما كانت شجاعتي تخونني.

قال: «ماذا؟ تريدين أن تعرفي ما مشكلة وجهي؟»

«نعم، أظن. إذا كان لا بأس من السؤال.»

هز كتفيه. وحمدت الله أنه لم يغضب ولم يحزن.

قال بنبرة عادية: «نعم، لا مشكلة. الشيء الأساسي الذي أعاني

منه هو هذا المُسمَّى «خلل تعظُّم الوجه والفك»، وقد استغرقت زمنًا طويلًا جدًّا لكي أستطيع نطقه بشكل صحيح، بالمناسبة. لكنني مُصاب أيضًا بهذه العلة المتلازمة التي لا أستطيع أن أنطقها أصلًا. وهذه الأشياء يبدو أنها اجتمعت معًا في شيء واحد كبير، مرض نادر لدرجة أنه ليس له اسم. أقصد، لا أريد أن أتفاخر أو أي شيء، لكنني في واقع الأمر أُعتبر أعجوبة من أعاجيب الطب، تعرفين!»

ابتسم.

قال: «تلك كانت نكتة. بإمكانك أن تضحكي.»

ابتسمت وهززت رأسي.

قلت: «أنت مُضحك جدًّا يا أوجي.»

قال بفخر: «نعم. أنا لطيف وظريف.»

المقبرة المصرية

على مدى الشهر التالي، ظللنا أنا وأوجي نقضي أوقاتنا معًا بعد المدرسة، إما في بيته وإما في بيتي. حتى إن والدَيْ أوجست وجّها دعوة عشاء لي ولماما بضع مرّات. وقد سمعتهما يتحدثان عن ترتيب موعد «عمياني» بين ماما وبين العم بِن، عم أوجست.

في يوم عرض المتحف المصري، كنا جميعًا في غاية الإثارة، ومفعمين بالحماس. هطلت الثلوج في اليوم السابق - ليس بالغزارة التي هطلت بها في عطلة عيد الشكر، لكن يظل الثلج هو الثلج.

تحولت صالة الألعاب الرياضية إلى متحف عملاق، عُرِضت فيه الآثار المصرية التي صمّمها كل تلميذ على طاولة، بصحبة بطاقة صغيرة تشرح الأثر. معظم الآثار كانت رائعة فعلًا، لكن يجب أن أقول إن إسهامنا، أنا وأوجست، كان هو الأفضل في رأيي. التمثال الذي قمت بنحته لـ«أنوبيس» بدا حقيقيًا جدًّا، بل وطَلَيتُه بذهب حقيقي. وصنع أوجست هرمه المدرَّج من مكعبات السكر. كان بارتفاع ستين سنتيمترًا، وطول ستين سنتيمترًا، وقد رَشَّ المكعبات بهذا الطلاء الذي يُشبه الرمل. فبدا منظره رائعًا.

ارتدينا جميعًا أزياء مصرية. بعض التلاميذ ارتدوا زي علماء

آثار كهؤلاء الذين يظهرون في أفلام «إنديانا جونز»، والبعض ارتدى أزياء فراعنة. أنا وأوجست تَنكّرنا في شكل مومياوات. غطينا وجهينا، ولم نترك سوى فتحتين صغيرتين للعينين وفتحة صغيرة للفم.

عندما ظهر الآباء، اصطفُّوا جميعًا في المدخل أمام صالة الألعاب الرياضية، ثم طُلب منا أن نخرج لنحضر آباءنا، ثم يصحب كل تلميذ والده أو والدته في جولة على ضوء المصباح اليدوي في الصالة المُظلمة. أنا وأوجست اصطحبنا والدتينا معًا. أخذنا نتوقف عند كلٍّ من المعروضات، نشرحها، في صوت يُوحي بالأهمية، ونُجيب عن الأسئلة. ولما كنا في الظلام، فقد استخدمنا مصابيحنا اليدوية لإضاءة المعروضات ونحن نتحدث. أحيانًا، ولإضفاء تأثير درامي، كنا نمسك المصابيح اليدوية تحت ذقوننا ونحن نشرح شيئًا بالتفصيل. كان الأمر مُسَلِّيًا جدًّا، أن نسمع كل هذا الهمس في الظلام، وأن نرى كل تلك الأنوار تتعرج في أرجاء القاعة المظلمة.

عند لحظة معينة، ذهبت لأجلب مشروبًا من عند مُبرِّد المياه، وكان يجب أن أفك رباط المومياء عن وجهي.

قال جاك، وهو يتوجه نحوي: «أهلًا يا سمر.»

كان يرتدي زيًّا مثل الرجل في فيلم «المومياء».

«زي لطيف.»

«شكرًا.»

«هل المومياء الأخرى أوجست؟»

«نعم.»

«ممم... اسمعي، هل تعرفين سبب غضب أوجست مني؟»

أومأتُ برأسي قائلة: «آهاا.»

«هل يمكن أن تخبريني؟»

«لا.»

أومأ برأسه، وقد بدا عليه الضيق.

شرحت له: «لقد وعدته أنني لن أُخبر أحدًا.»

قال: «الأمر غريب جدًا. ليست عندي فكرة لماذا غضب مني فجأة، ولا أدنى فكرة. ألا يُمكنك على الأقل أن تُعطيني إشارة؟»

نظرت إلى حيث يقف أوجست في الناحية الأخرى من الغرفة، يتحدث مع أمي وأمه. لم أكن لأحنث بالقسم الذي أقسمتُه بألا أُخبر أيَّ شخص عما سمعه في الهالووين، لكنني شعرت بالأسى لجاك.

«الصرخة الدامية.»

همست بهاتين الكلمتين في أذنه، ثم مضيت بعيدًا.

الجزء الرابع



جاك

«الآن، اسمع سرِّي. إنه بسيط جدًّا

لا يرى المرء بوضوح إلا بقلبه

فالعين لا ترى الجوهر.»

- أنطوان دي سانت أكسوبيري، من كتاب «الأمير الصغير»

المكالمة

في أغسطس تلقَّى والداي هذه المكالمة من الأستاذ توشمان، مدير المدرسة الإعدادية. وقالت ماما: «ربما يتصل بكل الطلاب ليرحب بهم»، وقال بابا: «الطلاب عددهم كبير جدًّا». وهكذا عاودت ماما الاتصال به، وسمعتُها تتكلم مع الأستاذ توشمان على الهاتف. وهذا هو ما قالته بالضبط:

«آه. أهلًا يا أستاذ توشمان. أنا أماندا ويل، حضرتك اتصلت بي... آه، شكرًا لك! هذا لُطف شديد منك، وهو ينتظر بفارغ الصبر... نعم... نعم... آه، بالطبع...... آآه. آهاا... طيب، هذا لُطف منك... بالتأكيد. آه. ياه. آآآآه...... مفهوم، بالطبع. أنا متأكدة أنه سيفعل ذلك. دعني أكتب هذا... تمام. سأُكلِّمك بعد أن أتكلم معه، اتفقنا؟... لا، شكرًا لأنك فكرت فيه. مع السلامة!»

وعندما وضعت السماعة قلت شيئًا من قبيل: «ما الأمر؟ ماذا قال لك؟»

وقالت ماما: «في الحقيقة الأمر فيه إطراء كبير، لكنه حزين أيضًا. هناك ولد سيبدأ الدراسة في المدرسة الإعدادية هذا العام، ولم يسبق له أن ذهب إلى مدرسة حقيقية من قبل لأنه كان يتلقَّى دروسه في المنزل، ولهذا تحدث الأستاذ توشمان مع بعض المُدرِّسين

في المدرسة الابتدائية ليُرشحوا له بعض التلاميذ الرائعين جدًا جدًا الذين سينتقلون إلى الصف الخامس، ولا بد أن المُدرِّسين أخبروه بأنك ولد لطيف ومتميز - وهو ما أعرفه بالطبع - وهكذا فإن الأستاذ توشمان يتساءل إذا كان بإمكانه الاعتماد عليك من أجل رعاية هذا الصبي الجديد قليلًا؟»

قلت: «مثل أن أسمح له بصُحبتي؟»

قالت ماما: «بالضبط. وقد أسمى هذه المهمة: «الترحيب بالمستجَدين».»

«لكن لماذا أنا؟»

«قلت لك. المُدرِّسون قالوا للأستاذ توشمان إنك من أولئك الأولاد المعروفين بطيبة القلب. أقصد: أنا فخورة جدًّا أنهم يقدرونك إلى هذه الدرجة...»

«ولماذا حزين؟»

«ماذا تقصد؟»

«لقد قلت إنه إطراء، لكنه أمر حزين أيضًا.»

أومأت ماما برأسها: «آه. طيب، الظاهر أن الولد عنده نوع من الـ.. ممم، أظن أن هناك مشكلة في وجهه... أو شيئًا من هذا القبيل. لست متأكدة. ربما تعرَّض لحادث. لقد قال الأستاذ توشمان إنه سيشرح لك المزيد عندما تذهب إلى المدرسة الأسبوع المُقبل.»

«لكن المدرسة لن تبدأ قبل سبتمبر!»

«يريدك أن تقابل هذا الولد قبل بداية الدراسة.»

«هل أنا مُجبر على ذلك؟»

بدت الدهشة على وجه ماما. وقالت: «لا، بالطبع لا. لكن سيكون لُطفًا منك يا جاك.»

قلت: «إذا لم أكن مُجبَرًا على ذلك، فأنا لا أريد أن أفعل ذلك.»

«هل يمكن أن تفكر في الأمر على الأقل؟»

«أنا أفكر في الأمر، ولا أريد أن أفعله.»

قالت: «طيب، أنا لن أُجبرك، لكن على الأقل فكِّر أكثر قليلًا، طيب؟ لن أتصل بالأستاذ توشمان حتى الغد، لذا احسبها في رأسك. أقصد، يا جاك، أنا لا أظن حقًّا أنه طلب كبير أن تقضي بعض الوقت الإضافي مع ولد جديد...»

أجبت: «إنه ليس ولدًا جديدًا فقط يا ماما. إنه مُشوَّه.»

«لا تقل هذا، هذا شيء فظيع يا جاك.»

«لكنه كذلك يا ماما.»

«أنت لا تعرفه!»

«بل أعرفه.»

قلتُها لأنني عرفت من أول لحظة أنه الولد المُسمَّى أوجست.

كارفل

أتذكَّر أنني رأيته للمرَّة الأولى أمام مطعم «كارفل» في شارع أمسفورت عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري. كنت أجلس أنا و«فيرونيكا»، جليستي، على المقعد الخشبي خارج المطعم مع «جايمي»، شقيقي الأصغر، الذي كان يجلس في عربته ووجهه ناحيتنا. أظن أنني كنت مشغولًا بتناول الآيس كريم، لأنني لم ألاحظ الجالسين بجوارنا.

ثم، عند لحظة معينة، أدرت رأسي لأشفط الآيس كريم من أسفل البسكويتة، وعندها رأيته: أوجست. كان يجلس إلى جواري مباشرة. أعرف أنه لم يكن تصرفًا لائقًا، لكنني أطلقت آهةً عندما رأيته لأنني ارتعبت بحق. ظننته يضع قناع زومبي أو شيئًا من هذا القبيل. كانت آهة تُشبه تلك التي تُطلقُها وأنت تشاهد فيلم رعب عندما يقفز الشرير من بين الأشجار. على أية حال، أعرف أنني لم أتصرف بلُطف، ومع أن الولد لم يسمعني، أعرف أن أخته سمعتني.

قالت فيرونيكا: «جاك، يجب أن نذهب!»

كانت قد وقفت وأخذت تدير العربة، لأن جايمي الذي بدا واضحًا أنه لاحظ الولد أيضًا، كان يوشك على قول شيء مُحرِج. لذا

قفزتُ فجأة، كما لو أن نحلة قد وقفت عليّ، وسرت وراء فيرونيكا وهي تبتعد. وسمعت والدة الفتى وهي تقول بصوت خافت من خلفنا: «هيا يا شباب، أظن أن الوقت قد حان للرحيل»، فاستدرت لأنظر إليهم مرّة أخيرة. كان الولد يلعق بسكويتة الآيس كريم، وكانت الأم تلتقط زلّاجته من على الأرض، وكانت الشقيقة ترميني بنظرة نارية وكأنها ستقتلني. وأشحت بوجهي بسرعة.

همستُ: «فيرونيكا، ما مشكلة هذا الفتى؟»

قالت بصوت غاضب: «اسكت يا ولد!»

أنا أحب فيرونيكا، لكن عندما تغضب، فهي تغضب حقًّا. في الوقت نفسه كان جايمي ينزلق خارجًا من عربته في محاولة لأن يحظى بنظرة أخرى، بينما تدفعه فيرونيكا بعيدًا.

قال جايمي: «لكن يا فيرونيكا...»

قالت فيرونيكا فور أن ابتعدنا في الشارع: «لقد تصرفتما بشقاوة شديدة يا أولاد! شقاوة شديدة! تحدقون بهذه الطريقة!»

قلت: «لم أقصد!»

قال جايمي: «فيرونيكا.»

لكن فيرونيكا كانت تُغمغم: «هكذا نرحل! آه يا إلهي، هذه السيدة المسكينة. أقول لكما يا أولاد، يجب أن نحمد الله كل يوم على ما لدينا من نِعم، هل تسمعانني؟»

«فيرونيكا!»

«نعم يا جايمي؟»

«هل نحن في الهالووين؟»

«لا يا جايمي.»

«إذًا لماذا يضع هذا الولد قناعًا؟»

لم تُجبه فيرونيكا. إنها تصمت هكذا أحيانًا عندما تكون غاضبة من شيء ما.

شرحت لجايمي: «إنه لا يضع قناعًا.»

قالت فيرونيكا: «اسكت يا جاك!»

لم أستطع أن أمنع السؤال: «لماذا غضبت لهذه الدرجة يا فيرونيكا؟»

ظننت أن ذلك سيزيد من غضبها، لكنها هزت رأسها. وقالت: «كان تصرفنا سيئًا. أن نقف بهذه الطريقة، كما لو كنا رأينا شيطانًا. كنت خائفة مما سيقوله جايمي، فاهم؟ لم أُرِدْه أن يقول شيئًا يؤذي مشاعر الولد. لكن الأمر كان سيئًا جدًا، أن نغادر بتلك الطريقة. لقد لاحظَتْ أمه.»

أجبتها: «لكننا لم نقصد.»

«جاك، أحيانًا لا يجب أن تكون خسيسًا كي تؤذي مشاعر شخص ما. هل تفهم؟»

كانت تلك أول مرّة أرى فيها أوجست في الحي، فيما أتذكر على الأقل. لكنني رأيته في الجوار منذ ذلك الوقت: بضع مرّات في الملعب، ومرّات قليلة في المُتنزّه. كان يضع خوذة رائد فضاء أحيانًا. لكنني كنت أعرف دائمًا أنه هو وراء الخوذة. كل أولاد الحي كانوا

يعرفون أنه هو. الجميع رأوا أوجست مرَّة أو أخرى. كلنا نعرف اسمه، ولو أنه لا يعرف أسماءنا.

وكلما رأيته، أحاول تذكُّر ما قالته فيرونيكا. لكن الأمر صعب. صعب أن تمنع نفسك من اختلاس نظرة أخرى. صعب أن تتصرف بشكل طبيعي عندما تراه.

لهذا السبب غيّرت رأيي

سألت ماما لاحقًا تلك الليلة: «بمن اتصل الأستاذ توشمان أيضًا؟ هل أخبرك؟»

«ذكر جوليان وتشارلوت.»

قلت: «جوليان! أوف. لماذا جوليان؟»

«أنت وجوليان كنتما أصدقاء!»

«ماما، كان هذا في الروضة! جوليان أكثر شخص مُزيّف عرفته. وهو يحاول بكل طريقة أن يصبح الأكثر شعبية طوال الوقت.»

قالت ماما: «طيب. على الأقل جوليان وافق على أن يأخذ بيد الفتى. يجب أن نعترف له بهذا الفضل.»

لم أقل شيئًا لأنها كانت مُحِقة.

سألتُها: «وماذا عن تشارلوت؟ هل ستفعلها هي أيضًا؟»

قالت ماما: «نعم.»

أجبت: «بالطبع. تشارلوت هي سندريلًا المدرسة.»

قالت ماما: «يا ربي! يبدو أن لديك مشكلات مع الجميع هذه الأيام.»

بدأت أقول: «الأمر فقط... ماما، ليس لديك فكرة عن شكل هذا الولد!»

«يمكنني أن أتخيَّل.»

«لا! لا يمكنك! لم تريه من قبل. أنا رأيته.»

«ربما لا يكون مَن تُفكِّر فيه أصلًا.»

«صدقيني، إنه هو. وأقول لك، الأمر سيِّئ جدًّا جدًّا. إنه مُشوَّه يا ماما. عيناه هنا بالأسفل.»

أشرت إلى خديَّ.

«وليس لديه أذنان. وفمه يُشبه...»

كان جايمي قد دخل المطبخ ليأخذ علبة عصير من الثلاجة.

قلت: «اسألي جايمي. صح يا جايمي؟ هل تتذكر الولد الذي رأيناه في المُتنزَّه بعد المدرسة السنة الماضية؟ الولد أوجست؟ الولد صاحب الوجه؟»

قال جايمي، وقد اتسعت عيناه: «آه، هذا الولد. لقد جلب لي الكوابيس! تتذكرين يا ماما؟ الكوابيس عن الزومبي السنة الماضية.»

أجابت ماما: «ظننت أن ذلك من مشاهدة أحد أفلام الرُّعب.»

قال جايمي: «لا! كانت بسبب رؤية هذا الولد! عندما رأيته صرخت وجريت...»

قالت ماما، وقد أصبحت نبرتها جادة: «انتظر هنا. هل فعلت ذلك أمامه؟»

قال جايمي، بصوت أقرب إلى الأنين: «لم أستطع أن أمنع نفسي!»

عَنَّفتهُ ماما: «بالطبع كان يمكن أن تمنع نفسك. يا شباب، يجب أن أخبركما، أنا مُحبطة جدًا لما أسمعه منكما.»

بدا وجهُها مُستاءً مثل صوتها: «أقصد، إنه مجرد ولد صغير - مثلك! هل تتخيلان شعوره وهو يراك تهرب منه يا جايمي، صارخًا؟»

اعترض جايمي: «لم تكن صرخة، كانت مثل آهة.»

وضع يديه على خديه وبدأ يجري في المطبخ.

قالت ماما بغضب: «توقَّف يا جايمي! كنت أظن ابنيَّ أكثر تعاطفًا من هذا.»

قال جايمي، الذي كان ينتظر الالتحاق بالصف الثاني فقط: «ما هو التعاطف؟»

قالت ماما: «أنت تعرف بالضبط ما أقصده بالتعاطف يا جايمي.»

قال جايمي: «كل ما في الأمر أنه قبيح جدًا يا ماما.»

صرخت ماما: «اسكت! أنا لا أحب هذه الكلمة يا جايمي! خذ علبة العصير واخرج. أريد أن أتكلم مع جاك على انفراد للحظة.»

بعد أن غادر قالت ماما: «اسمع يا جاك...»

وعرفت أنها ستُلقي عليَّ خطبة، فقلت: «طيب، سأفعل ذلك وهو ما أدهشها تمامًا.»

«حقًّا؟»

«نعم!»

«هل أتصل بالأستاذ توشمان إذًا؟»
«نعم يا ماما، نعم، قلت نعم!»
ابتسمت ماما: «كنت أعرف أنك ستُصبح على قدر المسؤولية يا عزيزي. رائع. أنا فخورة بك يا جاكي.»
ثم عبثَت بشعري.
إذًا، ها هو ما جعلني أُغيِّر رأيي. لم يكن السبب هو رغبتي في أن أتجنَّب سماع محاضرة من ماما. ولم يكن أنني أردت حماية هذا الفتى أوجست من جوليان، الذي أعرف أنه سيتعامل بطيش مع الأمر كله. ولكن لأنني عندما سمعت جايمي يصف كيف جرى من أوجست وهو يُطلِق آهة، شعرت فجأة بأسى شديد. المسألة هي، سيكون هناك دائمًا أولاد مثل جوليان مُغَفَّلون وطائشون، لكن إذا كان طفل صغير مثل جايمي، وهو لطيف جدًّا في المعتاد، يستطيع أن يُصبح بهذه الخسة، فهذا يعني أن ولدًا مثل أوجست ليست لديه فرصة في المدرسة الإعدادية.

أربعة أشياء

أولًا، سوف تعتاد على وجهه فعلًا. أول بضع مرّات كنت أراه فأقول: «يا خبر! لن أعتاد على ذلك أبدًا.» لكن بعد نحو أسبوع، كنت أراه فأقول: «طيب، ليس الأمر بهذا السوء.»

ثانيًا، هو فتى لطيف بحق. أقصد أنه مَرِح جدًّا؛ فمثلًا يقول المدرس شيئًا فيهمس لي أوجست بشيء ظريف لا يسمعه أحد آخر ويجعلني أُقَهْقه. كما أنه، في العموم، فتى ودود؛ فصُحْبَته لطيفة، وكذلك الكلام معه وهذه الأشياء.

ثالثًا، هو ذكي بحق. ظننت أنه سيكون متأخرًا عن الجميع لأنه لم يذهب إلى مدرسة من قبل، لكنه في معظم الأشياء متفوق كثيرًا عني. أقصد، ربما لا يكون في ذكاء تشارلوت أو هيمينا، لكنه ذكي. وبخلاف تشارلوت أو هيمينا، فهو يسمح لي أن أغش منه إذا اضطُررت إلى ذلك حقًّا (مع أنني لم أُضطر إلى ذلك سوى بضع مرّات). كما سمح لي مرّة بأن أنقل الواجب المنزلي منه، وإن أوقعنا ذلك نحن الاثنين في مشكلة بعد الحصة.

قالت الأستاذة روبين، وهي تنظر إلى كلينا وكأنها تنتظر تفسيرًا: «أنتما الاثنان أجبتما الإجابات الخاطئة نفسها في واجب الأمس». لم أعرف ماذا أقول، لأن التفسير كان: آه، ذلك لأنني نقلت واجب أوجست.

لكن أوجست كذب لكي يحميني، فقال شيئًا من قبيل: «آه، هذا لأننا أنجزنا الواجب المنزلي معًا الليلة الماضية»، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق.

ورَدَّت الأستاذة روبين: «أمر طيب أن تنجزا الواجب معًا، ولكن يُفترض مع ذلك أن تُنجزاه بشكل مُنفصل، تمام؟ يُمكنكما أن تعملا جنبًا إلى جنب إذا أردتما، لكن لا يُمكنكما أن تُنجزا الواجب معًا، تمام؟ هل فهمتما؟».

بعدما غادرنا الفصل، قلت: «يا صاحبي، شكرًا على ذلك»، فقال: «لا مشكلة».

كان هذا لطيفًا منه.

رابعًا، الآن وقد أصبحت أعرف أوجست، أستطيع أن أقول إنني أريد حقًّا أن أُصبح صديقه. في البداية، أعترف، كنت ودودًا معه فقط لأن الأستاذ توشمان طلب مني أن أكون لطيفًا على وجه الخصوص وكل هذه الأمور. لكنني الآن أقضي الوقت معه باختياري؛ فهو يضحك على نكاتي، وأنا أشعر أنني أستطيع إخبار أوجست بأي شيء. يعني هو صديق جيد. يعني لو وقف كل شباب الصف الخامس صفًّا بحذاء الحائط، وكان عليَّ أن أختار أيَّ شخص أريد أن أكون بصُحبته، لاخترْتُ أوجست.

أصدقاء سابقون

الصرخة الدامية؟ ما معنى هذا؟ طالما كانت سمر داوسون ممسوسة قليلًا، لكن هذا يفوق الحد. كل ما سألته هو: لماذا أصبح أوجست يعاملني وكأنه غاضب مني أو شيء من هذا القبيل. وقدَّرتُ أنها قد تعرف. وكل ما قالته كان: «الصرخة الدامية». لا أعرف حتى ماذا يعني هذا.

الأمر غريب جدًّا، لأنني في يومٍ كنت أنا وأوجست صديقين، وفي اليوم التالي، ووووش، أصبح لا يُكلِّمني تقريبًا. وليست عندي أدنى فكرة لماذا. عندما قلت له: «يا أوجست، هل أنت غاضب مني؟»، هز كتفيه ومضى بعيدًا. وبالطبع فهمت أن هذا يعني «بالتأكيد». ولأنني أعرف يقينًا أنني لم أفعل أي شيء يُمكن أن يُغضبه، قلت إن سمر يمكن أن تفسر لي الأمر. لكن كل ما حصلتُ عليه منها هو «الصرخة الدامية». نعم، يا لها من مساعدة. شكرًا يا سمر!

تَعرِف، عندي الكثير من الأصدقاء في المدرسة. فإذا كان أوجست يريد أن يكون صديقًا سابقًا بشكل رسمي، فليكن، هذا يُناسبني، لا يهمني. لقد بدأت أتجاهله كما يتجاهلني في المدرسة. والواقع أن هذا صعب نوعًا، حيث إننا نجلس متجاورين في كل الحِصص تقريبًا.

وقد لاحظ الأولاد وبدأوا يسألون إذا كنت قد تعاركت أنا وأوجست. لا أحد يسأل أوجست عما يحدث، بل نادرًا ما يتحدث إليه أحد أصلًا. أقصد، الشخص الوحيد الذي يخالطه، غيري، هو سمر. أحيانًا يقضي بعض الوقت مع ريد كنجسلي، كما لعب مع ماكس وماكس لعبة «الزنازين والتنانين» في الفسحة بضع مرَّات. تشارلوت نفسها، سندريلًا المدرسة، لا تمنحه أكثر من إيماءة تحية عندما تمر به في الردهة. ولا أعرف إذا كان أي شخص ما زال يلعب «الطاعون» من وراء ظهره، لأن أحدًا لم يُخبرني بشأن هذه اللعبة بشكل مباشر. لكن ما أقصده هو أنه لا يحظى بعدد كبير من الأصدقاء يستطيع مخالطتهم بدلًا مني. فإذا أراد أن يتركني، فهو الخاسر - لا أنا.

إذًا، هكذا صارت الأمور بيننا؛ لا نتحدث إلا عن أمور المدرسة إذا اضطُررنا لذلك اضطرارًا. فمثلًا أقول له: «ماذا كان الواجب الذي أعطته لنا روبين؟» فيجيبني، أو يقول هو: «هل يُمكنني استخدام بَرَّايتك؟»، فأُخْرِج له البرَّاية من مقْلَمتي. لكن فور أن يضرب الجرس، يمضي كلٌّ منا في طريقه.

الميزة في هذا أنني أصبحت أُخالط أولادًا أكثر بكثير. قبلها، عندما كنت أُخالط أوجست طوال الوقت، لم يكن الأولاد يخالطونني لأنهم سيُضطرون لمخالطته، أو أنهم كانوا يُخفون عني بعض الأمور، مثل كل ما يتعلق بـ«الطاعون». أظن أنني الوحيد الذي لم يكن مُشاركًا في اللعبة، باستثناء سمر وربما شلة

«الزنازين والتنانين». والحقيقة التي لا يذكرها أحد صراحة أنه لا أحد يريد أن يخالطه؛ فالجميع مشغولون بالانضمام إلى الشلة واسعة الشعبية، وهو بعيد عن الشلة واسعة الشعبية كلَّ البعد. لكنني الآن أستطيع مخالطة أي شخص أريد. وإذا أردت أن أكون في الشلة واسعة الشعبية، فبإمكاني تمامًا أن أكون في الشلة واسعة الشعبية.

أما العيب في هذا فهو: (أ) أنا لا أستمتع حقًّا بمخالطة الشلة واسعة الشعبية بهذا القدر. و(ب) أنا أحببت حقًّا رفقة أوجست. وهكذا، فالأمور «ملخبطة». وأوجست هو السبب.

ثلج

هطل أول ثلج في الشتاء قبيل عطلة عيد الشكر. أغلقت المدرسة، فحصلنا على يوم عطلة إضافي. وقد أسعدني ذلك لأنني كنت في ضيق شديد من مسألة أوجست برمّتها، وأردت بعض الوقت أسترخي فيه من دون أن أضطر لرؤيته كل يوم. كذلك فإن الاستيقاظ على يوم يهطل فيه الثلج، هو تقريبًا أجمل شيء في الدنيا بالنسبة إليَّ. أُحب إحساس أن تفتح عينيك لأول مرّة في الصباح، فلا تعرف حتى لماذا يبدو كل شيء مختلفًا عن المعتاد. ثم تدرك فجأة أن كل شيء هادئ؛ لا سيارات تُطلق أبواقًا، ولا حافلات تسير في الشارع. ثم تجري إلى النافذة، فترى كل شيء في الخارج مُغطى بالأبيض: الأرصفة، الأشجار، السيارات في الشوارع، زجاج نافذتك. وعندما يحدث هذا في يوم دراسي وتكتشف أن المدرسة مُغلقة، طيب، مهما كبرت في السن، سأظل دائمًا أرى أن هذا هو أفضل إحساس في العالم، ولن أكون أبدًا واحدًا من هؤلاء الكبار الذين يستخدمون شمسية عندما تهطل الثلوج - أبدًا.

كانت مدرسة بابا مُغلقة هي الأخرى، وهكذا اصطحبني أنا وجامي لنَتزَلَّج على تل «سكيلتون» في المُتنزَّه. يقولون إن طفلًا انكسرت عنقه وهو يتزلج على هذا التل قبل بضعة أعوام، لكنني

لا أعرف ما إذا كان ذلك حقيقيًّا أم أسطورة من الأساطير. في طريقي إلى البيت، رأيت تلك الزلّاجة الخشبية المدقوقة بارزة من الثلج بجوار «الصخرة الهندية القديمة». قال لي بابا أن أتركها، لأنها مخلفات لا نفع منها، لكن شيئًا ما أخبرني أنها يمكن أن تصبح زلّاجة رائعة. وهكذا سمح لي بابا أن أسحبها معي إلى المنزل. وقضيت بقية يومي في إصلاحها؛ لصقت أضلاعها معًا باللاصق السحري، وربطت شريطًا لاصقًا أبيضَ قويًّا حولها لتقويتها أكثر، ثم رششتها باللون الأبيض مُستخدمًا الطلاء الذي كنت قد اشتريته لطلاء تمثال «أبو الهول» المَرْمَري الذي أعددته من أجل مشروع المتحف المصري. وعندما جف، كتبت على اللوح الخشبي الأوسط كلمة «الصاعقة» بحروف ذهبية كبيرة، ورسمت رمز الصاعقة فوق الحروف. ويجب أن أقول إنها أصبحت تبدو مثل زلّاجات المحترفين. وقد اندهش بابا وقال: «ياه يا جاكي! كان معك حق بخصوص الزلّاجة!».

في اليوم التالي، عدنا إلى «سكيلتون» مع «الصاعقة». كانت أسرع شيء ركبته في حياتي - أسرع بكثير جدًّا جدًّا جدًّا من الزلّاجات البلاستيكية التي كنت أستخدمها. ولأن الجو أصبح أكثر دفئًا، أصبح الثلج أكثر هشاشة ورطوبة، وأصبح يَنكَبِس أسهل. تبادلنا أنا وجايمي استخدام «الصاعقة» طوال فترة ما بعد الظهر، وظللنا في المُتنزَّه حتى تجمَّدت أصابعنا وازرقَّت شفاهنا قليلًا. وقد اضطر بابا إلى أن يُجَرجِرَنا إلى المنزل.

مع انتهاء عطلة نهاية الأسبوع، كان الثلج قد بدأ يتحول إلى الرمادي والأصفر، ثم هبَّتْ عاصفة مُمطِرة فحوَّلت معظم الثلوج إلى أوحال ثلجية. وعندما عدنا إلى المدرسة يوم الاثنين، كان الثلج قد اختفى.

أمطرت السماء في أول أيام عودتنا من العطلة. كان يومًا مُوحِلًا. وهذا ما شعرت به في داخلي أيضًا.

عندما رأيت أوجست أومأت له برأسي أُحييه. كنا أمام الخزانات، وأومأ لي بدوره.

أردت أن أخبره بأمر «الصاعقة»، لكنني لم أُخبره.

الحظ يُحب الشُّجعان

كانت وصية الأستاذ براون لشهر ديسمبر هي: «الحظ يُحب الشُّجعان». طلب منا أن نكتب فقرة عن لحظة في حياتنا فعلنا فيها شيئًا شجاعًا جدًّا، وكيف تسبب ذلك في حدوث شيء طيب في حياتنا.

فكَّرت في الأمر كثيرًا، لأكون صادقًا. ويجب أن أقول إن أكثر شيء شجاع قمت به في حياتي هو مصاحبة أوجست. لكنني لم أستطع الكتابة عن ذلك، بالطبع. خفت أن يطلب منا قراءة ما كتبناه بصوت عالٍ، أو أن يضع الأستاذ براون موضوعاتنا على لوحة الحائط كما يفعل أحيانًا. لذا، بدلًا من ذلك، كتبت هذا الموضوع السخيف عن كيف كنت أخاف من المحيط عندما كنت صغيرًا. كان تافهًا، لكنني لم أستطع التفكير في أي شيء آخر.

تُرى، عن أي شيء كتب أوجست؟ لا بد أن لديه مجالًا واسعًا للاختيار.

مدرسة خاصة

والداي ليسا من الأغنياء. أقول هذا لأن الناس يظنون أحيانًا أن كل من يذهب إلى مدرسة خاصة من الأغنياء، لكن هذا ليس صحيحًا في حالتنا. بابا مُدَرِّس، وماما إخصائية اجتماعية، ما يعني أنهما لا يعملان في وظائف تُدِرُّ عليهما الملايين. كانت لدينا سيارة، لكننا بِعْناها عندما التحق جايمي بروضة الأطفال في مدرسة بيتشر الخاصة. لا نعيش في بيت كبير فاخر في تلك البنايات ذات الحُرَّاس المُطِلة على المُتنزَّه، بل نعيش في الطابق العلوي لبناية من خمسة طوابق بدون مِصْعد، وقد استأجرنا الشقة من سيدة عجوز اسمها «دونا بيترا» على الجانب «الآخر» من برودواي. وهذا هو الاسم المُشفَّر لتلك المنطقة في «نورث ريفر هايتس»، حيث لا يرغب الناس في صف سياراتهم. أنا وجايمي نتشارك الحُجرة نفسها، وأسمع أحيانًا والديَّ وهما يتكلمان في أشياء من قبيل: «هل يمكن أن نعيش بلا جهاز تكييف لعام آخر؟»، أو «ربما أستطيع العمل في وظيفتين هذا الصيف».

اليوم في الفسحة، كنت مع جوليان وهنري ومايلز. كان جوليان، الذي يعرف الجميع أنه غني، يقول: «أكره اضطراري للعودة إلى باريس في الكريسماس. إنها مُمِلة جدًّا!»

قلت مثل الأبله: «يا رجل، لكنها باريس!»

قال: «صَدِّقني، إنها مُمِلة جدًّا. جدتي تعيش في بيت في آخر الدنيا. يَبعُد ساعة عن باريس، في تلك القرية الصغيرة الصغيرة الصغيرة. أقسم بالله أن لا شيء يحدث هناك! أقصد أنك تسمع أشياء من قبيل: «يا خبر! هناك ذبابة على الحائط. انظر، هناك كلب جديد ينام على الرصيف». مَرْحى!»

ضحكت. أحيانًا يكون جوليان مُضحِكًا جدًّا.

قال جوليان: «والداي يتحدثان عن إقامة حفلة كبيرة هذه السنة بدلًا من الذهاب إلى باريس. أتمنى ذلك. ماذا ستفعلون أنتم في العطلة؟»

قلت: «سوف نتَسكَّع فقط.»

قال: «أنت محظوظ جدًّا.»

أجبت: «أتمنى أن تُمطر ثانية، فقد حصلت على زلَّاجة جديدة رائعة.»

كدت أُخبرهم بأمر «الصاعقة»، لكن مايلز بدأ يتكلم أولًا.

قال: «أنا أيضًا حصلت على زلَّاجة جديدة. اشتراها بابا من «هامتشر شليمر»، آخر صيحة.»

قال جوليان: «كيف يمكن لزلَّاجة أن تكون آخِر صيحة؟»

«كان ثمنها ثمانمائة دولار تقريبًا.»

«ياه!»

قلت: «يجب أن نذهب جميعًا للتزلُّج ونتسابق على «سكيلتون».»

رد جوليان: «هذا التل تافه جدًّا.»

قلت: «هل تمزح؟ لقد انكسرت عنق أحد الأولاد هناك. لهذا السبب أسمَوْه «سكيلتون»، تَل الهيكل العظمي.»

ضيَّق جوليان عينيه ونظر إليَّ كما لو كنت أكبر عبيط في العالم. قال: «إنه يُسمَّى كذلك لأنه كان مقبرة هندية قديمة يا رجل. على أية حال، يجب أن يُسمَّى الآن تل «القمامة»، لقد أصبح قذرًا إلى حَدٍّ مُخيف. المرَّة الماضية كنت هناك وكان المنظر فظيعًا: عُلب صودا، وزجاجات مكسورة، وأشياء من هذا القبيل.»

هز رأسه.

قال مايلز: «لقد تركت زلَّاجتي هناك. كانت قطعة نفايات عفنة - ومع ذلك أخذها أحدهم!»

ضحك جوليان: «ربما أراد أحد المتشردين أن يتزلَّج.»

قلت: «أين تركتها؟»

«بجوار الصخرة الكبيرة أسفل التل. وعندما رجعت في اليوم التالي وجدتها اختفت. لم أُصدِّق أن أحدًا أخذها حقًّا!»

قال جوليان: «هذا ما يمكن أن نفعله. عندما تهطل الثلوج المرَّة المقبلة، يمكن أن يوصلنا بابا بالسيارة إلى ملعب الجولف في ويستشيستر، «سكيلتون» يبدو تافهًا بالنسبة إليه. يا جاك! إلى أين تذهب؟»

كنت قد بدأت أمضي بعيدًا.

كذبت وقلت: «يجب أن آخذ كتابًا من خزانتي.»

أردت أن أبتعد عنهم بسرعة. لم أرغب أن يعرف أيُّ شخص أنني «المُتشرِّد» الذي أخذ الزلَّاجة.

في حصة العلوم

لست أعظم تلميذ في الدنيا. أعرف بعض الأولاد الذين يُحبون المدرسة فعلًا، لكنني حقًا لا أستطيع أن أقول هذا. أحب بعض الأشياء في المدرسة، مثل: التربية الرياضية، وحصة الكمبيوتر، والغداء، والفسحة. لكن إجمالًا، سأكون بخير من دون المدرسة.

وأكثر ما أكرهه في المدرسة هو كل الواجبات المنزلية التي نُكلَّف بها. لا يكفي أننا مضطرون إلى الجلوس في حصة بعد حصة، نحاول البقاء مستيقظين وهم يملأون رؤوسنا بكل هذه الأشياء التي غالبًا لن نحتاج إليها أبدًا، مثل: كيفية قياس مساحة سطح المكعب، أو الفرق بين الطاقة الحركية والطاقة الكامنة. أسمع ذلك فأقول: ومَن يهمه ذلك؟ فأنا طيلة حياتي لم أسمع والديَّ يقولان كلمة «كامنة».

أكثر حصة أكرهها هي حصة العلوم؛ نعمل كثيرًا، ولا نستمتع على الإطلاق! والمدرسون، الأستاذة روبين، صارمة جدًّا في كل شيء - حتى في الطريقة التي نكتب بها العناوين في رأس الصفحة! مرَّة ضاعت مني درجتان في الواجب المنزلي لأنني لم أكتب التاريخ في رأس الصفحة. هذا جنون!

عندما كنا، أنا وأوجست، لا نزال صديقين، كنت جيدًا في العلوم؛ لأن أوجست يجلس بجواري ويسمح لي بنقل ملاحظاته.

أوجست هو صاحب أجمل خط رأيته في حياتي بين الأولاد. حتى خطه السريع جميل، يطلع وينزل على أكمل وجه، والحروف صغيرة ومستديرة ودقيقة. لكن الآن بعد أن أصبحنا صديقين سابقين، الأمر مؤسف حيث لم يعد يُمكنني أن أطلب منه أن أنقل ملاحظاته.

لذا كنت مُتخبطًا نوعًا ما اليوم، وأنا أحاول أن أدوِّن ملاحظات حول ما تقوله الأستاذة روبين (خطي بَشِع)، وفجأة بدأت تتكلم عن مشروع مَعرِض العلوم الخاص بالصف الخامس، وكيف أن علينا أن نختار مشروعًا علميًّا لنعمل عليه.

بينما كانت تقول ذلك، أخذت أُفكِّر، لقد انتهينا للتوِّ من مشروع مصر المخيف، وعلينا الآن أن نبدأ مشروعًا كاملًا من جديد؟ ثم قلت في عقلي: «آه، لااااااا!» مثل بطل فيلم «وحدي في المنزل»، وفمه مفتوح، ويداه على وجهه. كان هذا هو التعبير الذي ارتسم على وجهي من الداخل. ثم فكَّرت في تلك الصور لوجوه الأشباح الذائبة التي رأيتها في مكان ما، الوجوه ذات الأفواه المفتوحة على وسعها وهي تصرخ. ثم فجأة قفزت إلى رأسي تلك الصورة، تلك الذكرى، وعرفت ما كانت سمر تقصده حين قالت: «الصرخة الدامية». أمرٌ غريب، كيف سطع كل ذلك كالبرق؟ شخص في غرفة استقبال الصف كان يرتدي زي «الصرخة الدامية» في الهالووين. أتذكر رؤيته على بُعد بضعة مقاعد مني، ثم أتذكر أنني لم أره ثانية.

آه يا ربي! لقد كان أوجست.

صدَمني كل ذلك في حصة العلوم، بينما كانت المُدرِّسة تتكلم.

آه يا ربي!

كنت أتكلم مع جوليان عن أوجست. آه يا ربي! الآن أفهم! لقد كنت خسيسًا جدًّا. لا أعرف حتى لماذا. لست متأكدًا حتى ماذا قلت، لكنه كان كلامًا سيئًا. استمر لدقيقة أو دقيقتين. فقط كنت أعرف أن جوليان والجميع يظنون أنني غريب جدًّا لأنني أخالط أوجست طوال الوقت، وشعرت أنني غبي. ولا أعرف لماذا قلت هذه الأشياء. قلتها وحسب. كنت غبيًّا. أنا غبي. آه يا ربي! كان من المفترض أن يأتي مُتنكِّرًا في زي بوبا فِت! لم أكن لأقول أيًّا من هذا أمام بوبا فِت. لكنه كان هو، «الصرخة الدامية» الجالس على المقعد ينظر إلينا. القناع الأبيض المستطيل المُبَقَّع الذي تَنزُّ منه دماء زائفة. الفم المفتوح على وسعه، وكأنه غول يبكي. كان هو.

وشعرت بالغثيان.

شركاء

لم أسمع كلمة مما قالته الأستاذة روبين بعد ذلك، كلام كلام كلام. مشروع المَعرِض العلمي، كلام كلام كلام. شركاء، كلام كلام كلام. كان ذلك يُشبه الطريقة التي يتحدث بها الكبار في أفلام «تشارلي براون». مثل شخص يتكلم تحت الماء: «موا – موا – مواااه، موا – موااااه.»

ثم فجأة بدأت الأستاذة روبين تشير إلى التلاميذ في الفصل: «ريد وتريستان، مايا وماكس، تشارلوت وهيمينا، أوجست وجاك.»

كانت تشير إلينا وهي تقول ذلك: «مايلز وأموس، جوليان وهنري، سافانا و...»

لم أسمع البقية.

قلت: «هه؟»

ضرب الجرس.

قالت الأستاذة روبين بينما كان التلاميذ يقفون: «لا تنسوا إذًا أن تجلسوا مع شركائكم لاختيار مشروع من القائمة يا شباب.»

رفعت رأسي إلى أوجست، لكنه كان قد وضع حقيبة ظهره وخرج من الباب.

لا بد أن تعبير وجهي كان غبيًا، لأن جوليان جاء إليَّ وقال: «إذًا أنت وصديقك المُقرَّب شريكان.»

كان يبتسم هازئًا وهو يقول ذلك، وقد كرهته كثيرًا لحظتها:

«اخرس يا جوليان.»

كنت أضع مُغلّف الأوراق في حقيبة ظهري، ولا أريد إلا أن يبتعد عني.

قال: «لا بد أنك منزعج لأنك تورّطت معه. يجب أن تقول للأستاذة روبين إنك تريد أن تُغيِّر شريكك. أراهن أنها ستُوافق.»

قلت: «لا، لن تُوافق.»

«اسألها.»

«لا، لا أريد.»

قال جوليان، وهو يستدير رافعًا يده: «أستاذة روبين؟»

كانت الأستاذة روبين تمسح السبورة في أول الفصل. استدارت عندما سمعت اسمها.

صرختُ هامسًا: «لا يا جوليان!»

قالت بنفاد صبر: «ما الأمر يا أولاد؟»

قال جوليان، ببراءة شديدة: «هل يُمكننا أن نُبدِّل شركاءنا إذا أردنا؟ أنا وجاك لدينا تلك الفكرة الخاصة بمَعرِض العلوم، ونريد أن نعمل عليها معًا.»

بدأت تقول: «طيب، أظن أننا يمكن أن نُرتِّب هذا.»

قلت سريعًا، وأنا أتجه ناحية الباب: «لا، لا بأس يا أستاذة روبين. مع السلامة.»

جرى جوليان ورائي. قال وهو يلحق بي على السلالم: «لماذا فعلت هذا؟ كان يُمكننا أن نصبح شريكين. لست مُضطرًّا لمصاحبة هذا المَسخ إذا لم تكن ترغب في ذلك، تعرف...»

عندها، لَكَمْتُه. لَكَمْتُه في فمه.

احتجاز

هناك أشياء لا تجد لها تفسيراً، بل ولا تحاول، ولا تعرف من أين تبدأ. تفتح فمك فتتلَبّك كل عباراتك مثل عقدة عملاقة، وكل كلمة تستخدمها تخرج خطأً.

كان الأستاذ توشمان يقول: «جاك، هذا الأمر خطير جدًّا جدًّا.»

كنت في غرفة مكتبه، جالسًا على كرسي أمام المكتب أنظر إلى صورة ثمرة القرع على الحائط خلفه.

«التلاميذ يُطردون بسبب هذه الأشياء يا جاك! أعرف أنك ولد طيب ولا أريد أن يحدث لك ذلك، لكن عليك أن تُقدِّم تفسيراً.»

قالت ماما: «هذا التصرُّف لا يُشبهك يا جاك.»

كانت قد جاءت من العمل فور أن اتصلوا بها، وعرفتُ أنها تتأرجح بين الغضب العارم والدهشة الشديدة.

قال الأستاذ توشمان: «كنت أظن أنك وجوليان صديقان.»

قلت: «لسنا صديقين.»

كانت ذراعاي معقودتين أمامي.

قالت ماما، وهي ترفع صوتها: «لكن أن تَلكم شخصًا في فمه يا جاك؟ فيمَ كنت تُفكِّر؟»

نَظَرت إلى الأستاذ توشمان: «صدِّقني، لم يسبق له أن ضرب أي شخص من قبل. إنه ليس كذلك.»

قال الأستاذ توشمان: «فَمُ جوليان كان ينزف يا جاك! لقد كسرت له سِنة، هل عرفت ذلك؟»

قلت: «إنها سِنة لَبنيّة.»

قالت ماما وهي تهز رأسها: «جاك!»

«هذا ما قالته الممرضة مولي.»

صرخت ماما: «أنت تتكلم في موضوع آخر.»

قال الأستاذ توشمان، وهو يرفع كتفيه: «أنا فقط أريد أن أعرف السبب.»

تنهدتُ: «هذا سيجعل الأمور أسوأ فحسب!»

«فقط أخبرني يا جاك.»

هززت كتفيّ، لكنني لم أنطق بكلمة. لم أستطع. إذا قلت له إن جوليان قال عن أوجست مَسخًا، سيذهب ويتكلّم مع جوليان عن الموضوع، ثم سيُخبره جوليان كيف أنني تكلّمت بالسوء عن أوجست أنا أيضًا، وسيكتشف الجميع ما حدث.

قالت ماما: «جاك!»

بدأت أبكي: «أنا آسف...»

رفع الأستاذ توشمان حاجبيه وأومأ برأسه، لكنه لم يقل شيئًا. بدلًا من ذلك، نفخ في يديه، مثلما تفعل عندما تشعر بالبرد. قال: «جاك، لا أعرف حقًّا ماذا أقول هنا. أقصد، لقد لَكَمتَ ولدًا. لدينا قواعد بشأن هذه الأمور، تعرف؟ الطَّردُ تلقائيًّا. وأنت لا تحاول حتى أن تُفسِّر الأمر.»

كنت أبكي كثيرًا في هذه اللحظة، وبمجرد أن وضعت ماما ذراعيها حولي، أخذت أنتَحِب.

قال الأستاذ توشمان، وهو يخلع نظارته كي يُلمِّعَها: «دعنا، ممم... دعنا نفعل هذا يا جاك. عطلة الشتاء ستبدأ الأسبوع المقبل على أية حال. ما رأيك أن تظل في المنزل بقية هذا الأسبوع، ثم بعد عطلة الشتاء ترجع ويبدأ كل شيء من جديد. صفحة بيضاء، كما يُقال.»

نشقتُ: «هل أنا موقوف عن الدراسة؟»

قال، وهو يهز كتفيه: «يعني، من الناحية الفنية نعم، لكن لبضعة أيام فقط. عندي فكرة: وأنت في البيت، خُذ وقتك لتُفكِّر فيما حدث. وإذا أردت أن تكتب خطابًا لي تُفسِّر فيه ما حدث، وخطابًا لجوليان تعتذر له، فلن نَضَع أيًّا من هذا في ملفك الدائم، اتفقنا؟ اذهب إلى البيت وتكلَّم في الأمر مع ماما وبابا، وربما في الصباح تفكر في الأمر أكثر قليلًا.»

قالت ماما وهي تومئ برأسها: «تبدو هذه خطة جيدة يا أستاذ توشمان. شكرًا لك.»

قال الأستاذ توشمان، وهو يتجه نحو الباب، الذي كان مُغلقًا: «كل شيء سيكون على ما يُرام. أعرف أنك ولد لطيف يا جاك، وأعرف أنه حتى الأطفال اللطفاء يفعلون أشياء متهورة، صح؟»

فتح الباب.

قالت ماما، وهي تصافحه عند الباب: «شكرًا لِتَفهُّمك.»

«لا توجد مشكلة.»

انحنى وقال لها شيئًا بصوت خافت لم أسمعه.

قالت ماما، وهي تومئ برأسها: «أعرف. شكرًا لك.»

قال لي، وهو يضع يديه على كتفيَّ: «إذًا يا بنيّ، فَكِّر فيما فعلت، اتفقنا؟ وأتمنى لك إجازة رائعة. عيد أنوار سعيد! عيد ميلاد مجيد! عيد «كوانزا» سعيد!»

مسحتُ أنفي بكُمي، واتجهت إلى الباب كي أخرج.

قالت ماما وهي تُنقِّر على كتفي: «اشكُر الأستاذ توشمان.»

توقفت واستدرت، لكنني لم أستطع النظر إليه. قلت: «أشكرك يا أستاذ توشمان.»

قال: «مع السلامة يا جاك.»

ثم خرجت من الباب.

معايدات

من الأمور العجيبة، أننا عندما عدنا إلى البيت وجلَبت ماما البريد، وجدنا بطاقات معايدة من كل من أسرة جوليان وأسرة أوجست. كانت بطاقة معايدة جوليان صورة لجوليان وهو يضع ربطة عنق، يبدو كأنه يستعد للذهاب إلى الأوبرا أو شيء من هذا القبيل. أما بطاقة معايدة أوجست، فكانت كلبًا كبيرًا جميلًا يضع قرون رنة، وأنفًا أحمر، وحذاء أحمر برقبة. وكانت هناك فقاعة فوق رأسه تقول: «هو - هو - هو!». وفي داخل البطاقة مكتوب:

إلى أسرة ويل

سلامًا على الأرض.

مع الحب. نيت، إيزابيل، أوليفيا، أوجست (ودايزي).

قلت لماما، التي لم تُوجِّه لي كلمة تقريبًا طوال الطريق إلى البيت: «بطاقة جميلة، هه؟»

أعتقد أنها بأمانة لم تكن تعرف ماذا تقول وحسب. قلت: «لا بد أن هذا كلبهم.»

سألتني بنبرة جادة: «هل تريد أن تُخبرني بما يدور داخل رأسك يا جاك؟»

قلت: «أراهنك أنهم يضعون صورة لكلبهم على البطاقة كل سنة.»

أخذت البطاقة من يديَّ ونظرت إلى الصورة بتَمعُّن، ثم رفعتْ حاجبيها وكتفيها وأعادت إليَّ البطاقة: «نحن محظوظون جدًّا يا جاك. هناك نِعم كثيرة لا ننتبه لها...»

قلت: «أعرف.»

كنت أعرف عم تتحدث من دون أن تضطر لقوله.

«سمعت أن والدة جوليان أزالت وجه جوليان ببرنامج «فوتوشوب» من صورة الفصل عندما تسلَّمَتها. لقد أعطت نسخة لبعض الأمهات الأُخريات.»

قالت ماما: «هذا أمر فظيع! الناس... ليسوا كلهم رائعين!»

«أعرف.»

«هل لهذا السبب ضربت جوليان؟»

«لا.»

ثم أخبرتها لماذا لَكمْتُ جوليان، وأخبرتها أن أوجست الآن صار صديقي السابق، وأخبرتها بما حدث في الهالووين.

خطابات، بريد إلكتروني، فيس بوك، رسائل محمول

١٨ ديسمبر

عزيزي الأستاذ توشمان،

أنا آسف جدًّا جدًّا لأنني لكمتُ جوليان. كان هذا خطأً كبيرًا جدًّا مني. أنا أكتب الآن خطابًا له لأخبره بهذا أيضًا. إذا سمحت لي، فأنا أُفضّل ألا أخبرك بالسبب الذي جعلني أفعل ما فعلته، لأنه لا يُبرر أي شيء بأية حال. كذلك، لا أرغب في أن أجعل جوليان يقع في مشكلة، لأنه قال شيئًا لم يكن ينبغي عليه أن يقوله.

المُخلص جدًّا

جاك ويل

١٨ ديسمبر

عزيزي جوليان،

أنا آسف جدًّا جدًّا جدًّا لأنني ضربتك. كان ذلك خطأً مني. أتمنى أن تكون بخير. أتمنى أن تَنبُت سِنتك الدائمة بسرعة. أسناني دائمًا ما تَنبُت بسرعة.

المُخلص

جاك ويل

٢٦ ديسمبر

عزيزي جاك،

شكرًا جزيلًا على خطابك. هناك شيء تَعلَّمتُه بعد عشرين عامًا من العمل كمدير لمدرسة إعدادية: هناك دائمًا أكثر من زاويتين لكل قصة. ومع أنني لا أعرف التفاصيل، فإن لديَّ فكرة عما قد يكون أشعل المواجهة مع جوليان.

ومع أن لا شيء يُبرر ضرب تلميذ آخر – على الإطلاق – أعرف أيضًا أن الأصدقاء الحقيقيين أحيانًا ما يستحقون الدفاع عنهم. لقد كانت سَنة صعبة على الكثير من الطلاب، كما هو حال السنة الأولى في المدرسة الإعدادية دائمًا.

حافظ على مستواك، وكُن الولد الطيب الذي نعرفه جميعًا.

مع أطيب التمنيات.

لورانس توشمان

مدير المدرسة الإعدادية

Fr: melissa.albans@rmail.com
To: ltushman@beecherschool.edu
Cc: johnwill@phillipsacademy.edu
amandawill@copperbeech.org
Subject:جاك ويل

عزيزي الأستاذ توشمان،

تحدثت مع أماندا وجون ويل بالأمس، وقد أعربا عن أسفهما لكَوْن جاك لَكَم ابننا، جوليان، في فمه. وأنا أكتب إليك لأخبرك أنني أنا وزوجي ندعم قرارك بالسماح لجاك بالعودة إلى مدرسة بيتشر الخاصة بعد إيقاف يومين.

ومع أنني أعتقد أن ضرب طفل يجب أن يكون سببًا كافيًا للطّرد في المدارس الأخرى، فأنا أُتفق مع كون هذا الإجراء المُشدّد لا يجب أن يسري هنا. نحن نعرف أسرة «ويل» منذ كان أولادنا في الروضة، ونحن واثقون أنهم سيتخذون ما يلزم من إجراءات لضمان عدم تكرار الأمر.

وفي هذا الصدد، أتساءل عما إذا كان سلوك جاك العنيف غير المتوقَّع ربما كان نتيجةً للضغوط الشديدة المُلقاة على كاهليه الصغيرين، وأقصد تحديدًا الطفل الجديد ذا الاحتياجات الخاصة الذي طُلب من جاك وجوليان «مصاحبته». والآن، بالالتفات إلى الماضي، وبعد أن رأينا الطفل المذكور في أنشطة مدرسية مختلفة وفي صور الفصل، أرى أنه ربما كان مَطلبًا كبيرًا أن نسأل أطفالنا التعامل مع كل هذا. بالتأكيد، عندما ذكر جوليان أنه وجد صعوبة في مصاحبة الولد، قلنا له إنه «غير مُضطر» في هذا الصدد. ونحن نظن أن الانتقال إلى المدرسة الإعدادية صعبٌ بما يكفي من دون الاضطرار إلى وضع أعباء أو متاعب أكبر على تلك العقول الصغيرة المرهَقة. كذلك يجب عليَّ أن أذكر أنني، كعضو في مجلس إدارة المدرسة، انزعجت بعض الشيء من عدم التفكير أكثر – في أثناء اتخاذ قرار قبول الطفل – في حقيقة أن مدرسة بيتشر الخاصة ليست من مدارس الدّمج. هناك الكثير من الآباء – وأنا منهم – يُشككون في صحة القرار بالسماح لهذا الطفل بدخول مدرستنا من الأُصل. على الأقل، أنا مُنزعجة بعض الشيء من كون هذا الطفل لم يستوفِ معايير القبول الصارمة ذاتها (أقصد: المقابلة الشخصية) التي مر بها بقية الطلاب الوافدين إلى المدرسة الإعدادية.

مع أطيب التمنيات.

ميليسا بيربر ألبانز

Fr: ltushman@beecherschool.edu

To: melissa.albans@rmail.com

Cc: johnwill@phillipsacademy.edu;

amandawill@copperbeech.org

Subject:جاك ويل

عزيزتي السيدة ألبانز،

شكرًا على رسالتك التي أوضحتِ فيها مخاوفك. ما لم أكن مُقتنعًا أن جاك ويل آسف بشدة على أفعاله، وما لم أكن واثقًا من كونه لن يُكرر تلك الأفعال، فتأكدي من أنني ما كنت لأسمح له بالعودة إلى مدرسة بيتشر الخاصة.

أما فيما يخص مخاوفك الأخرى بشأن طالبنا الجديد أوجست، فأرجو منك ملاحظة أنه ليس من ذوي الاحتياجات الخاصة. فهو ليس مُعاقًا، ولا ذا عاهة، ولا تطوره متأخر بأي حال من الأحوال، ومن ثَمَّ لم يكن هناك سبب لافتراض أن أحدًا سيُبدي اعتراضًا على قَبوله في مدرسة بيتشر الخاصة – سواء كانت مدرسة دمجية أم لا. ووفقًا لعملية القبول، فقد شعرنا أنا ومدير لجنة القبول أنه من حَقِّنا إجراء المقابلة خارج المدرسة، في بيت أوجست، لأسباب واضحة. شعرنا أن في ذلك خَرْقًا طفيفًا للبروتوكول لا يُمثل – بأية حال – تجاوزًا لقواعد القبول. أوجست طالب جيد جدًّا، ونال صداقة بعضٍ من الشباب المتميزين للغاية، بمَن فيهم جاك ويل.

في بداية العام الدراسي، عندما شكلت «لجنة استقبال» لأوجست من بعض الأطفال، فعلتُ ذلك كوسيلة لتسهيل انتقاله إلى البيئة المدرسية. لم أفكر في أنني حين أطلب من هؤلاء الأطفال معاملة طالب جديد بقدرٍ أكبر من الطِّيبة،

أضع «أعباء أو متاعب» إضافية عليهم. الحقيقة أنني فكرت أن ذلك سيعلّمهم شيئًا عن التعاطف، والصداقة، والإخلاص.

وكما اتضح، لم يكن جاك ويل بحاجة لتعلُّم أيٍّ من تلك الفضائل – إذ إن بداخله الكثير منها.

شكرًا ثانية على تواصلك.

المخلص

لورانس توشمان

Fr: johnwill@phillipsacademy.edu

To: melissa.albans@rmail.com

Cc: ltushman@beecherschool.edu;

amandawill@copperbeech.org

Subject: جاك

أهلًا يا ميليسا،

شكرًا لِتفهُّمك بشأن ما حدث مع جاك. وكما تعلمين، فهو شديد الأسف على أفعاله. أتمنى أن تقبلي عرضنا بأن نتكفّل بفاتورة علاج جوليان عند طبيب الأسنان.

لقد تأثرنا كثيرًا بقلقك فيما يخص صداقة جاك مع أوجست. ونُحيطك علمًا بأننا قد سألنا جاك إذا كان يشعر بأي ضغط مُفرط بشأن هذا الأمر، وكانت إجابته «لا» قاطعة. إنه يستمتع بصُحبة أوجست، ويشعر أنه اكتسب صديقًا حقيقيًا.

نتمنى لكم عامًا جديدًا سعيدًا!

جون وأماندا ويل

أهلًا أوجست،
جاكلوب يريد أن يصبح صديقًا لك على فيس بوك.
جاكلوب ويل (٣٢ صديقًا مشتركًا)

شكرًا،
فريق فيس بوك

To: auggiedoggiepullman@email.com

Subject:!!!!!!آسف

Message:

أهلًا يا أوجست. أنا جاك ويل. لاحظت أنني لم أعد في قائمة أصدقائك. أتمنى أن تَصاحبني ثانية لأنني آسف بجد. أردت فقط أن أقول هذا. آسف! أعرف لماذا أنت غاضب مني الآن. آسف، لم أقصد ما قلته. كنت غبيًّا. أتمنى أن تُسامحني.
أتمنى أن نَصبح صديقين مرّة أخرى.

جاك

رسالة واحدة جديدة
من: أوجست
٢ ديسمبر ٤:٤٧ مساء
تلقّيت رسالتك، تعرف لماذا أنا غاضب منك؟ من سمر؟

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٤:٤٩ مساء

قالت لي «الصرخة الدامية» كإشارة، لكنني لم أفهم في البداية، ثم تذكَّرت أنني رأيت «الصرخة الدامية» في غرفة الاستقبال في الهالووين. لم أعرف أنك أنت، وظننت أنك ستأتي في زي بوبا فِت.

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٤:٥١ مساء

غيَّرت رأيي في آخر لحظة. هل لكمت جوليان حقًّا؟

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٤:٥٤ مساء

نعم، لَكَمتُه، وكسرت له سِنةً خلفية. سنة لَبنيَّة.

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٤:٥٥ مساء

لماذا لَكَمتَه؟؟؟؟؟؟؟؟؟

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٤:٥٦ مساء

لا أعرف.

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٤:٥٨ مساء

كذّاب، أراهن أنه قال شيئًا عني، صح؟

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٥:٠٢ مساء

إنه مُغفّل. لكنني كنتُ مُغفلًا أيضًا. آسف بجد بجد بجد على ما قلته يا صاحبي. طيب؟ أصدقاء من جديد.

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٥:٠٣ مساء

طيب.

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٥:٠٤ مساء

رائع!!!!

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٥:٠٦ مساء

لكن قل لي الحقيقة:

هل فعلًا كنت ستقتل نفسك لو كنت مكاني؟

رسالة واحدة جديدة

من: جاك ويل

٣١ ديسمبر ٥:٠٨ مساء

لا!!!!!

أقسم بحياتي.

لكن يا صاحبي، كنت سأقتل نفسي لو كنت جوليان.

رسالة واحدة جديدة

من: أوجست

٣١ ديسمبر ٥:١٠ مساء

هههه...

نعم يا صاحبي، أصدقاء من جديد.

العودة من عطلة الشتاء

على الرغم مما قاله توشمان، لم تكن هناك «صفحة جديدة» عندما عُدت إلى المدرسة في يناير. الواقع أن الأمور بدت غريبة تمامًا من اللحظة التي ذهبت فيها إلى خزانتي في الصباح. أنا واقف بجوار أموس، المعروف باستقامته، قلت له: «هيه. ما الأخبار؟». فاكتفى بإيماءة من رأسه، نصف تحية، وأغلق باب خزانته، ومضى. وقلت لنفسي: طيب، هذا أمر عجيب. ثم قلت لهنري: «هيه. ما الأخبار؟». فلم يُزعج نفسه حتى بنصف ابتسامة، وأشاح بوجهه بعيدًا.

طيب، إذًا هناك أمرٌ ما. شخصان تجاهلاني في أقل من خمس دقائق. لا أقول إنني أكترث بأيٍّ منهما. فكرت أن أُجرِّب مرَّة أخرى، مع تريستان، وبوووم، نفس الشيء. الواقع أنه بدا متوترًا، وكأنما يخاف من الكلام معي.

لقد أصبحت مُصابًا بنوع من «الطاعون» الآن، هذا ما فكرت فيه. هكذا أدفع ثمن ما فعلته بجوليان.

وهكذا سارت الأمور طوال النهار. لم يتكلم أحد معي. لا، ليس حقيقيًّا. كانت البنات طبيعيات جدًّا معي. وأوجست تكلَّم معي، بالطبع. وفي الواقع، يجب أن أقول إن ماكس وماكس ألقيا

عليّ التحية، وهو ما جعلني أشعر بالأسف لأنني لم أخالطهما قطُّ على مدى السنوات الخمس التي قضيتها في فصلهما.

تمنيت أن تسير الأمور بصورة أفضل على الغداء، لكن ذلك لم يحدث. جلست إلى طاولتي المعتادة مع «لوكا» و«أيزيا». أظن أنني فكرت أنني سأكون آمنًا معهما، كونهما ليسا من الشُّلة واسعة الشعبية، وإنما من الأولاد الرياضيين العاديين. لكنهما بالكاد أومآ لي برأسيهما عندما ألقيت عليهما التحية. ثم، عندما نُودي على طاولتنا، قامَا ليأخذا غداءهما ولم يرجعا. رأيتهما يجلسان إلى طاولة أخرى في آخر الكافتيريا. لم يجلسا إلى طاولة جوليان، وإنما قريبين منه، وكأنهما يجلسان على حوافِّ الشعبية. خلاصة القول إنني أصبحت منبوذًا. كنت أعرف أن تبديل الطاولات أمرٌ يحدث في الصف الخامس، لكنني لم أفكر قَطُّ أنه قد يحدث لي.

شعرت بإحساس فظيع وأنا وحدي على الطاولة. شعرت أن الجميع يراقبونني. وقد جعلني هذا أشعر أيضًا أنني بلا أصدقاء فقررت أن أُفوِّت الغداء وأن أذهب للقراءة في المكتبة.

الحرب

كانت تشارلوت هي مَن سرَّبت لي السبب الذي جعل الجميع يتجاهلونني. وجدت رسالة في خزانتي في نهاية اليوم:

قابِلني في غرفة ٣٠١ بعد المدرسة مباشرة. تعالَ وحدك!

تشارلوت

كانت في الغرفة بالفعل عندما دخلت. قلت: «أخبارك؟»

قالت: «أهلًا.»

اتجهَت إلى الباب، نظرَت يسارًا ويمينًا، ثم أغلقَت الباب وأوصدَته من الداخل. استدارت لتواجهني، وبدأت تعض ظفرها وهي تتكلم: «اسمع. أنا لست سعيدة بما يجري، وأريد أن أُخبرك بما أعرفه. هل تعدني ألَّا تُخبر أيَّ شخص أنني تكلَّمت معك؟»

«وَعْد.»

قالت: «جوليان أقام احتفالًا ضخمًا بعطلة الشتاء. وأنا أقصد ضخمًا. صديق أختي كان قد أقام احتفاله بعامه السادس عشر في المكان نفسه العام الماضي. كان هناك نحو مائتين من الحضور، لهذا أنا أعني أنه مكان ضخم.»

«نعم، ثم ماذا؟»

«نعم، ثم... طيب، كان جميع زملائنا في الصف تقريبًا موجودين.»

قلت مازحًا: «ليس الجميع.»

«صحيح، ليس الجميع. آه، لكن حتى الآباء كانوا هناك، تعرف. فوالداي مثلًا كانا هناك. أنت تعرف أن والدة جوليان هي نائب رئيس مجلس إدارة المدرسة، صح؟ فهي تعرف إذًا الكثير من الناس. على أية حال، ما حدث باختصار في هذا الحفل هو أن جوليان دار على الجميع يُخبرهم أنك لَكَمْتَه لأنك تُعاني مشكلات شعورية.»

«ماذا؟!»

«وأنك كنت ستُطرد، لكن والديه توسلا إلى المدرسة حتى لا تطردك...»

«ماذا؟!»

«وأن أيًا من ذلك لم يكن ليحدث ما لم يُجبرك توشمان على مصاحبة أوجي. قال إن والدته تعتقد أنك، انهرت تحت الضغط، بحسب تعبيره...»

لم أصدِّق ما أسمعه. قلت: «لكن أحدًا لم يشترِ كلامه هذا، صح؟»

هزَّت كتفيها: «ليست تلك هي المشكلة. المشكلة هي أنه يتمتع بشعبية كبيرة. ماما سمعت أن أمه تضغط على المدرسة لإعادة النظر في قبول أوجي.»

«وهل تستطيع أن تفعل هذا؟»

«تقول إن بيتشر ليست مدرسة دمجية، وتلك هي المدارس التي تجمع بين الأولاد الطبيعيين وأصحاب الاحتياجات الخاصة.»

«هذا غباء! أوجي ليس من أصحاب الاحتياجات الخاصة!»

«نعم، لكنها تقول إن المدرسة إذا قررت أن تُغيِّر طريقتها المعتادة في إنجاز الأمور بشكل ما...»

«لكنها لا تُغيِّر أي شيء!»

«لا، بل تُغيِّر. ألم تلاحظ أنهم غيَّروا تيمة مَعرِض الفنون للعام الجديد؟ في السنوات الماضية كان تلاميذ الصف الخامس يرسمون صورًا شخصية، لكن هذا العام جعلونا نقوم بهذا الأمر السخيف ونرسم أنفسنا كحيوانات، هل تتذكر؟»

«يا له من أمر جلل!»

«أعرف، لا أقول إنني أوافق على ذلك، فقط أقول إن هذا ما يقولونه.»

«أعرف، أعرف. فقط الأمر غاية في اللخبطة.»

«أعرف. على أية حال، جوليان قال إنه يعتقد أن مصاحبة أوجي ستتسبب في انهيارك، وأنه من أجل مصلحتك يجب عليك أن تكفَّ عن مُخالطته كثيرًا. وهكذا إذا بدأت تخسر أصدقاءك القدامى، سيكون ذلك بمثابة جرس إنذار. لذا باختصار، ومن أجل مصلحتك، سيقطع صداقته معك تمامًا.»

«خبر عاجل: أنا قطعت صداقتي بجوليان أولًا.»

«نعم، لكنه أقنع كل الأولاد بالتوقف عن صداقتك – من أجل مصلحتك. لهذا السبب لا يتكلم أحد معك.»

«أنت تتكلمين معي.»

فسَّرت قائلة: «نعم، طيب، هذا شأن من شؤون الصِّبيان. البنات على الحياد. باستثناء شلة سافانا، لأنهن يخرجن مع شلة جوليان. لكن بالنسبة إلى بقية البنات فهذه الحرب تخص الصِّبيان.»

أومأتُ برأسي. أمالت رأسها إلى أحد الجانبين، وعبست وكأنما تأسف لحالي.

قالت: «هل ضايقك أنني أخبرتك بكل هذا؟»

كذبتُ: «لا، بالطبع! لا يعنيني مَن يتكلم معي ومَن لا يتكلم. كل هذا غباء.»

أومأتْ برأسها.

«اسمعي، هل يعرف أوجي بأيٍّ من هذا؟»

«بالطبع لا. على الأقل ليس مني.»

«وسمر؟»

«لا أظن. اسمع، الأفضل أن أذهب. لِعِلمك فقط، ماما تعتقد أن والدة جوليان بَلْهاء تمامًا. قالت إنها تعتقد أن أمثالها يهتمون بمظهر صور الفصل الخاصة بأولادهم أكثر من اهتمامهم بفعل الصواب. لقد سمعت بأمر تعديل الصورة على برنامج «فوتوشوب»، أليس كذلك؟»

«نعم، كان هذا شيئًا مُقزِّزًا.»

أجابت، وهي تومئ برأسها: «جدًّا. على أية حال، الأفضل أن أذهب. فقط أردتُك أن تعرف ما يجري حولك.»

«شكرًا يا تشارلوت.»

قالت: «سأخبرك إذا سمعت أي شيء آخر.»

قبل أن تذهب، نظرتْ يمينًا ويسارًا خارج الباب لتتأكد من أن أحدًا لم يرها وهي تغادر. أعتقد أنها، على الرغم من حيادها، لم ترغب في أن يراها أحد معي.

تبديل الطاولات

اليوم التالي على الغداء، كم كنت غبيًا. جلست إلى طاولة مع تريستان ونينو و«بابلو». ظننت أنني سأكون في الأمان لأنهم لا يُعتبرون من بين الأولاد ذوي الشعبية الواسعة، لكنهم أيضًا ليسوا ممن يخرجون في الفسحة للعب «التنانين والزنازين». كانوا بين بين. في البداية، ظننت أنني سجلت هدفًا لأنهم كانوا غايةً في اللطف، فلم يلتفتوا لظهوري عندما اتجهت إلى طاولتهم. وكلهم ألقوا عليَّ التحية، مع أنني رأيتهم يتبادلون النظرات. لكن ما حدث بالأمس تكرر بعد ذلك: نُودي على طاولتنا. قاموا ليأخذوا الغداء، ثم توجهوا إلى طاولة جديدة في آخر الكافتيريا.

لسوء الحظ، رأت الأستاذة «جي»، المُدرِّسة المشرفة على الغداء في ذاك اليوم، ما حدث، فطاردتهم.

وبَّخَتْهم بصوت عالٍ قائلة: «هذا غير مسموح يا أولاد! مَدْرستنا ليست من هذه المدارس. عُودوا إلى طاولتكم حالًا.»

آه، عظيم. وكأن ذلك سيساعدني. قبل أن يُجبروا على الجلوس إلى الطاولة، قمت حاملًا صِينيَّتي ومضيتُ مُسرعًا جدًا. سمعت الأستاذة جي تنادي باسمي، لكنني تظاهرت بأنني لم أسمع، وأكملت السير إلى الطرف الآخر من الكافتيريا، خلف منضدة توزيع الغداء.

«اجلس معنا يا جاك.»

كان صوت سمر. كانت تجلس مع أوجست على طاولتهما، وكانا يُلَوِّحان لي.

لماذا لم أجلس مع أوجست في أول أيام الدراسة ؟

طيب، أنا منافق جدًّا. أعرف. في أول أيام الدراسة، أتذكر أنني رأيت أوجست في الكافتيريا. كان الجميع ينظرون إليه. يتكلمون عنه. في ذاك الوقت، لم يكن أحد قد اعتاد على وجهه أو حتى عرف أنه سيأتي إلى مدرسة بيتشر. وهكذا كانت رؤيته هناك في أول أيام الدراسة صدمة كبيرة بالنسبة إلى الكثيرين، وكان معظم التلاميذ خائفين من الاقتراب منه.

لذا عندما رأيته يدخل الكافتيريا أمامي، عرفت أن أحدًا لن يجلس معه، لكنني لم أستطع أن أُجبِر نفسي على الجلوس معه. كنت قد رافقته طيلة الصباح، حيث كان لدينا الكثير من الحصص المشتركة، وأظن أنني كنت أريد بعض الوقت العادي برفقة أولاد آخرين. وهكذا عندما رأيته يتجه نحو طاولة على الجانب الآخر من منضدة توزيع الغداء، تعمَّدت الاتجاه إلى أبعد طاولة عنه. جلست مع أيزيا ولوكا مع أنني لم أكن قد قابلتهما من قبل، وتكلَّمنا عن البيسبول طوال الوقت، ولعبتُ معهما بيسبول في الفسحة. وقد أصبحا رفيقَي طاولة غدائي من وقتها.

سمعت أن سمر جلست مع أوجست، وهو ما أدهشني

لأنني كنت أعرف يقينًا أنها لم تكن من التلاميذ الذين تكلَّم معهم الأستاذ توشمان عن مصاحبة أوجي. وهكذا عرفت أنها تفعل ذلك فقط من باب اللطف، وفكرت أن تلك شجاعة كبيرة منها.

وهكذا، وجدتني أجلس مع سمر وأوجست، وقد تعاملا معي بلُطف شديد كالمعتاد. أطلعتهما على كل ما قالته لي تشارلوت، باستثناء ذلك الجزء الكبير عن كوني «انهرت» تحت ضغط مصاحبة أوجي، أو الجزء المتعلِّق بوالدة جوليان حين قالت إن أوجي من ذوي الاحتياجات الخاصة، أو الجزء الخاص بمجلس إدارة المدرسة. أظن أن كل ما أخبرتُهما به حقًّا، هو أن جوليان أقام حفلًا كبيرًا واستطاع أن يُؤَلِّب الصف كله عليَّ.

قلت: «إنه إحساس غريب جدًّا ألا يتكلم الناس معك، وأن يتظاهروا بأنك غير موجود.»

ابتسم أوجي. وقال ساخرًا: «فعلًا؟ أهلًا بك في عالمي!»

صفوف

قالت سمر في اليوم التالي على الغداء: «إذًا ها هي قائمة رسمية بالصفوف المختلفة.»

أخرجت ورقة مطوية وفتحتها. كان بها ثلاثة أعمدة من الأسماء.

صف جاك	صف جوليان	محايدون
جاك	مايلز	ماليك
أوجست	هنري	ريمو
ريد	أموس	جوزيه
ماكس جي	سايمون	ليف
ماكس دبليو	تريستان	رام
	بابلو	إيفان
	نينو	راسيل
	أيزيا	
	لوكا	
	جايك	
	تولاند	
	رومان	
	بين	
	إيمانويل	
	زيكي	
	توماسو	

قال أوجي، وهو ينظر من فوق كتفي وأنا أقرأ القائمة: «من أين حصلت على هذا؟»

ردت سمر بسرعة: «تشارلوت وضعتها. أعطتها لي في الحصة السابقة. قالت إنها ترى أنك يجب أن تعرف مَن في صفِّك يا جاك.»

قلت: «نعم، ليسوا كثيرين، هذا مؤكد.»

قالت: «ريد في جانبك، وماكس وماكس.»

«عظيم، معي مهاويس المذاكرة.»

قالت سمر: «لا تكن خسيسًا. أظن أن تشارلوت معجبة بك، بالمناسبة.»

«نعم، أعرف.»

«هل ستطلب منها الخروج معك؟»

«هل تمزحين؟ لا أستطيع، الآن والجميع يتعاملون معي وكأنني مُصاب بالطاعون.»

فور أن قُلتها، أدركت أنني ما كان يجب أن أقولها. مرت لحظة صمت مرتبكة، ونظرتُ إلى أوجي.

قال: «لا بأس. عرفت بالأمر.»

قلت: «آسف يا صاحبي!»

قال: «لكنني لم أعرف أنهم يسمونه «الطاعون». ظننت أنه مثل «لمسة الجبن» أو شيء من هذا القبيل.»

أومأت برأسي: «آه، نعم، مثلما في فيلم «مذكرات طالب».»

قال مازحًا: «الحقيقة أن الطاعون اسم ألطف. وكأن الشخص مُعرَّض لالتقاط عدوى «الموت الأسود للقبح».»

قالها ورسم علامتَي اقتباس بإصبعيه.

قالت سمر: «رأيي أنه أمر فظيع.»

لكن أوجي هز كتفيه وهو يشفط شفطة كبيرة من علبة العصير في يده.

قلت: «على أية حال، أنا لن أطلب من تشارلوت أن تخرج معي.»

ردت: «ماما تعتقد أننا جميعًا صغار على المواعدة على أية حال.»

قلت: «ماذا لو طلب ريد أن تخرجي معه. هل ستخرجين؟»

رأيت الدهشة على وجهها. قالت: «لا!»

ضحكتُ: «أنا أسأل فقط.»

هزَّت رأسها وابتسمت: «لماذا؟ ماذا تعرف؟»

قلت: «لا شيء! أنا أسأل فقط.»

قالت: «الحقيقة أنني أتفق مع ماما. أنا أرى فعلًا أننا صغار على المواعدة. أقصد، لا أرى داعيًا للاستعجال.»

قال أوجست: «نعم، أنا أوافق. وهو أمر يدعو للأسى، تعرفين، مع هذا الكم من البنات اللاتي يفرضن أنفسهن عليَّ.»

قالها بطريقة مَرِحة، حتى إن الحليب الذي كنت أشربه خرج من أنفي عندما ضحكت، وهو ما جعلنا جميعًا ننفجر بالضحك.

منزل أوجست

كنا في منتصف يناير، ولم نقرر بعدُ مشروع مَعرِض العلوم الذي سنعمل عليه. أظن أنني ظللت أؤجل الأمر لأنني لم أرغب في عمله. أخيراً، قال لي أوجي: «يا صاحبي، يجب علينا أن نُنجز الأمر.»

وهكذا ذهبنا إلى منزله بعد المدرسة.

كنت مُتوترًا بحق؛ لأنني لم أعرف إذا كان أوجست قد أخبر والديه بما أصبحنا نسميه الآن «حادث الهالووين» أم لا. واتضح أن الأب لم يكن في المنزل أصلًا، وأن الأم عندها مأمورية خارج المدينة. وتأكدت من الثانيتين اللتين قضيتهما في الكلام معها أن أوجي لم يذكر لها شيئًا عن الأمر. كانت شديدة اللطف والوُدِّ تجاهي.

عندما دخلت إلى غرفة أوجي لأول مرَّة، وجدتني أقول: «ياه يا أوجي، أنت مُدمن «حرب النجوم»، وحالتك خطيرة!»

كانت لديه رفوف مليئة بنماذج ومُنَمْنَمات «حرب النجوم»، وملصق هائل لـ«الإمبراطورية ترد الهجوم» على الحائط.

ضحك وقال: «أعرف، أليس كذلك؟»

جلس على كرسي دَوَّار بجوار مكتبه، وارتميت أنا على كرسي وَثِيرٍ من ذلك النوع المَحشُو بِكُرَيَّات الفِلِّين في الركن. وفي تلك اللحظة دخل كلبه الغرفة يتهادى، واتجه نحوي مباشرة.

قلت، وأنا أتركه يتشمم يدي: «كان على بطاقة المعايدة التي أرسلتها إليّ!»

صحّح لي: «كانت. دايزي. يُمكنك أن تربت عليها. إنها لا تعضُ.»

عندما شرعت أربت عليها، انقلبت على ظهرها.

قال أوجست: «تريدك أن تَحكّ بطنها.»

قلت، وأنا أحك معدتها: «طيب، هذه أجمل كلبة رأيتها في حياتي.»

«أعرف، أليس كذلك؟ إنها أفضل كلبة في العالم. ألستِ كذلك يا فتاتي؟»

فور أن سمعت الكلبة صوت أوجي يقول ذلك، بدأت تهز ذيلها واتجهت إليه.

كانت تلعق وجهه وهو يقول لها: «مَن هي فتاتي الصغيرة؟ مَن هي فتاتي الصغيرة؟»

قلت: «أتمنى لو كان عندي كلب. والداي يقولان إن شقتنا صغيرة جدًا.»

أخذت أجول ببصري في الغرفة، بينما قام هو بتشغيل الكمبيوتر.

«آه، عندك إكس بوكس ٣٦٠، هل يمكننا أن نلعب؟»

«يا صاحبي، نحن هنا لنعمل على مشروع مَعرِض العلوم.»

«هل عندك لعبة «هالو»؟»

«طبعًا عندي لعبة «هالو».»

«من فضلك، هل يمكن أن نلعب؟»

كان قد دخل على موقع مدرسة بيتشر، وأخذ يُطالع قائمة مشروعات مَعرِض العلوم على صفحة الأستاذة روبين. قال: هل ترى مِن عندك؟

تنهَّدت وذهبت كي أجلس على كرسي صغير بجواره.

قلت: «جهاز «آي ماك» لطيف.»

«ما نوع الكمبيوتر الخاص بك؟»

«يا صاحبي، أنا ليس عندي غرفة خاصة بي حتى، لا أقول كمبيوتر. والداي عندهما جهاز «ديل» قديم، وقد توفَّاه الله فعليًّا!»

قال، وهو يُدير الشاشة ناحيتي حتى أنظر معه: «طيب، ما رأيك في هذا المشروع؟»

طالعت الشاشة سريعًا، فبدأت عيناي تَغشيان.

قال: «صناعة ساعة شمسية. هذا يبدو لطيفًا.»

أرجعت ظهري إلى الوراء: «ألا يُمكننا أن نصنع بُركانًا وحسب؟»

«الجميع سيصنعون براكين.»

قلت، وأنا أربت على دايزي ثانية: «آه، لأنها سهلة.»

«ماذا عن: كيف تحول المِلح الإنجليزي إلى بلورات؟»

أجبت: «يبدو مُملًا. إذًا، لماذا أطلقتم عليها اسم دايزي؟»

لم يرفع عينيه عن الشاشة. قال: «أختي هي التي أسمَتْها. أنا

أردت أن أسميها «دارث». الحقيقة أن اسمها الرسمي هو «دارث دايزي»، لكننا لا نناديها بهذا أبدًا.»

قلت للكلبة، التي استدارت على ظهرها ثانية حتى أحكَّ بطنها: «دارث دايزي! هذا مضحك! أهلًا يا دارث دايزي!»

قال أوجست، وهو يشير إلى صورة على الشاشة تُظهر حبات بطاطس تخرج منها أسلاك: «طيب، هذا هو ما نبحث عنه. ما رأيك في صناعة بطارية حيوية من البطاطس. هذا أمر لطيف. مكتوب هنا أن بإمكانك إضاءة مصباح بها. يُمكننا أن نسميه «مصباح البطاطس» أو شيئًا من هذا القبيل. ما رأيك؟»

«يا صاحبي، هذا يبدو صعبًا جدًّا. أنت تعرف أنني فاشل في العلوم.»

«اخرس. أنت لست فاشلًا!»

«بل فاشل! حصلت على أربع وخمسين درجة في آخر امتحان. أنا فاشل في العلوم.»

«لا، لست فاشلًا! وهذا فقط لأننا كنا متخاصمَين ولم أكن أساعدك. أستطيع أن أساعدك الآن. هذا مشروع جيد يا جاك. يجب أن نقوم به.»

هززت كتفيَّ: «طيب، أيًّا كان.»

عندها سمعنا طَرقًا على الباب، وأدخلتْ صَبِيَّةٌ ذات شعر داكن طويل مُجعَّد رأسَها من الباب. لم تتوقع أن تراني.

قالت لنا: «آه، أهلًا.»

قال أوجست، وهو يعود للنظر إلى شاشة الكمبيوتر: «أهلًا يا فيا. فيا، هذا جاك. جاك، هذه فيا.»

قلت، وأنا أومئ بتحية: «أهلًا.»

قالت، وهي تنظر إليَّ بحرص: «أهلًا.»

عرفتُ لحظة نَطَق أوجي باسمي أنه كان قد أخبرها بالأشياء التي قلتها عنه. استطعت أن أتبين ذلك من نظرتها إليّ. الحقيقة أن نظرتها إليَّ جعلتني أُفكِّر أنها تتذكرني من ذاك اليوم أمام مطعم «كارفل» في شارع أمسفورت قبل سنوات طويلة.

قالت: «أوجي، عندي صديق أريدك أن تقابله، طيب؟ سيأتي في خلال دقائق.»

شاگسها أوجست: «هل هو حبيبك الجديد؟»

ركلت فيا كرسيه من أسفل، وقالت: «كن لطيفًا.»

ثم غادرت الغرفة.

قلت: «يا صاحبي، أختك جميلة!»

«أعرف.»

«إنها تكرهني، صح؟ هل حكيت لها عن حادث الهالووين؟»

«نعم.»

«نعم تكرهني، أم نعم حكيت لها عن الهالووين؟»

«نعم الاثنان!»

الحبيب

بعدها بدقيقتين عادت الأخت مع شاب اسمه جوستن. بدا شابًا لطيفًا؛ شعرًا طويلًا، نظارة صغيرة مُدوَّرة. كان يحمل حقيبة فِضيَّة لامعة، كبيرة وطويلة، تنتهي بطرَف مُدبَّب.

قالت فيا: «جوستن، هذا أخي الأصغر أوجست، وهذا جاك.»

قال جوستن وهو يصافحنا: «أهلًا يا شباب.»

بدا عليه بعض التوتر. أظن أن ذلك لأنه يقابل أوجست لأول مرَّة. أحيانًا أنسى أي صدمة تُصيبك حين تقابله لأول مرَّة.

«غرفة لطيفة.»

سأل أوجي بشقاوة: «هل أنت حبيب فيا؟»

أنزلت أخته طاقيته على وجهه.

قلت: «ماذا في حقيبتك؟ بندقية آلية؟»

أجاب الحبيب: «ها! هذا ظريف. لا، إنها، آه... كمان.»

قالت فيا: «جوستن عازف كمان، وهو في فريق يلعب موسيقى «الزيدكو».»

قال أوجي، وهو ينظر إليَّ: «وما هي موسيقى الزيدكو تلك؟»

قال جوستن: «نوع من الموسيقى، مثل الكريولي.»

قلت: «وما هي الكريولي؟»

قال أوجي: «يجب أن تقول للناس إنها بندقية آلية. بتلك الطريقة لن يعبثوا معك.»

قال جوستن، وهو يومئ برأسه ويدسُّ شعره خلف أذنيه: «ها، أظنك على حق. كريولي هي الموسيقى التي يعزفونها في لويزيانا.»

سألته: «هل أنت من لويزيانا؟»

أجاب، وهو يرفع نظارته: «لا، مم. أنا من بروكلن.»

لا أعرف لماذا جعلني هذا أشعر برغبة في الضحك.

قالت فيا، وهي تشده من يده: «هيا يا جوستن، هيا نذهب إلى غرفتي.»

قال: «طيب، أراكم لاحقًا يا شباب. سلام.»

«سلام!»

«سلام!»

فور أن غادر الغرفة، نظر إليَّ أوجست وهو يبتسم.

قلت: «أنا من بروكلن.»

وانفجرنا نحن الاثنان في ضحك هستيري.

الجزء الخامس



جوستن

«أحيانًا أظن أن رأسي كبير جدًّا

لأنه مليء بالأحلام.»

- جون ميريك في مسرحية «الرجل الفيل» لبرنارد بوميرانس

شقيق أوليفيا

أول مرّة أقابل شقيق أوليفيا الأصغر، يجب أن أعترف أنها كانت مفاجأة.

ما كان يجب أن أُفاجأ، بالطبع. كانت أوليفيا قد أخبرتني عن «حالته»، بل ووصفت لي شكله. لكنها أيضًا تكلمت عن الجراحات التي أُجريت له على مر السنين، لذا أظنني افترضت أن شكله الآن أصبح طبيعيًا أكثر. مثل الطفل الذي يولد بحَلْق مشقوق وتُجرى له جراحة تجميل لإصلاحه، فلا تعود تعرف ذلك إلا من خلال ندبة صغيرة فوق شفته. أظنني تصورت أن شقيقها سيكون عنده بعض الندوب هنا وهناك. لكن ليس هكذا. بالتأكيد لم أكن أتوقّع أن أرى هذا الولد الصغير الذي يضع طاقية كرة سلة على رأسه ويجلس أمامي الآن.

الواقع أن هناك ولدين يجلسان أمامي: واحدًا له مظهر عادي جدًا بشعر أشقر مجعَّد اسمه جاك، والثاني هو أوجي.

أحب أن أعتقد أنني قادر على إخفاء دهشتي. أتمنى أن أكون كذلك. لكن الدهشة واحدة من المشاعر التي يصعب تزييفها، سواء حاولت أن تُبدي دهشة وأنت غير مندهش، أو حاولت أن تُخفي دهشتك حين تندهش.

صافحته، وصافحت الولد الآخر. لا أريد أن أركِّز على وجهه

قلت: «غرفة لطيفة.»

يسألني: «هل أنت حبيب فيا؟»

أظن أنه يبتسم.

تشد أوليفيا طاقية كرة السلة على وجهه.

يسألني الطفل الأشقر: «هل هذه بندقية آلية؟»

وكأنني لم أسمع هذا من قبل، ونتكلم عن موسيقى الزيدكو قليلًا، ثم تتناول فيا يدي وتقودني خارج الغرفة. فور أن نُغلق الباب وراءنا، نسمعهما يضحكان.

يتغنى أحدهما: «أنا من بروكلن!»

تُقَلِّب أوليفيا عينيها وهي تبتسم. تقول: «هيا نذهب إلى غرفتي.»

نتواعد منذ شهرين الآن. عرفت لحظة رأيتها، لحظة أن جلست إلى طاولتنا في الكافتيريا، أنني معجب بها. لم أستطع أن أرفع عيني عنها. جميلة بحق، ببشرة سمراء وأكثر عينين زرقة رأيتهما في حياتي. في البداية تصرفَت وكأنها تريدنا أن نصبح أصدقاء فحسب. أعتقد أنها تعطي هذا الانطباع من دون أن تقصد حتى. ابق بعيدًا. لا تفكر في المحاولة. لا تتدلل مثل البنات الأخريات. تنظر في عينيك مباشرة عندما تُكلِّمك، وكأنها تتحداك. لذا ظللت أنظر في عينيها مباشرة أنا الآخر، وكأنني أقبل التحدي، ثم طلبت منها أن تخرج معي، ووافقت، وكان أمرًا رائعًا.

إنها فتاة رائعة، وأنا أحب رفقتها.

لم تخبرني بأمر أوجست حتى موعدنا الثالث. أظن أنها استخدمت عبارة: «خلل في عظام الوجه» لوصف وجهه. أو ربما: «شذوذ في عظام الوجه». مع ذلك، فأنا أعرف الكلمة التي لم تستخدمها يقينًا، «تَشوُّه»، لأن تلك الكلمة كانت لتعلق في ذهني.

تسألني بتوتر فور أن ندخل غرفتها: «إذًا، ما رأيك؟ هل أنت مصدوم؟»

أكذب عليها: «لا.»

تبتسم وتشيح بوجهها: «أنت مصدوم.»

أؤكد لها: «أنا لست مصدومًا. إنه مثلما قلتِ.»

تومئ برأسها وترتمي على سريرها. أمر لطيف أنها لا تزال تحتفظ بالعديد من دُمى الحيوانات على سريرها. تتناول إحداها؛ دبًّا قُطبيًّا، ودون تفكير تضعه في حِجرها.

أجلس على الكرسي الدوَّار بجوار مكتبها. غرفتها تلمع من النظافة.

تقول: «عندما كنت صغيرة، كثيرًا ما كنت ألعب مع أطفال، وعندما أدعوهم للعب ثانية لا يرجعون. الكثير من الأطفال. بل كان لي أصدقاء لا يحضرون أعياد ميلادي لأنه سيكون حاضرًا. لم يخبروني بذلك صراحة قَطُّ، لكن كلامهم كان يَصِلُني. بعض الناس لا يعرفون كيف يتعاملون مع أوجي وحسب، تعرف؟»

أومئ برأسي.

تضيف: «لا يعرفون أنهم يتصرفون بخِسة. هم فقط خائفون. أقصد، دعنا نواجه الحقيقة، فوجهه مُخيف قليلًا، صح؟»

أجبتها: «أعتقد.»

تسألني برِقة: «لكن أنت ليست لديك مشكلة معه؟ أنت لست مرعوبًا؟ لست خائفًا؟»

أبتسم. أنا لستُ مرعوبًا أو خائفًا.

تومئ وتنظر إلى الدب القطبي في حِجرها. لا أستطيع أن أحدد ما إذا كانت تُصدِّقني أم لا. لكنها تعطي الدُّب القُطبي قُبلة على أنفه وترميه إليّ بابتسامة صغيرة. أعتقد أن ذلك يعني أنها تُصدِّقني، أو على الأقل تريد أن تُصدِّقني.

عيد الحب

أهديت أوليفيا قلادة على شكل قلب في عيد الحب، وأهدتني هي حقيبة صنعتها بنفسها من أقراص كمبيوتر مَرِنة قديمة. لطيف جدًا أنها تصنع أشياء مثل هذه. تصنع أقراطًا من أجزاء لوحات إلكترونية. فساتين من التيشيرتات. حقائب من قماش الجينز القديم. إنها مُبدعة. أقول لها إنها يجب أن تُصبح فنانة، لكنها تريد أن تُصبح عالمة. عالمة جينات على وجه الخصوص. أظنها تريد أن تكتشف علاجات لمن هم مثل أخيها.

نُخطط لكيف أقابل والديها أخيرًا. مطعم مكسيكي في شارع أمسفورت بالقرب من منزلها ليلة السبت.

أظل مُتوترًا طوال النهار، وعندما أتوتر تختلج عضلات وجهي بشكل لا إرادي. أقصد، عضلات وجهي تختلج طوال الوقت، لكن ليس مثلما كانت في طفولتي؛ لم تعد أكثر من بضع رمشات قوية الآن، انقباضًا في عضلات الرأس من حين إلى آخر. لكن عندما أتوتر تسوء الحالة - وأنا متوتر بالتأكيد من مقابلة أُسرتها.

أجدهم في انتظاري عندما أصل إلى المطعم. يقف الأب ويصافحني، وتعطيني الأم حضنًا. أحَيِّي أوجي بأن أضرب قبضتي في قبضته وأُقبل أوليفيا على خدها قبل أن أجلس.

«سعداء بمقابلتك يا جوستن، لقد سمعنا عنك كثيرًا.»

كان والداها ألطف ما يكون. جعلاني أشعر بالراحة على الفور. النادل يُحضر لنا قوائم الطعام، وألاحظ تعبير وجهه لحظةَ تقع عيناه على أوجست. لكنني أتظاهر بأنني لم ألاحظ. أظن أننا جميعًا نتظاهر بأننا لا نلاحظ بعض الأشياء هذه الليلة. النادل. اختلاج عضلات وجهي. الطريقة التي يسحق بها أوجست رقائق الذرة على الطاولة ثم يغترف الفتات بالملعقة ويضعه في فمه. أنظر إلى أوليفيا فتبتسم لي. إنها تعرف. إنها ترى وجه النادل. إنها ترى اختلاج عضلات وجهي. أوليفيا فتاة ترى كل شيء.

نقضي العشاء بأكمله ونحن نتكلم ونضحك. يسألني والدَا أوليفيا عن موسيقاي، كيف بدأت العزف على الكمان وأشياء من هذا القبيل. وأُخبرهما كيف كنت أعزف على الكمان الكلاسيكي قبل أن تجذبني موسيقى جبال «الأبالاش» الشعبية ثم موسيقى الزيدكو. وهما ينصتان لكل كلمة وكأنهما مُهتمّان حقًّا. يطلبان مني أن أُخبرهما عندما تلعب فرقتي في حفلة المرّة المقبلة حتى يحضرا ويسمعا لي.

لست معتادًا على كل هذا الاهتمام، لكي أكون صادقًا. والداي ليس لديهما فكرة عما أريد أن أفعله بحياتي. لا يسألان أبدًا، ولا نتكلم هكذا أبدًا. لا أظن أنهما يعرفان أصلًا أنني استبدلت كمان الباروك الخاص بي بآلة «هاردنجر» ذات الأوتار الثمانية قبل عامين.

بعد العشاء نعود إلى منزل أوليفيا لتناول الآيس كريم. تُحَيِّينا كلبتهم عند الباب، كلبة عجوز، شديدة اللطف. مع ذلك، كان

قَيْؤها منتشرًا في المدخل كله. تهرع والدة أوليفيا لتُحضر مناديل ورقية، بينما يرفع الوالد الكلبة وكأنها طفلة. يقول: «ما الأمر يا فتاتي الكبيرة؟»

وتبدو الكلبة وكأنها في الجنة. لسانها يتدلى خارج فمها، وذيلها يهتز، وسيقانها مُعلَّقة في الهواء بزوايا غريبة.

تقول أوليفيا: «بابا احكِ لجوستن كيف جئت بدايزي.»

يقول أوجي: «نعم!»

يبتسم الأب ويجلس في كرسي والكلبة لا تزال محمولة كطفل بين ذراعيه. واضح أنه حكى تلك القصة كثيرًا، وأنهم يحبون سماعها.

يقول: «كنت عائدًا إلى المنزل من المترو في أحد الأيام، فرأيت رجلًا مشرَّدًا لم أره في الحي من قبل وهو يدفع كلبةً هجينًا رضيعةً في عربة أطفال، يتوجه نحوي ويقول: يا سيدي، هل تريد شراء كلبتي؟ ومن دون تفكيرٍ أقول طبعًا كم تريد؟ فيقول: عشرة دولارات، فأعطيه العشرين دولارًا التي كانت في محفظتي ويعطيني الكلبة. أقول لك يا جوستن، كانت رائحتها أسوأ من أي شيء شممته في حياتك! لا أستطيع أن أصف لك كم كانت نَتِنة! وهكذا أخذتها مباشرة من هناك إلى الطبيب البيطري في آخر الشارع ثم عدت بها إلى البيت.»

تقاطعه الأم، وهي تُنظِّف الأرضية: «بالمناسبة، لم يشغل نفسه بالاتصال بي أولًا، ليرى إن كنت أوافق على أن يعود إلى البيت بكلبة مُشرَّدة.»

تنظر الكلبة إلى الأم عندما تقول هذا، وكأنها تفهم كل شيء

يقوله الناس عنها. إنها كلبة سعيدة، وكأنها تعلم أن يوم مصادفة تلك الأسرة لها كان يوم سَعْدها.

أعرف تقريبًا شعورها. أنا أحب أسرة أوليفيا، فهم يضحكون كثيرًا.

أسرتي ليست من هذا النوع على الإطلاق. ماما وبابا طُلِّقا عندما كنت في الرابعة، وكلٌّ منهما يكره الآخر جدًّا. نشأت وأنا أقضي نصف الأسبوع في شقة بابا في تشيلسي والنصف الآخر في منزل ماما في بروكلن هايتس. عندي أخ غير شقيق أكبر مني بخمس سنوات ويكاد لا يعرف بوجودي. منذ طفولتي المبكرة، ظللت أشعر أن والديَّ لا يطيقان صبرًا لليوم الذي أكبر فيه وأستطيع رعاية نفسي. «يمكنك أن تذهب إلى المتجر بمفردك». «ها هو مفتاح الشقة». إنه أمر عجيب أن توجد كلمة مثل «الحماية المفرطة» لوصف سلوك الآباء تجاه أبنائهم، ولا توجد كلمة عكسها. أية كلمة تستخدمها لوصف الآباء الذين لا يحمون أبناءهم بما يكفي؟ الحماية الناقصة؟ التجاهل؟ الانشغال بالذات؟ الطيش؟ أم كل ما سبق؟

والدَا أوليفيا يتبادلان كلمة «أحبك» طوال الوقت.

لا أتذكر آخر مرَّة سمعت تلك الكلمة من أي شخص في أسرتي.

عندما حان وقت رحيلي، كانت كل اختلاجاتي اللاإرادية قد توقفت.

بلدتنا

سنعرض مسرحية «بلدتنا» في العرض الصيفي لهذا العام. تتحداني أوليفيا أن أحاول الحصول على دور البطولة، دور مدير خشبة المسرح، وبشكل ما أحصل عليه. رمية من غير رامٍ. لم يسبق لي أن حصلت على دور البطولة في أي شيء من قبل. أقول لأوليفيا إنها تجلب لي الحظ. لسوء الحظ، لا تحصل هي على البطولة النسائية، دور «إميلي جيبس»، بل تحصل عليها الفتاة ذات الشعر الوردي المسماة «ميرندا». تحصل أوليفيا على دور صغير إضافة إلى كونها ممثلة بديلة لدور إميلي. الحقيقة أنني مُحبَط أكثر من أوليفيا. أما هي فيبدو وكأن همًّا قد انزاح عنها. تقول: «لا أُحب أن يحدق الناس فيَّ»، وهو قول غريب أن يصدر من فتاة بهذا الجمال. جزء مني يعتقد أنها ربما تكون قد تعمَّدت الإخفاق في تجربة الأداء.

العرض الصيفي في نهاية شهر أبريل. ونحن الآن في منتصف مارس، أي أن أمامي أقل من ستة أسابيع لحِفظ الدور. إضافة إلى وقت البروفات. إضافة إلى التمرُّن مع فرقتي الموسيقية. إضافة إلى امتحانات آخر السنة. إضافة إلى قضاء الوقت مع أوليفيا. ستكون ستة أسابيع عصيبة، هذا مؤكَّد. الأستاذ «دافنبورت»، مُدرس

الدراما، لديه هوس بالأمر كله بالفعل، وبانتهاء المسرحية سنكون قد انتهينا جميعًا إلى الجنون من دون شك. وقد سمعت شائعات تقول إنه كان يُخطط لمسرحية «الرجل الفيل»، لكنه غيّر رأيه إلى «بلدتنا» في آخر لحظة، وتَسبَّب هذا التغيير في اقتطاع أسبوع من جدول البروفات الخاص بنا.

يراودني القلق من الجنون المنتَظَر في الشهر والنصف المقبل.

خنفساء

أنا وأوليفيا جالسان على سلالم مدخل بيتها، تساعدني على حفظ دوري. إنها ليلة دافئة من ليالي مارس، وكأننا في الصيف. السماء لا تزال زرقاء ساطعة، لكن الشمس منخفضة والأرصفة مغطاة بِوَخطات من الظلال المستطيلة.

ألقي سطوري: «أجل، لقد طلعت الشمس أكثر من ألف مرّة، صيفًا بعد صيف، وشتاءً بعد شتاء، راحت تفلق الجبال قليلًا قليلًا، والأمطار كسحت بعضًا من الطمي. بعض الأطفال الذين لم يكونوا قد وُلدوا ساعتها، أصبحوا قادرين على نطق جمل مكتملة، وعدد من الأشخاص ظنوا أنهم لا يزالون يافعين ومفعَمين بالنشاط، لكنهم فوجئوا بعجزهم عن أن يقفزوا صاعدين قلبة سلم واحدة مثلما اعتادوا، من دون أن يخفق قلبهم قليلًا...»

هززت رأسي. لا أستطيع أن أتذكر البقية.

لقنتني أوليفيا، وهي تقرأ من النص: «كل ذلك يحدث في ألف يوم.»

أقول، وأنا أهز رأسي: «صح، صح، صح. ذاكرتي ممسوحة يا أوليفيا. كيف سأتذكر كل تلك السطور؟»

تجيبني بثقة: «سوف تتذكر.»

تميل وتلتقط بين يديها خنفساء تظهر فجأة. تقول، وهي تفتح يدها العليا ببطء لتكشف الخنفساء التي تسير على كف يدها الأخرى: «هل ترى؟ هذه علامة حظ.»

أمزح قائلًا: «علامة حظ أم علامة حَرٍّ؟»

ترد، وهي تراقب الخنفساء التي تزحف صاعدة إلى معصمها: «علامة حظ بالطبع. لا بد أن هناك شيئًا عن تمني أمنية عند ظهور الخنفساء. أنا وأوجي كنا نفعل ذلك مع الفراشات المضيئة عندما كنا صغارًا.»

تغطي الخنفساء بيدها الأخرى ثانية: «هيا، تَمَنَّ أمنية. أغمض عينيك.»

أنصاع وأغمض عيني. تمر لحظة طويلة، ثم أفتحهما.

تسألني: «هل تمنَّيت أمنية؟»

«نعم.»

تبتسم، تفتح يديها، فتفرد الخنفساء جناحيها وترفرف بعيدًا، في خروج مسرحيٍّ مضبوط.

أسألها، وأنا أُقبِّلها: «ألا تريدين معرفة ما تمنَّيت؟»

تجيب بخجل: «لا.» وهي ترفع رأسها إلى السماء التي كانت، في تلك اللحظة بالذات، في نفس لون عينيها.

تقول بغموض: «أنا أيضًا تمنَّيت أمنية.»

لكنها لديها أمنيات كثيرة، وليس عندي فكرة عما تفكر فيه.

موقف الحافلات

وأنا أُوَدِّع أوليفيا، نزلت والدتها، وأوجي، وجاك، ودايزي، على سلالم المدخل. وسادت حالة من الارتباك الخفيف، حيث إننا كنا في مُنتصف قُبلة طويلة لطيفة.

تقول الأم: «أهلًا يا شباب»، وهي تتظاهر أنها لم ترَ شيئًا، لكن الولدين كانا يضحكان.

«أهلًا يا سيدة بولمان.»

تقول ثانية: «من فضلك يا جوستن، قل لي يا إيزابيل.»

تلك ثالث مرّة تطلب مني ذلك، يجب أن أبدأ في مناداتها باسمها.

أقول، وكأنما لأشرح لها: «أنا عائد إلى المنزل.»

تقول، وهي تتبع الكلبة مُمسِكةً بجريدة: «آه، هل ستتجه إلى المترو؟ هل يمكنك أن ترافق جاك إلى موقف الحافلات؟»

«لا مشكلة.»

تسأله الأم: «هل يناسبك هذا يا جاك؟»

فيهز كتفيه، فتقول: «جوستن، هل يمكنك أن تظل معه حتى تأتي الحافلة؟»

«بالطبع!»

نتبادل جميعًا عبارات الوداع. تغمز لي أوليفيا.

يقول جاك ونحن في طريقنا: «لست مُضطرًا للبقاء معي. أنا أستقل الحافلة وحدي طوال الوقت. والدة أوجي تخاف أكثر من اللازم.»

صوته خفيض وأجَش، مثل صوت شاب خشن. منظره يُشبه أحد أولئك الأشقياء الصغار في الأفلام الأبيض والأسود القديمة، لا ينقصه سوى الـ«بيريه» على رأسه والسروال القصير.

نصل إلى موقف الحافلات، فنجد الجدول يُعلن أن الحافلة ستصل بعد ثماني دقائق. أقول له: «سأنتظر معك.»

يهز كتفيه: «كما تريد. هل تُسَلِّفني دولارًا؟ أريد أن أشترى علكةً.»

أُخرِج دولارًا من جيبي وأراقبه وهو يقطع الشارع إلى محل البقالة على الناصية. يبدو أصغرَ بعض الشيء من أن يسير هكذا بمفرده. ثم أفكر أنني كنت أركب المترو وحدي عندما كنت في سِنه. يومًا ما سأكون أبًا يحمي أولاده حماية مفرطة. أعرف ذلك. أولادي سيعرفون أنني أهتم بأمرهم.

أنتظر هناك دقيقة أو اثنتين قبل أن ألاحظ ثلاثة صِبية يسيرون في الشارع قادمين من الاتجاه الآخر. يمرون من أمام محل البقالة، لكن أحدهم ينظر بالداخل ويَلكز الآخرَين، فيرجعون جميعًا وينظرون إلى الداخل. أستطيع أن أرى أن نواياهم ليست طيبة، كلٌ منهم يدفع الآخر بمرفقه، ويضحك. أحدهم في طول

جاك، لكن الآخرَين يبدوان أكبر كثيراً، وكأنهما مراهقان. يختبئان خلف رفّ الفاكهة أمام المحل، وعندما يخرج جاك، يتبعونه، وهم يُقلدون أصوات التّقيؤ. يستدير جاك تلقائيًا عند الناصية ليرى مَن هؤلاء، فيفرون هاربين، وهم يضربون أكُفّهم بعضها ببعض ويضحكون. مُغَفَّلون صغار.

يقطع جاك الشارع وكأن شيئًا لم يحدث، ويقف إلى جواري عند موقف الحافلات، ينفخ فقّاعة.

أقول أخيراً: «أصدقاؤك؟»

يقول: «ها.»

يستدير ليبتسم، لكنني أرى أنه مُنزعج.

يقول: «بعض المغفلين من مدرستي. فتى اسمه جوليان واثنان من رجاله، هنري ومايلز.»

«هل يضايقونك هكذا كثيراً؟»

«لا، لم يفعلوا ذلك من قبل. لن يفعلوا ذلك في المدرسة وإلا فسيُطردون. جوليان يعيش على بُعد شارعين من هنا. لذا أظن أن الحظ السيئ هو الذي جعلني أقابله.»

أومأت برأسي: «آه، طيب.»

يؤكد لي: «الأمر بسيط.»

ننظر كلانا تلقائيًا في شارع أمسفورت لنرى إذا كانت الحافلة قادمة.

يقول بعد دقيقة، كما لو كان ذلك يشرح كل شيء: «نحن فيما يُشبه الحرب.»

ثم يشد ورقة مكرمَشة من جيب بنطاله الجينز ويعطيها لي. أفردُها، فأجدها قائمة بأسماء مُقسَّمة إلى ثلاثة صفوف. يقول جاك: «لقد ألّب الصف كله عليَّ.»

أعلِّق وأنا أنظر إلى القائمة: «ليس الصف كله.»

«إنه يترك لي رسائل في خزانتي تقول أشياء من قبيل: «الجميع يكرهونك».»

«يجب أن تُخبر المُدرِّس عن هذا.»

ينظر جاك إليَّ كما لو كنت أبله، ويهز رأسه.

أقول، وأنا أشير إلى القائمة: «على أية حال، لديك كل هؤلاء المحايدين. إذا اجتذبتهم إلى صفك، ستتعادل الأمور قليلًا.»

يقول ساخرًا: «نعم، هذا سيحدث طبعًا.»

«ولِمَ لا؟»

يرميني بنظرة أخرى كما لو كنت أغبى إنسان تكلم إليه في العالم.

أقول: «ماذا؟»

يهز رأسه وكأنني حالة ميؤوس منها. يقول: «دعنا نَقُل فقط إنني صديق لشخص لا يُعَد الأكثر شعبية في المدرسة.»

أُدرك الأمر فجأة، ما لم يقله صراحة: أوجست. الأمر كله يدور

حول صداقته لأوجست، وهو لا يريد أن يقول لي لأنني حبيب الأخت. نعم، بالطبع، هذا منطقي.

نرى الحافلة تأتي في شارع أمسفورت.

أقول له، وأنا أُعيد إليه الورقة: «طيب، لا تيأس. المدرسة الإعدادية تبدأ كأسوأ ما يكون، لكنها تتحسن بعد ذلك. كل الأمور ستُحَل.»

يهز كتفيه ويدس الورقة في جيبه.

نُلوِّح مُوَدِّعين، ويصعد هو إلى الحافلة، وأتابعها وهي تتحرك.

عندما أصل إلى محطة المترو على بُعد شارعين، أرى الفتية الثلاثة أنفسهم يَتسكَّعون أمام محلٍّ للفطائر مجاوِر للمحطة. ما زالوا يضحكون ويلكزون بعضهم بعضًا كما لو كانوا من رجال العِصابات. صِبية صغار أثرياء يرتدون بناطيل جينز ضيقة، ويتصرفون بخشونة.

لا أعرف أية فكرة تسيطر عليَّ، لكنني أخلع نظارتي، وأضعها في جيبي، وأدُسُّ حقيبة الكمان تحت ذراعي بحيث يصبح طرَفها المُدَبَّب إلى أعلى. أتجه إليهم، وجهي مُقطب، وعليه نظرة شريرة. ينظرون إليَّ، تموت الضحكات على شفاههم عندما يرونني. يميل الآيس كريم في أيديهم في زاوية غريبة.

أقول ببطء شديد، وأنا أصرُّ على أسناني، بصوت أشبه بصوت «كلينت إيستوود» في دور البطل الخشن: «أنتم، اسمعوا. إذا تعرضتم له ثانية فستندمون أشد الندم.»

ثم أنقر على الكمان لمزيد من التأثير: «هل تفهمون؟»
يهزون رؤوسهم معًا، والآيس كريم يقطُر على أيديهم.
«تمام.» أومِئ بغموض، ثم أُسرع الخطى في اتجاه المترو، خطوتين في كل مرّة.

بروفة

تستهلك المسرحية معظم وقتي ونحن نقترب من ليلة الافتتاح: سطور كثيرة يجب حِفظها. مونولوجات طويلة أتكلم فيها وحدي. لكن أوليفيا خرجت بفكرة رائعة، كانت نِعْمَ العَون؛ أطلع على خشبة المسرح ومعي آلة الكمان، وألعب عليها قليلًا وأنا أتكلم. الدور ليس مكتوبًا هكذا، لكن الأستاذ دافنبورت يرى أن عزف مدير خشبة المسرح على آلة الكمان يُضفي عليه مَسْحة شعبية إضافية. كما أنه أمرٌ عظيم بالنسبة إليَّ، فكلما احتجت إلى لحظات لتَذكُّر السطر التالي، ألجأ إلى عزف جزء من لحن «فرحة الجندي» على الكمان، وهو ما يمنحني بعض الوقت.

عرفت زملائي في العرض أفضل كثيرًا، وخصوصًا تلك الفتاة وَرْديَّة الشعر التي تلعب دور إميلي. يتبين لي أنها ليست مغرورة حقًّا كما تصورتُها بالنظر إلى الشلة التي تخالطها. حبيبها هو ذلك الرياضي قوي البنية، نجم الأوساط الرياضية المدرسية. إنه عالم كامل لا علاقة لي به، لذا أفاجأ بعض الشيء عندما أكتشف أن هذه الفتاة المدعوة «ميرندا» لطيفة إلى حد ما.

ذات يوم نجلس على الأرض في الكواليس ننتظر الفنيين حتى يُصلحوا كشَّاف النور الرئيسي.

تسألني فجأة: «إذًا، منذ متى وأنت وأوليفيا تتواعدان؟»

أقول: «منذ شهر تقريبًا.»

تقول بصورة عابرة: «هل قابلت شقيقها؟»

سؤال غير مُتوقَّع، حتى إنني لا أستطيع إخفاء دهشتي.

أسألها: «هل تعرفين شقيق أوليفيا؟»

«ألم تَحكِ لك فيا؟ لقد كنا صديقتين مُقرَّبتين. أنا أعرف أوجي منذ كان رضيعًا.»

أُجيبها: «آه، نعم، أظن أنني أعرف ذلك.»

لا أريدها أن تعرف أن أوليفيا لم تحك لي أيًّا من هذا. لا أريد أن أكشف عن مقدار دهشتي عندما سمعتها تسميها فيا. لا أحد يُطلق على أوليفيا اسم فيا إلا أسرتها، وها هي الفتاة ذات الشعر الوردي، التي ظننتها غريبة عنها، تدعوها فيا.

تضحك ميرندا وتهز رأسها، لكنها لا تقول شيئًا. يسود صمت مرتبك، ثم تبدأ في التفتيش في حقيبتها وتُخرج محفظتها. تُقلِّب في بعض الصور ثم تناولني واحدة. إنها صورة لولد صغير في مُتنزَّه في يوم مُشمس. يرتدي شورتًا وتيشيرتًا وخوذة رائد فضاء تغطي وجهه بالكامل.

تقول، وهي تبتسم للصورة: «كان الجو شديد الحرارة ذاك اليوم، لكنه لم يكن يخلع الخوذة لأي سبب، لقد ظل يضعها لنحو سنتين متواصلتين، في الشتاء، في الصيف، على الشاطئ. كان ذلك جنونًا.»

«نعم، رأيت صورًا في منزل أوليفيا.»

تقول: «أنا من أعطاه الخوذة.»

يبدو عليها قدر من الفخر لذلك. تأخذ الصورة وتعيدها بحرص إلى داخل محفظتها.

أُجيبها: «لطيف.»

تقول، وهي تنظر إليّ: «إذًا، لا مشكلة عندك مع هذا؟»

أنظر إليها نظرة خاوية: «لا مشكلة مع ماذا؟»

ترفع حاجبيها وكأنها لا تُصدقني. تقول: «أنت تعرف ما أتحدث عنه.»

تأخذ رَشفة طويلة من زجاجة المياه ثم تُكمل: «دعنا نواجه الحقيقة، العالم لم يكن طيبًا مع أوجي بولمان.»

طائر

أقول لأوليفيا اليوم التالي: «لماذا لم تخبريني بأنك وميرندا نافاس كنتما صديقتين؟»

أشعر بضيق حقيقي منها لأنها لم تُخبرني بهذا الأمر.

تقول بنبرة دفاعية، وهي تنظر إليّ وكأنني قلت شيئًا عجيبًا: «ليس أمرًا مُهمًا.»

أقول: «بل هو مهم. كنت مثل الأبله. كيف استطعت ألّا تخبريني؟ لقد كنت تتعاملين دومًا وكأنك لا تعرفينها أصلًا.»

ردت بسرعة: «أنا لا أعرفها. لا أعرف مُشجِّعة الفرق الرياضية ذات الشعر الوردي تلك. الفتاة التي عرفتها كانت فتاةً ساذجة تهوى تجميع دُمى «الفتاة الأمريكية».»

«بالله عليك يا أوليفيا!»

«بالله عليك أنت!»

أقول بهدوء، متظاهرًا بأنني لا ألاحظ الدمعة الكبيرة التي أخذت تنحدر على خدها فجأة: «كان يمكن أن تخبريني في لحظة ما.»

تهز كتفيها، وتجاهد لمنع دموع أكبر.

أقول، ظانًا أن الدموع بسببي: «لا بأس، أنا لستُ غاضبًا.»

تقول بحقد: «الصراحة أنني لا يعنيني إن كنت غاضبًا أم لا.»

أرد هجومها: «آه، هذا لُطف شديد منك!»

لا تنطق بشيء. الدموع في الطريق.

أقول: «أوليفيا، ما الأمر؟»

تهز رأسها وكأنها لا تريد أن تتكلم في الأمر، لكن فجأة تبدأ الدموع في الانحدار بسرعة مِيل كامل في الدقيقة.

أخيرًا، تقول بين دموعها: «أنا آسفة! الأمر لا يتعلق بك يا جوستن. أنا لا أبكي بسببك.»

«إذًا لماذا تبكين؟»

«لأنني شخصية فظيعة!»

«عن أي شيء تتحدثين؟»

لا تنظر إليّ، تمسح دموعها بكف يدها.

تقول بسرعة: «لم أُخبر والديّ بأمر العرض.»

أهز رأسي لأنني لا أفهم ما تخبرني به. أقول: «لا بأس. لم يَفُتِ الوقت بعد، ما زالت هناك تذاكر...»

تقاطعني بنفاد صبر: «أنا لا أريدهما أن يحضرا العرض يا جوستن. ألا تفهم ما أقول؟ لا أريدهما أن يحضرا! إذا حضرا، فسيصطحبان أوجي، وأنا فقط لا أريد...»

هنا، تصدمها نوبة أخرى من البكاء لا تسمح لها بإكمال عبارتها. أضع ذراعي حولها.

تقول بين دموعها: «أنا شخصية فظيعة!»

أقول برِقة: «أنت لستِ شخصية فظيعة.»

تنشج: «بل أنا كذلك. المسألة أن الأمر كان لطيفًا جدًا، أن أكون في مدرسة جديدة لا يعرف فيها أحدٌ بأمره، هل تفهم؟ لا أحد يهمس عن الأمر من وراء ظهري. كان ذلك أمرًا لطيفًا جدًا يا جوستن. لكن إذا حضر المسرحية، فسيتكلم الجميع عن الأمر، وسيعرف الجميع... لا أعرف لماذا أشعر بهذا الشعور... أقسم بالله إنني لم أشعر بحرج منه من قبل!»

أقول، وأنا أُهَدهِدُها: «أعرف، أعرف. أنت معذورة يا أوليفيا. لقد تحمّلت الكثير طوال حياتك.»

أحيانًا تُذكِّرني أوليفيا بطائر، كيف ينتفش ريشها عندما تغضب، وعندما تكون هشّة كما هي الآن، تُصبح طائرًا صغيرًا ضائعًا يبحث عن عُشّه.

وهكذا، أعطيها جناحي كي تختبئ تحته.

العالم

لا أستطيع النوم الليلة. رأسي مليء بالأفكار ولا ينطفئ: سطور من المونولوج الذي سوف أؤديه. عناصر من الجدول الدوري الذي ينبغي عليّ حفظه. نظريات رياضية يُفترض أن أفهمها. أوليفيا. أوجي.

كلمات ميرندا تظل تراودني: «العالم لم يكن طيبًا مع أوجي بولمان».

أفكِّر في هذا كثيرًا وفي معناه. إنها مُحِقة في ذلك. العالم لم يكن طيبًا مع أوجي بولمان. ماذا فعل هذا الفتى الصغير ليستحق هذه العقوبة؟ ماذا فعل الوالدان؟ أو أوليفيا؟ لقد ذكرت ذات مرَّة أن أحد الأطباء أخبر والديها أن احتمالية أن تجتمع في شخص واحد تلك المتلازمات التي اجتمعت في وجه أوجي لا يزيد على واحد لكل أربعة ملايين. ألا يجعل هذا العالم، إذًا، «يانصيب» عملاقًا؟ تشتري تذكرة لحظة ميلادك. وتبقى مسألة حصولك على تذكرة جيدة أو تذكرة سيئة مجرد أمر عشوائي. إن كل ذلك ليس أكثر من حظ سيِّئ.

تدور برأسي تلك الأفكار، لكن أفكارًا أكثر نعومة تأتي تخفف من حدتها، مثل نغمة ثالثة تامة تدخل على تآلف نغمات من

السلم الكبير. لا، لا، ليست الأمور عشوائية، إذا كانت عشوائية بحق، لكان العالم قد تخلّى عنا تمامًا، لكن العالم لم يتخل عنا؛ إنه يعتني بمخلوقاته الأضعف بطُرق لا نستطيع أن نراها، مثل: والدان يُحبانِك لدرجة العبادة بلا مقابل، وشقيقة كبرى تشعر بالذنب تجاهَك لمجرد ضعفها الإنساني، وفتى بصوت مبحوح قليلًا هَجَرهُ أصدقاؤه بسببك، بل وفتاة ذات شعر وردي تحمل صورتك في محفظتها. ربما كان «يانصيب»، لكن العالم يساوي بين الجميع في النهاية. العالم يعتني بكل طيوره.

الجزء السادس



أوجست

«الإنسان، يا له من صنيع! ما أنبل فكره! وما أعظم مواهبه! وما أفصحه وأروعه في هيئته وحركته! كم يشبه ملاكًا في عمله! كم يشبه إلهًا في إدراكه. إنه زينة الحياة الدنيا.»

- شكسبير، هاملت

القطب الشمالي

حقق مصباح البطاطس نجاحًا كبيرًا في مَعرِض العلوم جعلنا أنا وجاك نحصل على تقدير ممتاز. كانت تلك المرّة الأولى التي يحصل فيها جاك على تقدير ممتاز في أية مادة من المواد، فكان مفعمًا بالإثارة.

كانت كل مشاريع مَعرِض العلوم موضوعة على الطاولات في صالة الألعاب الرياضية. نفس تجهيز مَعرِض المتحف المصري الذي نُظِّم في ديسمبر، باستثناء وجود براكين ومجسمات للجزيئات على الطاولات تلك المرّة بدلًا من الأهرام والفراعنة. وبدلًا من الأطفال الذين يصحبون آباءهم في جولة لمشاهدة منتجات بقية التلاميذ، كان علينا أن نقف بجوار الطاولات فيما يتجول الآباء في أنحاء الصالة ويأتون إلينا واحدًا بعد واحد.

وها هي العملية الحسابية: ستون تلميذًا في الصف يساوي ستين مجموعة من الآباء - وهذه الحسبة لا تشمل الأجداد. وهذا يعني مائة وعشرين زوجًا من العيون على الأقل تجد طريقها إليَّ. عيون ليست معتادة عليَّ مثلما أصبحت عيون أولادهم. الأمر أشبه بالبوصلة وكيف تشير دائمًا إلى الشمال، بغَضّ النظر عن وجهتك. كل تلك العيون بوصلات، وأنا مثل القطب الشمالي بالنسبة إليها.

لهذا السبب ما زلت لا أحب الأنشطة المدرسية التي يشارك فيها الآباء. لا أكرهها مثلما كنت أكرهها في بداية العام الدراسي. مثل «مهرجان عيد الشكر الخيري»؛ كان ذلك أسوأها، في رأيي. كانت تلك أول مرّة أضطر فيها إلى مواجهة كل الآباء مرّة واحدة. بعدها جاء المتحف المصري، لكن هذا كان لا بأس به لأنني ارتديت زي مومياء ولم يلاحظني أحد. ثم جاء الحفل الموسيقي الشتوي، الذي كرهته جدًا لأنه كان يجب عليَّ الغناء مع الجوقة. ليست المشكلة فقط أنني لا أستطيع الغناء إطلاقًا، ولكن أيضًا أنني شعرت وكأنني في واجهة عرض. المَعرِض الفني للعام الجديد لم يكن بمثل ذلك السوء، لكنه كان مُزعجًا أيضًا. وضعوا أعمالنا الفنية في الممرّات في جميع أنحاء المدرسة، وأدخلوا الآباء ليشاهدوها. كان الأمر بالنسبة إليّ أشبه بيوم دراسي أول جديد، وأنا أجد أشخاصًا بالغِينَ يمرُّون بجواري على السلالم، فيفاجأون بي.

على أية حال، لا أقول إنني أهتم برد فعل الناس تجاهي. مثلما قلت مليون مرّة من قبل: لقد اعتدت على ذلك، ولا أتركه يضايقني. الأمر أشبه بأن تخرج إلى الشارع فتجدها تُمطر رذاذًا خفيفًا. أنت لا تلبس حذاء ذا رقبة من أجل الرذاذ الخفيف... لا تفتح شمسيتك حتى. بل تمشي تحت الرذاذ، تكاد لا تلاحظ أن شعرك يَبتل.

لكن عندما تكون صالة ألعاب رياضية ضخمة مليئة بالآباء،

يُصبح الرذاذ أشبه بإعصار. ترتطم بك أعين الجميع مثل جدار من الأمطار.

ماما وبابا تَمشّيا بالقرب من طاولتي، بصحبة والدَي جاك. أمر طريف، كيف ينتهي الآباء إلى تكوين نفس الشلل الصغيرة التي يكونها أبناؤهم، فتجد والديَّ ووالدَي جاك ووالدة سمر جميعًا يحبون بعضهم بعضًا ويتفاهمون جيدًا. كما أرى والدَي جوليان وهما يخالطان والدَي هنري ووالدَي مايلز. بل وحتى آباء ماكس وماكس يقضون الوقت معًا. أمر طريف جدًّا.

أخبرت ماما وبابا بالأمر لاحقًا ونحن نسير في طريق العودة إلى البيت، وكان رأيهما أنها ملاحظة طريفة.

قالت ماما: «أظنها حقيقة، أن كل شخص يبحث عمَّن يُشبهه.»

الدُّمية أوجي

لفترة من الوقت، ظلت «الحرب» هي كل ما نتكلم عنه. كانت على أشدها في شهر فبراير. في هذا الوقت لم يكن أحد يتكلم معنا، وكان جوليان قد بدأ يترك رسائل في خزاناتنا. كانت الرسائل الموجَّهة إلى جاك غبية، من قبيل: «أنت قطعة جُبن كبيرة نتنة!»، و«لم يعد أحد يُحبك!».

أما أنا فكنت أتلقَّى رسائل من قبيل: «مَسخ!»، ورسالة أخرى تقول: «اخرج من مدرستنا أيها الغول!».

رأت سمر أننا يجب أن نُبلغ الأستاذة روبين، التي كانت عميد المدرسة الإعدادية، بأمر الرسائل، أو حتى نُبلغ الأستاذ توشمان. لكننا رأينا أن ذلك سيكون نوعًا من الوشاية. على أية حال، فقد كتبنا رسائل نحن بِدَوْرنا، مع أن رسائلنا لم تكن خسيسة إلى هذه الدرجة. بل كانت مَرِحة وهازئة إلى حد ما.

كانت إحداها تقول: «أنت جميل جدًّا يا جوليان! أنا أحبك. هل تتزوجني؟ مع حبي، بيولا».

وكانت أخرى تقول: «أحب شعرك! حضن وقُبلة، بيولا».

وكانت أخرى تقول: «أنت حلو. دغدغ قدمي. حضن وقُبلة. بيولا».

وكانت بيولا شخصية افتراضية اخترعناها أنا وجاك. كانت لها عادات فظيعة، فكانت مثلًا تأكل القاذورات الخضراء بين أصابع قدميها وتمص مفاصل أصابعها. وقدّرنا أن فتاة كهذه ستنجذب بشدة إلى جوليان، الذي يُشبه في هيئته وتصرفاته أطفال إعلانات «كيدز بوب» الذين يغنون أغاني المشاهير.

في فبراير أيضًا، نفّذ جوليان ومايلز وهنري بعض المقالب في جاك. أظنهم لم يستهدفوني بمقالبهم لأنهم كانوا يعرفون أنهم إذا أُمسك بهم وهم «يُبلطجون» عليَّ، فسيقعون في مشكلة كبيرة. أما جاك، فرأوا فيه هدفًا أسهل. وهكذا، ذات مرّة سرقوا شورت صالة الألعاب الخاص به، وراحوا يتقاذفونه فيما بينهم في غرفة الخزانات. وفي مرّة أخرى، اختطف مايلز، الذي كان يجلس بجوار جاك في غرفة استقبال الصف، ورقة إجابة جاك من فوق مكتبه، وكرمشها مثل الكُرة، ورماها إلى جوليان في الطرف الثاني من الغرفة. بالطبع، ما كان ذلك ليحدث في وجود الأستاذة بيتوسا، لكن كان يحل محلها مُدرِّس بديل ذاك اليوم، والمُدرِّسون البُدلاء لا يعرفون حقًّا ما يدور حولهم. وكان جاك يُحسن التصرف في هذه الأمور، فلا يسمح لهم برؤية انزعاجه، وإن كنت أعتقد أنه ينزعج جدًّا في بعض الأحيان.

كان بقية التلاميذ في صفنا يعرفون بأمر الحرب الدائرة. وباستثناء شلة سافانا، كانت البنات على الحياد في أول الأمر. لكن عندما وصلنا إلى شهر مارس كان الكيل قد فاض بهنَّ. وكذلك

الحال مع بعض الأولاد. فمثلًا في مرّة عندما كان جوليان يُسقط نشارة برّاية القلم الرصاص في حقيبة جاك، جاء أموس، الذي كان مُقرّبًا منه عادة، وشد الحقيبة من يديه وأعادها إلى جاك. كانت بداية الإحساس بأن أغلبية الأولاد لم يعودوا يَقبلون جوليان.

ثم حدث قبل بضعة أسابيع أن بدأ جوليان ينشر تلك الشائعة السخيفة بأن جاك قد استأجر «فتوّة» لكي «ينال» منه هو ومايلز وهنري. تلك الكذبة كانت مُقززة، حتى إن الناس أخذوا يضحكون عليها حقًّا من وراء ظهره. عند تلك النقطة، أخذ كل الأولاد الذين كانوا في صفّه يقفزون من السّفينة وأصبحوا محايدين تمامًا. وهكذا، بنهاية شهر مارس، لم يكن في جانب جوليان سوى مايلز وهنري - بل وأظن أنهما بدورهما بدآ يملّان من تلك الحرب.

كذلك أنا متأكد أن الجميع توقفوا عن لعبة «الطاعون» من وراء ظهري أيضًا. لم يعد أحد ينكمش إذا اصطدمت به، وأصبحوا يستعيرون أقلامي، بغير أن يتصرفوا وكأن الأقلام ملوّثة بالجراثيم.

بل وأصبح الناس يمازحونني الآن أحيانًا. مثل ذلك اليوم عندما رأيت مايا تكتب رسالة لإيلي على قطعة ورق من كرّاسة مرسوم عليها إحدى الشخصيات التي اشتهرت باسم «الدُّمى القبيحة»، ولا أعرف لماذا، لكنني قلت بشكل عشوائي: «هل تعرفين أن الرجل الذي ابتكر «الدُّمى القبيحة» ابتكرها بوَحي مني؟»

نظرت مايا إليّ وقد فتحت عينيها على وسعهما كما لو كانت

صدقتني. ثم، عندما أدركَت أنني كنت أمزح وحسب، رأتْ أن تلك واحدة من أكثر النِّكات المُضحكة في العالم.

قالت: «أنت مُضحك جدًّا يا أوجست.»

ثم أخبرَت إيلي وبعض البنات الأُخريات بما قلته، وكلهن رأين أنه مُضحك أيضًا. كن يُصدَمن في البداية، لكن بعدها عندما يجدنني أضحك على ذلك، يفهمن أن بإمكانهن أن يضحكن على ذلك أيضًا. وفي اليوم التالي وجدت سلسلة مفاتيح على شاكلة «دُمية قبيحة» موضوعة على الكرسي الخاص بي مع رسالة صغيرة ظريفة من مايا تقول: «إلى «الدُّمية أوجي»، ألطف دُمية في العالم! حضن وقُبلة، مايا».

قبل ستة أشهر ما كانت أشياء مثل تلك لتحدث قَطُّ، لكنها تحدث الآن، أكثر وأكثر.

كذلك تعامل الناس بلُطف شديد مع السماعات التي بدأت أستخدمها.

لوبوت

منذ صِغري، قال الأطباء لوالديَّ إنني سوف أحتاج إلى سماعات يومًا. لا أعرف لماذا كنت أخاف من هذا: ربما لأن أي شيء يتعلق بأذنيَّ يُزعجني كثيرًا.

كان سمعي يسوء أكثر فأكثر، لكنني لم أُخبر أحدًا بهذا الأمر. كان صوت المحيط الذي يتردد في رأسي يعلو مع الوقت، ويغرق أصوات الناس، وكأنني تحت الماء. لم أكن أسمع المُدرِّسين إذا جلست في آخر الفصل. لكنني كنت أعرف أنني، إذا أخبرت ماما أو بابا بهذا الأمر، سأنتهي إلى وضع سماعات، وكنت آمل أن أستطيع إكمال الصف الخامس من دون أن يحدث لي هذا.

لكن في الفحص السَّنوي الذي أُجريه في أكتوبر، رَسَبتُ في اختبار السمع، وقال الطبيب: «لقد حان الوقت يا صديقي.»

وأرسلني إلى طبيب أُذن مُتخصص أخذ قالبًا لأذنيَّ.

من بين جميع ملامحي، أكثر ما أكرهه هو أذناي. تبدوان مثل قبضتين صغيرتين مضمومتين على جانبي وجهي. كما أن موقعهما على رأسي منخفض جدًّا. تبدوان مثل قطعتين مهروستين من عجينة البيتزا ملتصقتين في أعلى عنقي أو شيء من هذا القبيل. طيب، ربما أبالغ قليلًا. لكنني أكرههما بحق.

عندما أخرج طبيب الأذن السماعة للمرّة الأولى لكي أراها أنا وماما، خرج مني أنين.

أعلنت، وأنا أعقد ذراعيّ أمام صدري: «لن أرتدي هذا الشيء!»

قال طبيب الأذن: «أعرف أنها قد تبدو كبيرة نوعًا ما، لكن كان علينا أن نربط القطعتين بشريط يثبتهما في رأسك، لأننا لم نجد طريقة أخرى لكي يظلّا داخل أذنيك.»

تعرفون، السماعات العادية عادةً ما يكون بها جزء يلتف حول الأذن الخارجية ليثبت البرعم الداخلي في مكانه، لكن في حالتي، ولأنني لا أمتلك أذنًا خارجية، كان يجب ربط بُرْعمَي الأذنين بهذا الشريط الضخم الذي يُفترض أن يلتف حول مؤخرة رأسي.

قلت بأنين: «لا أستطيع أن أضع هذه يا ماما!»

قالت ماما، وهي تحاول أن تكون مَرِحة: «لن تكون واضحة. إنها تُشبه سماعات الـ«هيدفون».»

قلت غاضبًا: ««هيدفون»؟ انظري إليها يا ماما. سأبدو مثل لوبوت.»

قالت ماما بهدوء: «ومَن هو لوبوت؟»

ابتسم طبيب الأذن وهو ينظر إلى السماعة ويُجري بعض التعديلات: «لوبوت؟ «الإمبراطورية ترد الهجوم»؟ الرجل الأصلع الذي يتصل بدماغه جهاز استقبال حيوي؟»

قالت ماما: «لا أفهم شيئًا.»

سألتُ طبيب الأذن: «هل تعرف أشياء «حرب النجوم»؟»

أجاب، وهو يضع الشيء حول رأسي: «أعرف أشياء «حرب النجوم»؟ لقد اخترعتُ بالفعل أشياء «حرب النجوم»!»

أرجع ظهره على كرسيه ليرى مدى إحكام شريط الرأس، ثم خلعه ثانية.

قال، وهو يشير إلى الأجزاء المختلفة في السماعة: «الآن يا أوجي، أريد أن أشرح لك ما هذه الأشياء: هذه القطعة المُقوَّسة من البلاستيك بالأعلى تتصل بالتعاريج في هيكل الأذن. لهذا السبب أخذنا القالب في ديسمبر، لنجعل تلك القطعة التي تدخل داخل أذنك تثبت وتستكين في مكانها. هذا الجزء هنا يُسمَّى خطَّاف النغمات. تمام؟ وهذا الشيء هو الجزء الخاص الذي ثبتناه في هذه الحمَّالة هنا.»

قلت مُبتئسًا: «ذلك الجزء الخاص بلوبوت!»

قال طبيب الأذن: «هيه. لوبوت شخصية لطيفة. لن تصبح مثل «جار جار». تعرف؟ هذا سيكون سيئًا.»

وضع السماعة على رأسي برفق ثانية: «ها نحن يا أوجست. ما رأيك إذًا؟»

قلت: «مُزعجة جدًّا!»

قال: «سوف تعتاد عليها بسرعة.»

نظرت في المرآة. بدأت عيناي تدمعان. لم أرَ سوى تلك الأنابيب تبرز من جانبي رأسي، مثل قرون الاستقبال.

قلت، وأنا أحاول ألا أبكي: «هل يجب عليّ حقًّا أن أضعها يا ماما؟ أنا أكرهها! وهي لا تُحدث أيَّ فرق!»

قال الطبيب: «لحظة يا صديقي، فأنا لم أُشغلها بعد. انتظر حتى تسمع الفرق؛ ستطلب بنفسك وضعها.»

«لا، لن أطلب.»

ثم قام بتشغيلها.

الصوت الساطع

كيف أصِفُ ما سمعته عندما شَغَّل الطبيب سماعتي؟ أو ما لم أسمعه؟ من الصعب جدًّا أن أجد الكلمات. كل ما في الأمر أن المحيط لم يعد يعيش في رأسي. اختفى. صار بإمكاني أن أسمع الأصوات مثل أضواء ساطعة في عقلي. الأمر يُشبه أن تكون في غرفة فيها مصابيح، أحدها لا يعمل، لكنك لا تدرك مدى ظلام الغرفة حتى يأتي شخص فيُغير المصباح، فتندهش وتقول: ياه، النور ساطع جدًّا هنا! لا أعرف إذا كانت هناك كلمة مثل «ساطع» لوصف السمع، لكنني أتمنى لو أعرف كلمة كهذه، لأن سمعي صار ساطعًا الآن.

قال طبيب الأذن: «كيف الحال يا أوجي؟ هل تسمعني بوضوح يا صديقي؟»

نظرت إليه وابتسمت، لكنني لم أرد.

قالت ماما: «حبيبي، هل تشعر بأي فرق؟»

أومأت برأسي بسعادة: «لا داعي للصياح يا ماما.»

سألني طبيب الأذن: «هل تسمع أفضل؟»

أجبت: «لم أعد أسمع تلك الضوضاء. هناك هدوء شديد في أذنيَّ.»

قال، وهو يومئ برأسه: «اختفى الوشيش.»

نظر إليَّ وغمز بعينه: «قلت لك إنك ستُحب ما ستسمعه يا أوجست.»

أجرى بعض التعديلات على السماعة اليُسرى.

سألتني ماما: «هل هناك فرق كبير يا حبيبي؟»

أومأت برأسي: «نعم. الوشيش أصبح... أخف.»

قال طبيب الأذن، وهو يعدل السماعة اليُمنى: «هذا لأنه أصبح عندك الآن جهاز إرسال حيوي يا صاحبي. الآن ضَعْ إصبعك هنا.»

وضع يدي خلف السماعة: «هل تحس هذا؟ هذا هو مؤشر الصوت. يجب أن تصل إلى الصوت الذي يناسبك. تلك ستكون خطوتنا التالية. ما رأيك إذًا؟»

التقط مرآة صغيرة وجعلني أنظر في المرآة الكبيرة لأرى منظر السماعة من الخلف. كان شعري يُغطي أغلب شريط الرأس. الجزء الوحيد البارز هو الأنبوب.

سأل طبيب الأذن، وهو ينظر إليَّ في المرآة: «هل أنت راضٍ الآن عن سماعة لوبوت الحيوية الجديدة؟»

قلت: «نعم. شكرًا لك.»

قالت ماما: «شكرًا جزيلًا لك يا دكتور جيمس.»

أول مرَّة أذهب فيها إلى المدرسة بالسماعة، ظننت أنها ستكون حديث التلاميذ، لكن ذلك لم يحدث. سمر كانت سعيدة

لأنني أسمع أفضل، وجاك قال إنها تجعلني أبدو مثل عميل للمباحث الفيدرالية أو شيء من هذا القبيل. لكن هذا كان كل شيء. الأستاذ براون سألني عنها في حصة اللغة الإنجليزية، لكنه لم يكن سؤالًا من نوع: «ما هذا الشيء على رأسك بالله عليك؟»، بل من قبيل: «إذا أردتني أن أكرر أي شيء يا أوجي، رجاءً أخبرني بذلك، طيب؟».

الآن، حين أرجع بالذاكرة، لا أعرف لماذا كنت مشدودًا هكذا. أمر غريب! كيف تنظر إلى شيء ما بقلق شديد، ثم يتضح لك أنه لا شيء.

سِر فيا

بعد انتهاء عطلة الربيع ببضعة أيام، اكتشفت ماما أن فيا لم تُخبرها بأمر المسرحية المدرسية التي ستُعرض في مدرستها الثانوية الأسبوع المقبل. وجُن جنون ماما. ماما لا تغضب لهذه الدرجة كثيرًا (وإن كان بابا له رأي مختلف)، لكنها غضبت بشدة من فيا. ودخلت هي وفيا في عِراك ضخم. كان بوسعي أن أسمعهما في غرفة فيا، كلٌّ منهما تصرخ في الأخرى. واستطاعت أُذنا لوبوت الحيويتان أن تسمعا ماما تقول: «لكن ماذا أصابك مؤخرًا يا فيا؟ لقد أصبحت مُتقلِّبة المزاج وصَمُوتة وكتومة...»

وصرخت فيا عاليًا: «وما المشكلة في ألّا أُخبرك بأمر مسرحية غبية؟ أنا حتى لا أتكلم فيها!»

«ولكن حبيبك يتكلم! ألا تريدينني أن أراه فيها؟»

«لا! الحقيقة أنني لا أريدك أن تريه فيها.»

«كُفِّي عن الصراخ.»

«أنت صرخت أولًا! اتركيني وحدي، ممكن؟ طوال حياتي وأنت تتركينني وحدي، لا أعرف لماذا اخترت فجأة أن تُبدي اهتمامك بي في المدرسة الثانوية...»

لم أعرف بِمَ أجابتها ماما، إذ ساد الصمت، حتى إن أذنَي لوبوت الحيويتين لم تلتقطا ولو إشارة واحدة.

على العشاء بدا أنهما قد اصطلحتا. كان بابا يعمل لوقت متأخر، وكانت دايزي نائمة، وكانت قد تقيأت كثيرًا في النهار، وحددت ماما موعدًا لتأخذها إلى الطبيب البيطري اليوم التالي.

كنا جالسين نحن الثلاثة، ولا أحد يتكلم.

أخيرًا قلت: «إذًا، هل سنرى جوستن في مسرحية؟»

لم تُجب فيا، وإنما نظرت في طبقها.

قالت ماما بهدوء: «تعرف يا أوجي، لم أكن أعرف نوع المسرحية، وهي بالفعل ليست شيئًا مما سيُعجب أطفالًا في سِنك.»

قلت، وأنا أنظر إلى فيا: «إذًا، أنا لست مَدعُوًّا.»

قالت ماما: «لم أقل ذلك. أنا فقط لا أظن أنك ستستمتع بها.»

قالت فيا، وكأنها تتهمني بشيء ما: «سوف تختنق من الملل.»

سألت: «هل ستذهبين أنت وبابا؟»

قالت ماما: «بابا سيذهب. أنا سأبقى في البيت معك.»

صرخت فيا في ماما: «ماذا؟ آه، عظيم. إذًا، أنت تُعاقبينني على صراحتي بأن تمتنعي عن الحضور؟»

ردت ماما: «كانت رغبتك من البداية ألا نذهب، تتذكرين؟»

قالت فيا: «لكن الآن وقد فهمتِ الأمر، بالتأكيد أريدك أن تذهبي.»

قالت ماما: «عليّ أن أراعي مشاعر «الجميع» هنا يا فيا.»

صرختُ قائلًا: «عن أي شيء تتحدثان؟»

سارعت الاثنتان بالرد في صوت واحد: «لا شيء!»

قالت ماما: «مسألة تَخصُّ مدرسة فيا لا علاقة لها بك.»

قلت: «أنت تكذبين!»

قالت ماما، وقد بدت عليها الصدمة: «ماذا؟»

حتى فيا بدت مندهشة.

صحتُ: «قلت إنك تكذبين!»

وصرختُ في فيا وأنا أنهض: «وأنت تكذبين! كلتاكما كاذبتان! كلتاكما تكذبان في وجهي وكأنني عبيط!»

قالت ماما، وهي تشدني من ذراعي: «اجلس يا أوجي.»

سحبتُ ذراعي بعيدًا وأشرت إلى فيا وأنا أصرخ: «أتظنين أنني لا أعرف ما يجري. كل ما في الأمر أنك لا تريدين لأصدقائك الجُدد في المدرسة الثانوية الأنيقة أن يعرفوا أن شقيقك «مَسخ»!»

صرخت ماما: «أوجي! هذا ليس صحيحًا!»

زعقت: «كفى كذبًا عليَّ يا ماما! كفى مُعاملتي كما لو كنت طفلًا! أنا لست مُتأخرًا عقليًّا! أنا أعرف ما يجري.»

جريت في الردهة إلى غرفتي وصفعت الباب من خلفي بقوة، حتى إنني سمعت أجزاء صغيرة من الحائط تتفتت داخل إطار الباب. ثم ارتميت على سريري وشددت الأغطية فوق رأسي. ألقيت بالوسائد على وجهي المقزز، ثم كوّمت كل حيواناتي المحشوّة فوق

الوسائد، وكأنني في كهف صغير. لو كان باستطاعتي أن أتجول بوسادة على وجهي طوال الوقت، لفعلتُ ذلك.

لا أعرف حتى كيف جُنَّ جنوني لتلك الدرجة. لم أكن غاضبًا جدًّا في بداية العشاء. لم أكن حزينًا حتى. لكن فجأة شعرت وكأن كل شيء يتفجر من داخلي. عرفت أن فيا لا تريدني أن أذهب إلى تلك المسرحية الغبية، وعرفت السبب.

ظننت أن ماما ستتبعني إلى غرفتي على الفور، لكنها لم تتبعني. أردتها أن تراني وأنا داخل كهفي المُكوَّن من الحيوانات. وهكذا انتظرتُ لفترة أخرى، لكن مَرّت عشر دقائق ولم تأتِ ورائي. اندهشت كثيرًا. كانت دائمًا تأتي لتطمئن عليَّ عندما أكون في غرفتي مُنزعجًا من شيء ما.

تصورت أن ماما وفيا تتكلمان عني في المطبخ، وظننتُ أن فيا تشعر بضيق شديد جدًّا جدًّا. تصورت ماما وهي تتألم من الإحساس بالذنب، وأن بابا سيغضب منها عندما يرجع أيضًا.

صنعتُ فتحة صغيرة في كومة الوسائد والحيوانات المحشوة، واختلست النظر إلى ساعة الحائط. لقد مرَّ نصف ساعة وماما لم تأتِ إلى غرفتي بعد. حاولت أن أنصِتَ إلى الأصوات في الغرف الأخرى. هل ما زالتا تتناولان العشاء؟ ما الذي يحدث؟

أخيرًا، انفتح الباب. كانت فيا. لم تُزعج نفسها حتى بالمجيء إلى سريري، ولم تدخل برِقة كما قدَّرتُ، بل دخلت مسرعة.

وداع

قالت فيا: «أوجي. أسرع. ماما تريد أن تتكلم معك.»

«لن أعتذر.»

صرخَت: «الأمر لا يتعلَّق بك! ليس كل شيء في العالم يتعلَّق بك يا أوجي! الآن أسرع. دايزي مريضة. ماما ستأخذها إلى الطوارئ البيطرية. تعالَ لكي تُودِّعها.»

دفعتُ الوسائد عن وجهي ونظرت إليها، فرأيتها تبكي: «ماذا تقصدين بـ«أُودِّعها»؟»

قالت، وهي تمد إليَّ يدها: «تعالَ!»

تناولتُ يدها وتبعتها عبر الصالة إلى المطبخ. كانت دايزي ممددة على جنبها على الأرض، وساقاها ممدودتان أمامها. كانت تلهث بلا توقُّف، وكأنها تستريح بعد أن ركضت في المُتنزَّه. وكانت ماما جالسة على ركبتيها بجوارها، تمسِّد قمة رأسها.

سألتُ: «ماذا حدث؟»

قالت فيا، وهي تجلس بجوار ماما: «لقد بدأت تَئِن فجأة!»

نظرتُ إلى ماما، التي كانت تبكي هي الأخرى. قالت: «سآخذها إلى المستشفى البيطري في وسط المدينة. التاكسي في الطريق.»

قلت: «الطبيب سيجعلها تتحسَّن، صح؟»

نظرت ماما إليّ، وقالت بهدوء: «أتمنى ذلك يا حبيبي. لكنني بصراحة لا أعرف.»

قلت: «بالطبع سيجعلها تتحسّن!»

«لقد اشتد مرض دايزي في الفترة الأخيرة يا أوجي، وهي كبيرة في السن...»

«لكن بإمكانهم علاجها!»

قلتها وأنا أنظر إلى فيا، مُنتظرًا منها أن تُؤمن على كلامي، لكنها لم ترفع رأسها إليّ.

كانت شفتا ماما ترتعشان: «أظن أن الوقت قد حان لأن نُودِّع دايزي يا أوجي! أنا آسفة!»

قلت: «لا!»

قالت: «لا نريدها أن تعاني يا أوجي!»

رنَّ جرس التلفون. رفعت فيا السماعة وقالت: «طيب، أشكرك.»

ثم وضعت السماعة وقالت وهي تمسح دموعها بظهر يديها: «التاكسي بالخارج.»

قالت ماما، وهي ترفع دايزي برِقة وكأنها طفل ضخم واهِن: «أوجي، افتح الباب لي يا حبيبي.»

بكيت وأنا أقف أمامها: «أرجوك يا ماما، لا تفعلي هذا!»

قالت ماما: «يا حبيبي، أرجوك. إنها ثقيلة جدًّا.»

صحت باكيًا: «وماذا عن بابا؟»

قالت ماما: «سيُقابلني في المستشفى. وهو لا يريد لدايزي أن تُعاني يا أوجي.»

أزاحتني فيا من طريق الباب وفتحته لماما.

قالت ماما لفيا: «تلفوني المحمول مفتوح إذا أردتِ أيَّ شيء. هل يمكن أن تغطيها بالبطانية؟»

أومأت فيا برأسها، لكنها كانت تبكي بهستيريا حينذاك.

قالت ماما، والدموع تنهمر على وجهها: «ودًّعا دايزي يا أطفال!»

قالت فيا، وهي تُقبِّل دايزي على أنفها: «أُحبُّك يا دايزي. أُحبُّك جدًّا.»

وهمستُ أنا في أذن دايزي: «وداعًا يا فتاتي الصغيرة! أُحبُّك...»

حملت ماما دايزي ونزلت بها السلالم الخارجية. كان سائق التاكسي قد فتح الباب الخلفي وأخذنا نراقبها وهي تركب. وقبل أن تُغلق الباب، نظرت ماما إلينا ونحن واقفان عند مدخل البناية ولوَّحَت لنا بيدها. لا أظنني رأيتها قَطُّ أكثر حُزنًا من ذلك.

قالت فيا: «أُحبُّك يا ماما.»

قلت: «أُحبُّك يا ماما. أنا آسف يا ماما!»

ألقت ماما قُبلة لنا وأغلقت الباب. تابعنا السيارة وهي تتحرك ثم أغلقت فيا الباب. نظرَت إليَّ للحظة، ثم احتضنتني بقوة كبيرة جدًّا جدًّا ونحن نبكي فتسيل منا مليون دمعة.

ألعاب دايزي

جاء جوستن بعد نصف ساعة تقريبًا. أعطاني حضنًا كبيرًا، وقال: «آسف يا أوجي!»

جلسنا جميعًا في غرفة المعيشة، لا ننطق بكلمة. لسبب ما، كنت أنا وفيا قد جمعنا ألعاب دايزي من جميع أنحاء المنزل، ووضعناها في كومة صغيرة على طاولة القهوة. وكنا حينذاك نحدق في الكومة.

قالت فيا: «إنها حقًّا أعظم كلبة في العالم.»

قال جوستن، وهو يُدَلِّك ظهر فيا: «أعرف.»

قلت: «لقد بدأت تَئِنُّ فجأة.»

أومأت فيا برأسها وقالت: «بعد أن غادرتَ المائدة بثانيتين تقريبًا، قامت ماما لتلحق بك، لكن دايزي بدأت تَئِنُّ.»

قلت: «كيف؟»

قالت: «أنينًا. لا أعرف.»

سألتها: «مثل العُوَاء؟»

قالت بنفاد صبر: «مثل الأنين يا أوجي. أخذت تتأوَّه، وكأن شيئًا يُؤْلمها بشدة. وكانت تلهث بجنون، ثم خرَّت على الأرض، وذهبت إليها ماما وحاولت أن ترفعها، لكن الألم كان باديًا عليها. لقد عضت ماما!»

قلت: «ماذا؟»

أوضحت فيا: «عندما حاولت ماما أن تلمس معدة دايزي، عضت يدها.»

رددت: «دايزي لا تعض أحدًا!»

قال جوستن: «لم تكن على طبيعتها. من الواضح أنها كانت تتألم.»

قالت فيا: «كان بابا مُحقًّا. لم يكن علينا أن نتركها تصل إلى تلك المرحلة.»

قلت: «ماذا تقصدين؟ هل كان يعرف أنها مريضة؟»

«أوجي، ماما أخذتها إلى الطبيب ثلاث مرّات في الشهرين الأخيرين. وكانت تتقيأ هنا وهناك. ألم تلاحظ؟»

«لكنني لم أعرف أنها مريضة!»

لم تقل فيا شيئًا، لكنها وضعت ذراعها حول كتفيَّ وجذبتني إليها. بدأت أبكي ثانية.

قالت برِقة: «أنا آسفة يا أوجي! أنا آسفة بحق على كل شيء! هل تسامحني؟ أنت تعرف كم أُحبُّك، صح؟»

سألتها: «هل نَزفت ماما؟»

قالت فيا: «كانت عضة بسيطة. هنا.»

أشارت إلى أسفل إبهامها لتُرِيَني بالضبط أين عضت دايزي ماما.

«هل آلمتها؟»

«ماما بخير يا أوجي، إنها على ما يرام.»

عادت ماما وبابا بعد ساعتين. عرفنا لحظة فتحا الباب ورأينا أن دايزي ليست معهما، أن دايزي رحلت. جلسنا جميعًا في غرفة المعيشة حول كومة ألعاب دايزي. أخبَرنا بابا بما حدث في المستشفى البيطري، وكيف أن الطبيب اصطحب دايزي لإجراء بعض الأشعات واختبارات الدم، ثم عاد وأخبرهما أن لديها ورمًا كبيرًا في معدتها. كانت تتألم عندما تتنفس. ولم تُرد ماما وبابا لها أن تعاني، وهكذا حملها بابا بين ذراعيه كما كان يحب، ساقاها مفرودتان لأعلى، وقبَّلها هو وماما مُوَدِّعَين مرّة بعد مرّة، وتكلما في أذنها فيما كان الطبيب يغرس إبرة في ساقها. ثم بعد نحو دقيقة ماتت بين ذراعي بابا. قال بابا إن الأمر كان في غاية السلام. لم تشعر بأي ألم، وكأنها تروح في نوم طويل. وأكثر من مرّة عندما كان بابا يتحدث، ارتعش صوته وتنحنح.

لم أرَ بابا يبكي من قبل، لكنني رأيته يبكي تلك الليلة. كنت قد ذهبت إلى غرفة نوم ماما وبابا لأنني أردت من ماما أن تضعني في سريري، لكنني وجدت بابا يجلس على حافة السرير، يخلع جَوْربيه. كان ظهره للباب، فلم يعرف أنني هناك. في البداية ظننته يضحك لأن كتفيه كانتا تهتزان، لكنه بعدها وضع كفيه على عينيه وأدركت أنه يبكي. كان أهدأ بكاء سمعته في حياتي. مثل هَمْس. أوشكت على أن أذهب إليه، لكنني عُدت وفكَّرت أنه ربما يبكي همسًا لأنه لا يريدني أن أسمعه، لا أنا ولا أي شخص آخر. فخرجت

وذهبت إلى غرفة فيا، ورأيت ماما راقدة إلى جوار فيا في السرير، وكانت ماما تهمس بشيء لفيا، التي كانت تبكي.

وهكذا ذهبت إلى سريري وارتديت منامَتي من دون أن يطلب مني أحد، وأضأت المصباح الليلي وأطفأت النور وزحفت إلى داخل الجبل الصغير من الحيوانات المحشوة الذي كنت قد تركته على سريري. شعرت وكأن ذلك قد حدث قبل مليون عام. خلعت سمّاعتي ووضعتها على طاولة الفراش، وسحبت الأغطية حتى أذنيّ، وتخيلت دايزي مستكينة في حضني، لسانها الرطب الكبير يلعق وجهي وكأنه أكثر وجه تحبه في العالم. ثم رحت في النوم.

السماء

استيقظت لاحقًا وكانت الدنيا لا تزال مُظلمة. خرجت من السرير ودخلت غرفة ماما وبابا.

همست: «ماما؟»

كان الظلام شديدًا، فلم أرها تفتح عينيها.

«ماما؟»

قالت بنعاس: «هل أنت بخير يا حبيبي؟»

«هل يمكن أن أنام بجانبك؟»

انزاحت ماما إلى جانب بابا، فرَقَدتُ إلى جانبها. قبّلت شعري.

قلت: «هل يَدُكِ بخير؟ فيا أخبرتني أن دايزي عضتك.»

همست في أذني: «كانت عضة بسيطة.»

بدأت أبكي: «ماما... أنا آسف على ما قلتُ.»

قالت بصوت هامس جدًا كنت أسمعه بالكاد: «ششش... لا شيء يستحق الأسف.»

كانت تحك جنب وجهها بوجهي.

قلت: «هل تشعر فيا بالحرج لأنني أخوها؟»

«لا يا حبيبي. لا. أنت تعرف أن هذا غير صحيح. إنها فقط تحاول التكيُّف مع المدرسة الجديدة. الأمر ليس سهلًا.»

«أعرف.»

«أعرف أنكَ تعرف.»

«أنا آسف أنني وصفتك بالكذب.»

«نَم يا حبيبي... أنا أُحبُّك جدًّا.»

«وأنا أُحبُّك جدًّا يا ماما.»

قالت بصوت خافت: «تُصبح على خير يا حبيبي.»

«ماما، هل دايزي مع جدتي الآن؟»

«أعتقد هذا.»

«هل هما في السماء؟»

«نعم.»

«هل يظل الناس على هيئتهم عندما يصعدون إلى السماء؟»

«لا أعرف. لا أعتقد.»

«إذًا كيف يعرف الناس بعضهم بعضًا؟»

بدَا التعب على صوتها: «لا أعرف يا حبيبي. يشعرون بذلك فحسب. أنت لا تحتاج إلى عينين لكي تُحب، صح؟ أنت فقط تشعر بالحب داخلك. هكذا الأمر في السماء. إنه الحب، ولا أحد ينسى مَن أحب.»

قبّلتني ثانية.

«الآن، نَم. لقد تأخر الوقت. وأنا مُتعبة جدًّا.»

لكنني لم أستطع النوم، حتى بعد أن عرفت أنها راحت في

النوم. كنت أسمع صوت بابا وهو نائم أيضًا، وتخيّلت أنني أسمع صوت فيا نائمة في غرفتها. وتساءلتُ ما إذا كانت دايزي نائمة في الجنة الآن. وإذا كانت نائمة، هل تحلم بي؟ وتساءلت عن شعور أن أصعد إلى السماء ولا يعود وجهي مُهمًا، كما لم يكن مهمًّا قَطُّ بالنسبة إلى دايزي.

الرديف

عادت فيا إلى المنزل بثلاث تذاكر لمسرحيتها المدرسية بعد أيام من وفاة دايزي. لم يأتِ أحد على ذِكر شِجارنا على العشاء. في ليلة المسرحية، قبل مغادرتها هي وجوستن لكي يصلا إلى المدرسة مبكرًا، أعطتني حضنًا كبيرًا وقالت لي إنها تُحبني وإنها فخورة بكوني شقيقها.

كانت تلك أول مرَّة أزور فيها مدرسة فيا. كانت أكبر كثيرًا من مدرستها القديمة، وأكبر ألف مرَّة من مدرستي. ممرَّات أكثر. مساحات أكبر. الشيء الوحيد السيِّئ حقًّا في سماعة لوبوت الحيوية، هي أنني لم أعد أستطيع وضع طاقية البيسبول. في مواقف كهذه، كانت تتضح فائدة طاقية البيسبول. أحيانًا أتمنى لو أنه لا يزال باستطاعتي وضع خوذة رائد الفضاء القديمة التي كنت أضعها عندما كنت صغيرًا. صَدِّق أو لا تُصَدِّق، الناس لن يستغربوا رؤية طفل بخوذة رائد فضاء قَدْر ما يستغربون وجهي. على أية حال، ظللت مُنَكَّس الرأس وأنا أتبع ماما عبر الممرَّات الطويلة ذات الإضاءة الساطعة.

سرنا وراء الحشد حتى المسرح، حيث كان الطلاب يُوزِّعون البرنامج عند المدخل الأمامي. وجدنا مقاعد في الصف الخامس،

بالقرب من الوسط. فور أن جلسنا، أخذت ماما تُفَتِّش في حقيبتها. قالت: «لا أُصدِّق أنني نَسِيتُ نظارتي.»

هزَّ بابا رأسه. كانت ماما تنسى نظارتها دائمًا، أو مفاتيحها، أو أي شيء آخر. كانت مشوشة الذهن بهذه الطريقة.

قال بابا: «هل تريدين أن ننتقل إلى الأمام؟»

ضَيَّقت ماما عينيها ونظرت إلى الخشبة: «لا، أستطيع أن أرى بوضوح.»

قال بابا: «فَلْتَتَكَلَّمي الآن أو تَصمُتي إلى الأبد.»

ردت ماما: «أنا بخير.»

قلت لبابا، وأنا أشير إلى صورة جوستن في البرنامج: «انظر، ها هو جوستن.»

رد وهو يومئ برأسه: «صورة جميلة.»

قلت: «لماذا لا توجد صورة لفيا؟»

قالت ماما: «إنها «رديف». لكن انظر، ها هو اسمها.»

سألت: «لماذا يسمونها «رديف»؟»

قالت ماما لبابا: «ياه، انظر إلى صورة ميرندا. لا أظن أنني كنت سأعرفها لولا الاسم.»

كررتُ القول: «لماذا يسمونها «رديف»؟»

ردت ماما: «هذا هو الاسم الذي يُطلقونه على الشخص الذي يحل محل مُمثل إذا عجز عن الأداء لسبب أو لآخر.»

قال بابا لماما: «هل سمعت أن «مارتن» سيتزوج؟»

أجابته ماما، كما لو كانت قد تفاجأت: «أنت تمزح!»

سألتُ: «مَن هو مارتن؟»

أجابت ماما: «والد ميرندا.»

ثم سألتُ بابا: «مَن أخبرك؟»

«قابلتُ والدة ميرندا بالمصادفة في المترو، وهي ليست سعيدة بذلك. إنه ينتظر طفلًا في الطريق أيضًا.»

قالت ماما، وهي تهز رأسها: «ياه!»

قلت: «عن أي شيء تتكلمان؟»

أجاب بابا: «لا شيء.»

قلت: «لكن لماذا يسمونها «رديف»؟»

أجاب بابا: «لا أعرف يا أوجي دوجي. ربما لأن الممثل «يردف» الممثل الأصلي، أي يأتي وراءه، أو شيء من هذا القبيل. أنا لا أعرف حقًّا.»

أوشكتُ على قول شيء آخر، لكن الأنوار انطفأت. وفي لحظة صَمَت الجمهور تمامًا.

همستُ في أذن بابا: «بابا، هل يمكن من فضلك ألا تناديني أوجي دوجي بعد ذلك؟»

ابتسم بابا وأومأ برأسه ورفع إبهامه علامة على الموافقة.

بدأت المسرحية. فُتح الستار. كان المسرح خاليًا تمامًا إلا من جوستن، يجلس على كرسيٍّ هزَّاز قديم، يضبط أوتار كمانه. كان يرتدي بدلة من طراز قديم، ويضع على رأسه قبعة من القش.

قال للجمهور: «هذه المسرحية تُسمَّى «بلدتنا». كتبها «ثورنتون وايلدر»، من إنتاج وإخراج «فيليب دافنبورت»... اسم البلدة هو «جروفرز كورنرز»، في ولاية نيوهامشاير - على حدود ولاية ماساشوتس، خط عرض ٤٢ درجة و٤٠ دقيقة، وخط طول ٧٠ درجة و٣٧ دقيقة. الفصل الأول يستعرض يومًا في بلدتنا. اليوم هو ٧ مايو ١٩٠١. والوقت قبل الفجر بقليل.»

عرفتُ لحظتها أنني سأحب هذه المسرحية. لم تكن مثل المسرحيات المدرسية الأخرى التي ذهبتُ إليها. مثل «ساحر أوز» أو «غائم مع فرصة تساقط اللحوم». لا، هذا عرض مخصص للكبار، وشعرت بالذكاء وأنا أجلس هناك وأشاهده.

بعدها بقليل، تنادي شخصية اسمها السيدة ويب على ابنتها، إميلي. كنت أعرف من البرنامج أن هذا هو الدور الذي تلعبه ميرندا، وهكذا مِلْتُ إلى الأمام لأحظى بإطلالة أفضل عليها.

همست ماما لي وهي تضيق عينيها ناحية المسرح لحظة خروج إميلي: «إنها ميرندا. تبدو مختلفة جدًّا...»

همستُ: «إنها ليست ميرندا. إنها فيا.»

قالت ماما، وهي تندفع إلى الأمام في كرسيها: «يا ربي!»

قال بابا: «ششش!»

همست ماما له: «إنها فيا.»

همس بابا مُبتسمًا: «أعرف. ششش!»

النهاية

كانت المسرحية غاية في الروعة. لا أريد أن أكشف النهاية، لكنها من تلك النهايات التي تجعل عيون الجمهور تدمع. فقدت ماما السيطرة على نفسها تمامًا عندما قالت فيا - في دور إميلي: «وداعًا، وداعًا أيها العالم! وداعًا يا «جروفرز كورنرز»... ماما وبابا. وداعًا للساعات التي تدق ولزهور دوّار الشمس التي زرعَتْها ماما. للطعام والقهوة. للملابس المكوية حديثًا والحمّامات الساخنة... للنوم والاستيقاظ. آه، أيتها الأرض، أنتِ أروع مِن أن يفهمك أيُّ إنسان.»

كانت فيا تبكي بجد وهي تقول ذلك. دموع حقيقية رأيتها تنحدر على خديها. كان الأمر غاية في الروعة.

بعد نزول الستار، بدأ كل الجمهور يصفق. ثم خرج الممثلون واحدًا بعد آخر. كانت فيا وجوستن آخِر من يخرج، وعندما ظهرا، وقف كل المتفرجين على أقدامهم.

سمعت بابا يصيح واضعًا يديه حول فمه: «برافو!»

قلت: «لماذا وقف الجميع؟»

قالت ماما وهي تنهض: «إنها تحية الوقوف.»

وهكذا وقفتُ وأخذت أُصَفِّق وأُصَفِّق. صَفَّقتُ حتى آلمَتْني

يداي. وللحظةٍ، تصورت كم هو رائع أن يكون المرء مكان فيا وجوستن لحظتها، وكل هؤلاء الناس يقفون ويهتفون لهما. أعتقد أنها يجب أن تكون قاعدة: أن يتمتع كل إنسان في العالم بتحية الوقوف لمرّة في حياته على الأقل.

أخيراً، بعد دقائق طويلة، تَراجع صف الممثلين إلى الخلف، ونزلت الستارة أمامهم. توقف التصفيق وأضاءت الأنوار وبدأ الجمهور في الخروج. شققنا طريقنا أنا وماما وبابا إلى الكواليس. كان حشدٌ من الناس يُهنئون الممثلين، يحيطون بهم ويربتون على ظهورهم. رأينا فيا وجوستن في وسط الحشد، يبتسمان للجميع، يضحكان ويتكلمان.

صاح بابا مناديًا، وهو يُلَوِّح بيده ويشق طريقه عبر الحشد: «فيا!»

عندما اقترب بما يكفي، احتضنها ورفعها قليلًا عن الأرض: «كنتِ رائعة يا حبيبتي!»

وكانت ماما تصرخ من فرط الإثارة: «يا ربي! يا ربي! يا ربي!»

كانت تحضن فيا بقوة حتى ظننت أن فيا ستختنق، لكن فيا كانت تضحك... قال بابا: «كنت بارعة!»

وقالت ماما، وهي تومئ وتهز رأسها في الوقت نفسه: «بارعة!»

قال بابا، وهو يصافح جوستن ويعطيه حضنًا في الوقت نفسه: «وأنت يا جوستن، كنت مُدهشًا!»

وكررت ماما: «مُدهشًا!»

كانت منفعلة، حتى إنها كانت تتكلم بصعوبة.

قال بابا: «يا لها من مفاجأة أن نراكِ هناك يا فيا.»

قلت: «ماما لم تعرفك لحظة ظهورك.»

قالت ماما، ويدها على فمها: «لم أعرفك!»

قالت فيا، مقطوعة الأنفاس: «ميرندا شعرت بالإعياء قبل بدء العرض مباشرة. لم يكن هناك وقت حتى للإعلان عن ذلك.»

يجب أن أقول إنها بدت غريبة نوعًا، لأنها كانت تضع كل هذه المساحيق، ولم أكن رأيتها هكذا من قبل.

قال بابا: «وأنتِ خرجتِ هكذا؟ في آخر لحظة؟»

قال جوستن، وهو يحيط فيا بذراعه: «كانت مدهشة، أليس كذلك؟»

قال بابا: «لم يستطع أحد من الجمهور أن يمنع نفسه عن البكاء.»

قلت: «هل ميرندا بخير؟»

لكن أحدًا لم يسمعني.

في تلك اللحظة، اتجه إلى جوستن وفيا رجلٌ ظننته مُدَرِّسَهما، وهو يصفق بيديه: «برافو، برافو! أوليفيا وجوستن!»

قبَّل فيا على خديها.

قالت فيا، وهي تهز رأسها: «لقد أخطأتُ في بعض السطور.»

قال الرجل، وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «لكنك تصرفتِ.»

قالت فيا: «أستاذ دافنبورت، هذان والداي.»

قال، وهو يصافحهما بكلتا يديه: «لا بد أنكما فخوران جدًّا بابنتكما.»

«بالتأكيد.»

قالت فيا: «وهذا شقيقي الأصغر أوجست.»

بدا أنه يوشك أن يقول شيئًا، لكنه تجمَّد فجأة عندما نظر إليَّ.

قال جوستن، وهو يسحبه من ذراعه: «أستاذ «دي»، تعالَ وقابِل والدتي.»

كادت فيا أن تقول شيئًا لي، لكن شخصًا آخر جاء وبدأ يتكلم معها، وقبل أن ألاحظ، وجدتني وحيدًا وسط الزحام. أقصد، كنت أعرف أين ماما وبابا، لكن كان هناك الكثير من الناس حولنا، وظل الناس يتوافدون، يدورون حولي قليلًا، ينظرون إليَّ نظرتين (الأولى والثانية)، ما جعلني أشعر بالضيق. لا أعرف إن كان ذلك لأنني شعرت بالحر أم ماذا، لكنني بدأت أدوخ. كانت وجوه الناس تتوالى مُشَوَّشة في رأسي. وأصواتهم عالية جدًّا، حتى إنها تكاد تؤذي أذنيَّ. حاولت أن أخفض صوت أذنَي لوبوت، لكنني ارتبكت ورفعت الصوت أولًا، وهو ما أصابني بما يُشبه الصدمة. ثم رفعت رأسي، فلم أرَ لا ماما ولا بابا ولا فيا حولي.

صحت قائلًا: «فيا!»

وبدأت أدفع الناس وأشق طريقي في الزحام بحثًا عن ماما:

«ماما!»

لم أستطع أن أرَ شيئًا من حولي إلا بطون الناس وربطات الأعناق.

«ماما!»

فجأة رفعني شخص من الخلف.

قال وجه مألوف، وهو يحتضنني بقوة: «انظر مَن هنا!»

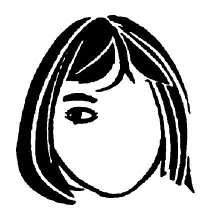
ظننتها فيا في البداية، لكن عندما استدرت، أخذتني المفاجأة.

قالت: «أهلًا بـ«الميجور توم»!»

رددتُ: «ميرندا!»

وحضنتها بكل ما عندي من قوة.

الجزء السابع



ميرندا

«نسيت أنني قد أرى
كثيراً من الأشياء الجميلة
نسيت أنني قد أريد
أن أكتشف أية هدايا تمنحها الحياة.»
- أندين، من أغنية «أشياء جميلة»

أكاذيب المخيم

حدث الطلاق بين والدَي في الصيف الذي سبق الصف التاسع. ورافق والدِي امرأة أخرى على الفور. في الواقع، ومع أن أمي لم تقل ذلك قَطُّ، أظن أن ذلك كان السبب في طلاقهما.

بعد الطلاق، لم أعد أرى والدي تقريبًا، وأصبحت أمي تتصرف بغرابة أكثر من أي وقت مضى. لا أقول إنها صارت مهزوزة أو أي شيء؛ فقط نائية، بعيدة. أمي من أولئك الأشخاص الذين يصدِّرون للناس وجهًا سعيدًا، لكن عندما تعود إليَّ لا يبقى لي كثير من هذا الوجه. لم يكن من عادتها أن تتكلم معي كثيرًا - لا عن مشاعرها، ولا عن حياتها. لا أعرف الكثير عنها عندما كانت في سني. لا أعرف الكثير عن الأشياء التي كانت تُحبها أو لا تُحبها. في المرّات القليلة التي تكلمت فيها عن والديها، اللذين لم أقابلهما قَطُّ، كانت تحكي في الغالب كيف كانت، وهي صغيرة، ترغب في الابتعاد عنهما بقدر الإمكان عندما تكبر. لم تخبرني بالسبب قَطُّ. سألتها بضع مرّات، لكنها كانت تتظاهر بأنها لم تسمعني.

لم أرغب في الذهاب إلى المخيم ذاك الصيف. كنت أريد أن أبقى معها، أن أساعدها على تجاوز محنة الطلاق. لكنها أصرت على أن أذهب. قدّرتُ أنها تريد وقتًا بمفردها، فأعطيتها هذا الوقت.

كان المخيم فظيعًا، وقد كرهته. ظننت أن الأمور ستكون أفضل بعد أن أصبحتُ من «المرشدات الشابات»، لكنها لم تكن أفضل. لم يظهر أي من معارفي من العام السابق، فوجدتني لا أعرف أحدًا - ولا أي شخص. لست متأكدة من السبب، لكنني بدأت ألعب لعبة الخداع مع البنات في المخيم. كن يسألنني عن نفسي، فأخترع أشياء: قلت لهم إن والديَّ في أوروبا. إنني أعيش في بيت كبير في أجمل شارع في «نورث ريفر هايتس». إن لديَّ كلبة اسمها دايزي.

ثم، ذات يوم، قلت بلا تفكير إن لديَّ شقيقًا أصغر يعاني من «تَشوُّه». ليست لديَّ أدنى فكرة لماذا قلت ذلك؛ بدا لي شيئًا مثيرًا. وبالطبع، كان رد الفعل الذي حصلت عليه من البنات الصغيرات في الكوخ دراميًّا: «حقًّا؟» «شيء مؤسف جدًّا!» «لا بد أنه أمر قاسٍ!»... إلى آخره... إلى آخره. ندمت على قول ذلك فور أن أفلَتَتِ الكلمات من بين شفتي، بالطبع، شعرت كم أنا زائفة. وفكرتُ أن فيا، إذا عرفت بالأمر، ستقول عني إنني لست سَوِيَّة، وشعرت أنني لست سَوِيَّة. لكن، يجب أن أعترف: كان جزءٌ مني يشعر بأنني أستحق تلك الكذبة؛ لقد عرفت أوجي منذ كنت في السادسة من عمري، لقد تابعته وهو يكبر، لقد لعبت معه، لقد شاهدت الأجزاء الستة كلها من «حرب النجوم» من أجل خاطره، حتى أستطيع أن أتكلم معه عن الفضائيين وصائدي الجوائز وكل تلك الأمور. أنا مَن أعطته خوذة رائد الفضاء التي ظل لا يخلعها لسنتين. أقصد، كان يحق لي أن أفكر فيه بوصفه شقيقي.

أما أغرب شيء، فهو أن تلك الأكاذيب التي قلتها، تلك الوقائع الخيالية، كان لها أثر الأعاجيب في شَعْبيَّتي. كانت بقية «المرشدات الشابات» يسمعنها من المخيمين، وكلهن يتكلون عنها. لم يسبق لي في حياتي أن اعتُبِرت واحدة من الفتيات «ذوات الشعبية الواسعة» في أي شيء، لكن في ذلك الصيف في المخيم، وأيًّا كان السبب، كنت الفتاة التي يريد الجميع مرافقتها. حتى البنات في الكوخ رقم ٣٢ كن شديدات الاهتمام بي، وهؤلاء كن على رأس «السلسلة الغذائية». كن يُبدين إعجابهن بشَعري (وإن غيَّرنه)، وبطريقة استخدامي لمساحيق التجميل (وإن غيَّرن ذلك أيضًا). وعلمنني كيف أحول التيشيرت إلى قميص بلا أكمام، مربوط حول الرقبة. ورحنا ندخِّن معًا، ونتسلل معًا آخر الليل خارج المخيم لنسلك الطريق عبر الغابة إلى مخيم الأولاد، ونتسكع مع الأولاد.

عندما عدت من المخيم إلى البيت، اتصلتُ بإيلا على الفور لكي أضرب مواعيد معها. لا أعرف لماذا لم أتصل بفيا. أظن أنني لم أشعر برغبة في الكلام معها. كانت ستسألني عن والدي، وعن المخيم. إيلا لم تسألني عن أي شيء قَطُّ. كانت أسهل صديقة من هذه الناحية. لم تكن جادة مثل فيا. كانت مرحة. وعندما صبغتُ شعري باللون الوردي، كان رأيها أن ذلك لطيفٌ. وكانت تحب أن تسمع عن كل تلك الجولات الليلية في الغابة.

المدرسة

نادرًا ما كنت أرى فيا في المدرسة هذا العام، وعندما كنت أراها كان يسود الارتباك. كنت أشعر أن لديها حُكمًا عليَّ. أعرف أنها لا تحب مظهري الجديد. أعرف أنها لا تحب شلة أصدقائي، وأنا أيضًا لم أكن أحب شلة أصدقائها. لم نتناقش في الأمر على الإطلاق. فقط انجرفَت كلٌّ منا بعيدًا عن الأخرى. أخذت أنا وإيلا نتكلم عنها بسوء: كم هي مبالِغة في الاحتشام، كم هي هذا، وكم هي ذاك. نعرف أن تلك كانت خِسة منا، لكن كان أسهل علينا أن نتخلص منها إذا تظاهرنا بأنها أخطأت في حقنا. لكن الحقيقة أنها لم تتغير على الإطلاق. نحن تغيرنا. لقد أصبحنا بِنتين مختلفتين، وظلت هي كما كانت. وقد أزعجني هذا كثيرًا، لا أعرف لماذا.

بين حين وآخر، كنت أنظر لأرى أين تجلس في قاعة الغداء، أو أراجع قائمة المواد الاختيارية لأرى أية مواد سجلت فيها. لكن باستثناء الإيماءات القليلة بالرأس في الممرّات وكلمة «أهلًا» من وقت إلى آخر، لم نتكلم مُطلقًا.

لاحظتُ جوستن في منتصف العام الدراسي تقريبًا. لم أكن لاحظته من قبل، باستثناء كونه شابًّا جميلًا نحيلًا له نظارة سميكة وشعر طويل ويحمل كمانًا معه أينما ذهب. ثم، ذات

يوم، رأيته أمام المدرسة واضعًا ذراعه حول فيا. وقلت لإيلا، بنوع من السخرية: «إذًا، فيا لديها حبيب!». لا أعرف لماذا أدهشني أن يكون لها حبيب. لقد كانت الأكثر جمالًا بيننا نحن الثلاثة: عينان شديدتا الزُّرقة، وشعر داكن مموَّج طويل. لكن لم يظهر عليها قَطُّ اهتمام بالأولاد. كانت تتصرف وكأنها أذكى من أن تعنيها هذه الأشياء.

أنا أيضًا كان لي حبيب؛ شاب اسمه «زاك». عندما أخبرته بأنني قررت التسجيل في المسرح كمادة اختيارية، هز رأسه وقال: «انتبهي حتى لا تتحولي إلى مهووسة بالدراما». لم يكن الشاب الأكثر تعاطفًا في العالم، لكنه كان جميلًا جدًّا. كما كان له مكان على أعلى سلم الشهرة، إذ كان نجمًا من نجوم الرياضة.

لم أُخطط لاختيار المسرح في البداية. ثم رأيت اسم فيا على لوحة التسجيل، فكتبت اسمي في القائمة. لا أعرف حتى لماذا فعلت ذلك. لقد حرصتْ كلٌّ منا على تجنُّب الأخرى طوال معظم الفصل الدراسي، وكأننا لا تعرف إحدانا الأخرى. ثم، ذات يوم، دخلتُ فصل المسرح مُبكرًا قليلًا، وطلب مني دافنبورت أن أصوِّر نُسخًا أخرى من المسرحية التي كان يخطط لأن يجعلنا نؤديها في الربيع، مسرحية «الرجل الفيل». كنت قد سمعت بها لكنني لا أعرف قصتها، فبدأت أتصفحها وأنا في انتظار ماكينة التصوير. كانت عن رجل عاش قبل أكثر من مائة عام اسمه «جون ميريك»، مشوَّه بطريقة فظيعة.

عندما رجعت إلى الفصل قلت له: «لا نستطيع أن نُمثّل تلك المسرحية يا أستاذ دي»، وأخبرته بالسبب، «شقيقي الأصغر لديه عيب خِلقي ولديه وجه مُشوّه، وتلك المسرحية سوف تصطدم به.» بدا عليه الضيق وقَذْر من عدم التعاطف، لكنني قلت إن والديَّ سوف يقفان وقفة جادة إذا أنتجت المدرسة هذه المسرحية. وهكذا، انتهى الأمر باستبدالها بمسرحية «بلدتنا».

أعتقد أنني تقدمت لدور إميلي جيبس لأنني عرفت أن فيا ستتقدم له هي الأخرى، ولم يخطر ببالي أنني سأتفوق عليها وأحصل على الدور.

أكثر ما أفتقده

أحد أكثر الأشياء التي أفتقدها في صداقتي لفيا، هو أُسرتها. كنت أحب والدها ووالدتها. دائمًا يرحبان بي ويعاملانني بلُطف. عرفت أنهما يحبان طفليهما أكثر من أي شيء. ولطالما شعرت بالأمان وأنا بجوارهما؛ أمان أكثر من أي مكان آخر في العالم. كم هو مثير للشفقة أن أشعر بالأمان في بيت شخص آخر أكثر مما أشعر به في بيتي، صح؟ وبالطبع، أحببت أوجي. لم أخَف منه قَطُّ، حتى وأنا صغيرة. كان عندي أصدقاء لا يُصدِّقون أنني أذهب إلى بيت فيا. كانوا يقولون: «وجهه يُخيفنا»، فأقول لهم: «أنتم أغبياء». عندما تعتاد على وجه أوجي لا يعود بهذا السوء.

اتصلت مرّة بمنزل فيا لكي أُسلِّم على أوجي. ربما كان جزء مني يأمل أن ترد فيا على التلفون، لا أعرف.

قلت له، مستخدمة الاسم الذي أناديه به: «أهلًا أيها الميجور توم.»

«ميرندا!»

بدا سعيدًا جدًّا لسماع صوتي، حتى إن ذلك أدهشني.

«أنا أذهب إلى مدرسة عادية الآن.»

قلت وقد أصابتني صدمة حقيقية: «بجد؟ رائع!»

أظن أنني لم أفكر قطُّ أنه قد يذهب إلى مدرسة عادية. لطالما كان والداه حريصين على حمايته. أظن أنني فكرت أنه سيظل دائمًا هذا الطفل الصغير الذي يضع خوذة رائد الفضاء التي أعطيتها له. وحين كنت أتكلم معه، عرفت أنه ليست لديه فكرة عن أنني وفيا لم نعد صديقتين.

أوضحت له: «الأمر مختلف في المدرسة الثانوية. هناك تُخالِط الكثير من الرفاق الجُدد.»

قال لي: «عندي بعض الأصدقاء في مدرستي الجديدة: ولد اسمه جاك، وبنت اسمها سمر.»

قلت: «هذا رائع يا أوجست. طيب، كنت فقط أتصل لأُخبرك أنني أفتقدك وأتمنى أن تقضي عامًا طيبًا. اتصل بي متى أردت، اتفقنا يا أوجي؟ أنت تعرف أنني أُحبُّك دائمًا.»

«وأنا أيضًا أُحبُّك يا ميرندا!»

«انقل تحياتي لفيا، وقل لها إنني أفتقدها.»

«سأقول لها. سلام!»

«سلام!»

فَلتة، لكن من يراني؟

لا أمي ولا أبي استطاعا الحضور لرؤية المسرحية ليلة الافتتاح: أمي لأنها كانت مشغولة في العمل، وأبي لأن زوجته الجديدة كانت ستلد طفلها بين لحظة وأخرى، ويجب أن يكون تحت الطلب.

زاك أيضًا لم يستطع الحضور ليلة الافتتاح؛ كانت عنده مباراة كرة طائرة أمام مدرسة «كوليجبيت» ولا يستطيع أن يُفوِّتها. بل إنه أرادني أنا أن أفوِّت ليلة الافتتاح حتى أحضر وأشجعه. وبالطبع ذهبَت كل «صديقاتي» إلى المباراة، لأن أصدقاءهن الأولاد يلعبون فيها. حتى إيلا لم تحضر؛ فعندما حانت لحظة الاختيار، اختارت أن تبقى مع الشلة.

وهكذا، لم يحضر في ليلة الافتتاح أيُّ شخص كان مُقربًا مني ولو من بعيد. الحقيقة أنني أدركت في بروفتي الثالثة أو الرابعة أنني جيدة في مسألة التمثيل هذه. أحسست بالدور، وفهمت الكلمات التي أُلقيها. وكان بوسعي إلقاء السطور وكأنها تخرج من عقلي ومن قلبي. وفي ليلة الافتتاح، أستطيع أن أقول بأمانة إنني تأكدت أنني سأكون أكثر من جيدة: سأكون عظيمة. سأكون فَلتة، لكن لن يكون هناك من يراني.

كنا جميعًا في الكواليس، نراجع سطورنا في رؤوسنا بتوتر. اختلستُ النظر من وراء الستار إلى الناس وهم يجلسون في

مقاعدهم في القاعة. عندها رأيت أوجي يسير في الممر مع إيزابيل ونيت. جلسوا في ثلاثة مقاعد في الصف الخامس، قرب المنتصف. كان أوجي يضع «بابيون»، وينظر حوله بإثارة. كان قد كبر قليلًا منذ آخر مرّة رأيته، قبل عام تقريبًا. شعره أقصر، وصار يضع سماعة. لكن وجهه لم يتغير على الإطلاق.

كان دافنبورت يُجري بعضًا من تغييرات اللحظة الأخيرة مع مصمم الديكور. ورأيت جوستن يذرع الخشبة جيئة وذهابًا، وهو يهمهم بسطوره في ارتباك.

قلت، وأنا أستغرب الكلام الذي يخرج مني: «أستاذ دافنبورت. أنا آسفة، لكنني لا أستطيع الصعود على الخشبة الليلة!»

قال: «ماذا!؟»

«آسفة!»

«هل تمزحين؟!»

غمغمت، مُنَكّسة الرأس: «كل ما في الأمر أنني... لا أشعر أنني على ما يُرام. آسفة. أشعر بالإعياء.»

كانت تلك كذبة.

«إنها رهبة اللحظة الأخيرة ليس إلا...»

«لا! لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنا أقول لك.»

بدا الغضب على وجه دافنبورت: «ميرندا، هذا فظيع!»

«آسفة!»

سحب دافنبورت نفَسًا عميقًا، وكأنما يحاول السيطرة على

نفسه. الحقيقة، بدا أنه على وشك الانفجار، وتحولت جبهته إلى اللون الوردي الفاتح: «ميرندا، هذا الأمر غير مقبول على الإطلاق! الآن اذهبي واسحبي أنفاسًا عميقة و...»

قلت بصوت عالٍ، والدموع تسيل من عيني: «لن أصعد!»

صرخ، من دون أن ينظر إليّ: «حسنًا!»

ثم استدار إلى ولد اسمه دافيد، وكان مصمم ديكور: «اذهب وابحث عن فيا في غرفة الإضاءة! قل لها إنها ستحل محل ميرندا الليلة!»

قال دافيد، الذي كان بطيئًا بطبيعته: «ماذا؟»

صاح دافنبورت في وجهه: «اذهب! الآن!»

كان بقية التلاميذ قد سمعوا ما يحدث وتجمّعوا حولنا.

قال جوستن: «ماذا يحدث؟»

قال دافنبورت: «تغيير في الخطة في اللحظة الأخيرة. ميرندا ليست على ما يُرام.»

قلت، بصوت حاولت أن يبدو مريضًا: «أشعر بالإعياء.»

قال لي دافنبورت غاضبًا: «إذًا، لماذا لا تزالين هنا؟ كُفّي عن الكلام، واخلعي ملابسك، وأعطيها لأوليفيا! اتفقنا؟ هيا، جميعًا! هيا! هيا! هيا!»

جريت في الكواليس إلى غرفة الملابس بأقصى سرعة، وبدأت أخلع ملابسي. بعدها بلحظات سمعت طَرقًا وفتحَت فيا الباب نصف فتحة.

قالت: «ما الذي يجري؟»

أجبتها، وأنا أناولها الفستان: «أسرعي، ضعي هذا.»

«أنت مريضة؟»

«نعم! أسرعي!»

خلعت فيا، التي بدا عليها الذهول، التيشيرت والبنطلون الجينز، ووضعت الفستان الطويل في رأسها. ساعدتها وشددت لأسفل، ثم أغلقتُ السوستة في ظهره. لحُسن الحظ، لم يكن من المقرر خروج إميلي إلا بعد عشر دقائق من بداية المسرحية، وهكذا وجدت الفتاة المسؤولة عن الشعر والمكياج الوقت لتَعقص شعر فيا فوق رأسها وتضع لها مكياجًا سريعًا. لم أكن قد رأيت فيا بهذا الكم من المكياج من قبل؛ بدت مثل عارضة أزياء.

قالت فيا، وهي تنظر إلى نفسها في المرآة: «أنا لست متأكدة حتى من كوني أحفظ سطوري. سطورك!»

قلت: «ستؤدين أداءً رائعًا.»

نظرت إليَّ في المرآة: «لماذا تفعلين ذلك يا ميرندا؟»

«أوليفيا!»

كان دافنبورت يصيح بصوت هامس من الباب: «ستخرجين بعد دقيقتين. إما الآن وإما فلا.»

تَبِعَتْه فيا خارجة من الغرفة، فلم أجد الفرصة لأجيب عن سؤالها. لا أعرف ماذا كنت سأقول، على أية حال. لم أكن متأكدة من الإجابة.

العرض

شاهدت بقية المسرحية من جناح المسرح في الكواليس، بجوار دافنبورت. كان جوستن مُدهشًا، وفيا، في المشهد الأخير الذي يُقطِّع القلوب، كانت رائعة. أخطأتْ قليلًا في سطر واحد، لكن جوستن غطاها، حتى إن أحدًا من الجمهور لم يلاحظ. سمعت دافنبورت يُتمتم هامسًا: «جيد، جيد، جيد». كان أكثر توترًا من كل الطلاب مجتمعين معًا: الممثلين، مصممي الديكور، فريق الإضاءة، الشاب المسؤول عن الستارة. كان دافنبورت حطامًا، بصراحة.

اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بقدر من الندم، إذا كان بوسعك أن تسميه هكذا أصلًا، كانت في نهاية المسرحية عندما خرج الجميع لتحية الجمهور. كانت فيا وجوستن آخر من صعد على الخشبة من الممثلين، ووقف الجمهور على أقدامه عندما انحنيا. أعترف أن تلك كانت لحظة متعة ممزوجة بالألم بالنسبة إليَّ. لكن بعدها بدقائق قليلة رأيت نيت وإيزابيل وأوجي يَشُقُّون طريقهم إلى الكواليس، وقد بدت السعادة عليهم جميعًا. كان الجميع يهنئون الممثلين، ويربتون على ظهورهم. كانت تلك الفوضى المجنونة المميزة لكواليس المسرح حيث يقف الممثلون المتعرقون مُنتَشِينَ فيما يتوافد الناس لتحيتهم لبضع ثوان. ووسط

هذا الحشد، لاحظت أوجي وقد بدا عليه الضياع. اندسست وسط الزحام بأسرع ما استطعت وجئت من خلفه. قلت: «أهلًا بـ«الميجور توم»!»

بعد العرض

لا أستطيع تحديد سبب سعادتي لرؤية أوجست ثانية بعد هذه الفترة الطويلة، أو أن أصف إحساسي عندما احتضنني.

قلت له: «لا أصدِّق كم كبرت.»

قال: «ظننت أنك ستكونين في المسرحية.»

قلت: «لم أكن جاهزة، لكن فيا كانت عظيمة، ألا ترى ذلك؟»

أومأ برأسه، وبعد ثانيتين وجدتنا إيزابيل.

قالت بسعادة وهي تعطيني قُبلة على خدي: «ميرندا!»

ثم التفتت إلى أوجست وقالت: «إياك أن تختفي هكذا ثانية.»

رد أوجي: «أنت التي اختفيتِ.»

قالت لي إيزابيل: «كيف حالك الآن؟ فيا أخبرتني أنك شعرت بالإعياء.»

أجبت: «أحسن كثيراً.»

قالت إيزابيل: «هل والدتك هنا؟»

قلت صادقة: «لا، لديها عمل، لذا فالأمر ليس مُهمًّا بالنسبة إليَّ. على أية حال أمامنا عرضان آخران، مع أنني لا أظن أنني سأكون جيدة في دور إميلي مثلما كانت فيا الليلة.»

جاء نيت ودار بيننا الحوار نفسه تقريبًا. ثم قالت إيزابيل: «اسمعي، سنُنظم عشاء احتفالًا بالمسرحية. هل ترغبين في الانضمام إلينا؟ سوف يُسعدنا ذلك.»

بدأت أقول: «آه، لا...»

قال أوجي: «أرجووووكِ!»

قلت: «يجب أن أرجع إلى المنزل.»

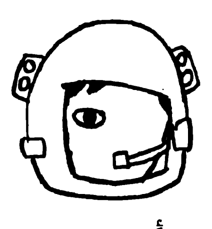
قال نيت: «نحن مُصِرُّون.»

في ذلك الوقت كانت فيا وجوستن قد جاءا مع والدة جوستن، ووضعت فيا ذراعها حولي.

قالت، وهي تبتسم لي ابتسامتها القديمة: «لا تجادلي. ستأتين.»

تقدموني للخروج من وسط الزحام، وينبغي أن أعترف أنني شعرت، للمرّة الأولى منذ وقت طويل جدًّا جدًّا، بسعادة غامرة.

الجزء الثامن



أوجست

«سوف تصل إلى عنان السماء

فحلِّق... يا طفلي الجميل.»

- فريق يوريثمكس، من أغنية «طفلي الجميل»

مخيم «العودة إلى الطبيعة» لتلاميذ الصف الخامس

في فصل الربيع من كل عام، يذهب تلاميذ الصف الخامس في مدرسة بيتشر الخاصة لقضاء ثلاثة أيام وليلتين في مكان اسمه «محمية برورووود الطبيعية» في بنسلفانيا، على بُعد أربع ساعات بالحافلة. حيث ينام التلاميذ في أكواخ بها أسِرَّة بدورين. جلسات سمر حول النار، وحلوى الـ«سمور»، وجولات طويلة في الغابة. وقد ظل المُدرِّسون يشحنوننا لهذا الحدث على مدى العام، وهكذا أصبح كل التلاميذ في صفِّي مُتحمسين للأمر - إلا أنا. لا أقول إنني لست مُتحمسًا، فأنا مُتحمس نوعًا، لكن لم يسبق لي المبيت خارج المنزل من قبل، وقد جعلني هذا متوترًا إلى حدٍّ ما.

معظم الأولاد في سِنِّي سبق لهم المبيت خارج المنزل. الكثير من الأولاد باتوا ليالي في مخيمات، أو عند أجدادهم، أو غير ذلك. إلا أنا. إلا إذا حسبت ليالي الإقامة في المستشفى، ولكن حتى في تلك الليالي كنت أقضي الليل بصحبة ماما أو بابا. لكنني لم أبِت في بيت تاتا أو بوبا، أو الخالة كيت أو العم بو. عندما كنت صغيرًا جدًا، كان السبب الأساسي هو تلك المسائل الطبية العديدة، مثل ضرورة تنظيف أنبوب القصبة الهوائية الخاص بي كل ساعة، أو

إعادة إدخال أنبوب التغذية الخاص بي إذا أفلت من مكانه. لكن عندما كبرت، وجدت أنني لا أشعر بالرغبة في النوم في أي مكان آخر. مرّة واحدة كدت أبيت في منزل كريستوفر. كنا في الثامنة تقريبًا، ولا نزال صديقين. وكانت أسرتي قد ذهبت في زيارة إلى منزله، وكنت أنا وكريستوفر نقضي وقتًا عظيمًا ونحن نلعب بمكعبات «حرب النجوم»، حتى إنني لم أرغب في الرحيل عندما حان وقت المغادرة. وأخذنا نقول: «من فضلكم، من فضلكم، من فضلكم، هل يُمكننا المبيت معًا الليلة؟»، وهكذا وافق الآباء، وعادت ماما وبابا وفيا بالسيارة إلى المنزل. وظللنا أنا وكريستوفر مستيقظين حتى منتصف الليل نلعب، حتى قالت ليسا، والدته: «طيب يا شباب، لقد حان وقت النوم». عندها أصابني الذُعر. حاولت ليسا مساعدتي على النوم، لكنني بدأت أبكي وأقول إنني أريد العودة إلى البيت. وهكذا، اتصلت ليسا بماما وبابا في الواحدة صباحًا، وعاد بابا بالسيارة كل هذا الطريق إلى بريدجبورت، وأخذني. لم نصل إلى المنزل قبل الثالثة صباحًا. وهكذا كان مبيتي الوحيد، حتى الآن، أشبه بكارثة. وهذا هو ما جعلني متوترًا قليلًا بشأن مخيم «العودة إلى الطبيعة» هذا.

من ناحية أخرى، فأنا مُتحمس جدًا.

بهذا يعرفونني

طلبتُ من ماما أن تشتري لي حقيبة جديدة بعجلات، لأن حقيبتي القديمة عليها صور من «حرب النجوم»، ولا مجال أن آخذها معي في مخيم «العودة إلى الطبيعة» لتلاميذ الصف الخامس. فبقدر ما أحب «حرب النجوم»، بقدر ما لا أريد أن يكون ذلك ما أُعرف به. كل شخص يُعرف بشيء في المدرسة الإعدادية: ريد مثلًا معروف بحبه للحياة البحرية والمحيطات وأشياء من هذا القبيل. وأموس، معروف بمهارته في البيسبول. وتشارلوت معروفة بأنها ظهرت في إعلان تلفزيوني عندما كانت في السادسة. وهيمينا معروفة بذكائها الشديد.

ما أقوله هو أنه في المدرسة الإعدادية تُعرف باهتماماتك، وعليك أن تكون حريصًا بشأن أشياء كهذه. فماكس جي وماكس دبليو - على سبيل المثال - لن يتعايشا أبدًا مع العار الذي سببه لهما ولَعُهُما بلعبة «الزنازين والتنانين».

وهكذا، كنت أحاول تخفيف حِدة مسألة «حرب النجوم» قليلًا. أقصد، سيظل هذا العالم مُهمًّا بالنسبة إليّ دائمًا، كما كان مُهمًّا بالنسبة إلى الطبيب الذي ركّب لي السماعة. لكنه ليس الشيء الذي أردت أن أُعرف به في المدرسة الإعدادية. لست متأكدًا من الشيء الذي أريد أن أُعرف به، ولكنه ليس هذا.

وهذا ليس صحيحًا بالضبط؛ فأنا أعرِف فعلًا ما أنا معروف به، لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا حيال ذلك. أما حقيبة «حرب النجوم» ذات العجلات، فأستطيع أن أفعل شيئًا حِيَالَها.

توضيب الحقيبة

ساعدتني ماما على توضيب الحقيبة ليلة الرحلة الكبرى. وضعنا كل الملابس التي سآخذها معي على السرير، وأخذتْ تُطبِّق كل شيء بانتظام وتضعه داخل الحقيبة وأنا أراقبها. كانت حقيبة بعجلات ذات لون أزرق سادة، بالمناسبة: ليس عليها لا شعارات ولا رسومات.

سألتها: «ماذا لو لم أستطع النوم بالليل؟»

أجابت: «خُذ معك كتابًا. فإذا لم تستطع النوم، فبإمكانك أن تسحب مصباحك اليدوي، وأن تقرأ قليلًا حتى تنعس.»

أومأت برأسي: «وماذا لو رأيت كابوسًا؟»

قالت: «سيكون المُدرِّسون معك يا حبيبي، وجاك، وأصدقاؤك.»

قلت: «يُمكنني أن آخذ «بابو».»

كان هذا هو حيواني المَحْشُو المُفضَّل عندما كنت صغيرًا؛ دُبًّا أسود صغيرًا بأنف أسود ناعم.

قالت ماما: «أنت لم تَعد تنام معه، صحيح؟»

قلت: «لا، لكنني أحتفظ به في خزانتي تَحَسُّبًا لأن أستيقظ في منتصف الليل ولا أستطيع العودة إلى النوم. يُمكنني أن أُخبِّئه في حقيبتي. لن يعرف أحد.»

أومأت ماما برأسها وهي تحضر «بابو» من داخل خزانتي: «هيا نفعل ذلك إذًا.»

قلت: «أتمنى لو كانوا يسمحون بالهواتف المحمولة.»

قالت: «أعرف، وأنا أيضًا. مع أنني متأكدة أنك ستقضي وقتًا رائعًا يا أوجي. هل أنت واثق أنك تريدني أن أضع «بابو» في الحقيبة؟»

قلت: «نعم، ولكن في الأسفل حتى لا يراه أحد.»

وضعَت «بابو» داخل الحقيبة، ثم غطته بآخر تيشيرت لي.

«ملابس كثيرة جدًا على يومين فقط!»

صححتُ لها: «ثلاثة أيام وليلتان.»

أومأت برأسها، مُبتسمة: «نعم. ثلاثة أيام وليلتان.»

قفلَت سوستة الحقيبة ذات العجلات ورفعَتها: «ليست ثقيلة جدًا. جَرِّبها.»

رفعت الحقيبة. هززت كتفيَّ: «تمام.»

جلسَت على السرير: «قل لي، ماذا حدث لملصق «الإمبراطورية ترد الهجوم» الخاص بك؟»

«آه، لقد خلعته منذ زمن طويل.»

هزت رأسها: «لم ألاحظ هذا من قبل.»

شرحت لها: «أنا أحاول أن، تعرفين، أُغَيِّر صورتي قليلًا.»

ابتسمت، وهي تومئ برأسها في تفهُّم: «طيب. على أية حال يا حبيبي، يجب أن تعدني ألا تنسى رَشَّ واقي الحشرات، اتفقنا؟

على الساقين، خصوصًا قبل الذهاب للمشي في الغابة. إنه هنا في الجيب الأمامي.»

«آها.»

قالت: «وأيضًا ضَع زيت الحماية من الشمس. أنت لا تريد لبشرتك أن تحترق. ولا تنسَ، أكرّر، لا تنسَ خلع ساعتك إذا ذهبت للسباحة.»

«هل سأصعَق؟»

ضحكت، وقالت: «لا، لكنَّ أباك سيغضب منك جدًّا لأن هذه الساعة غالية جدًّا. لقد وضعت معطف المطر في الجيب الأمامي أيضًا. ونفس الأمر إذا أمطرت يا أوجي، اتفقنا؟ تأكَّد من أنك تغطي السماعة بواقي الرأس.»

قلت وأنا أؤدي لها التحية: «تمام يا أفندم!»

ابتسمت وجذبتني إليها. قالت برِقة وهي تضع يديها على جنبَيْ وجهي: «لا أُصدِّق، كم كبرت هذا العام يا أوجي.»

«هل أبدو أطول؟»

أومأت برأسها: «بالتأكيد.»

«ما زلت أقصرَ تلميذ في صفي.»

قالت: «أنا لا أتحدث عن طولك في الحقيقة.»

«وماذا لو كرهت الوضع هناك؟»

«سوف تقضي وقتًا رائعًا يا أوجي.»

أومأت برأسي. نهضَت وأعطتني قُبلة سريعة على جبيني: «طيب، علينا أن ننام الآن.»

«الساعة ما زالت التاسعة يا ماما.»

«الحافلة ستتحرك غدًا في السادسة صباحًا. لا يجب أن تتأخر. هيا. بسرعة. هل غسلت أسنانك؟»

أومأت برأسي وصعدت إلى السرير. استَعدَّتْ لِتَتمدَّد بجانبي.

قلت: «ليس ضروريًا أن تَظَلّي معي الليلة، سأقرأ وحدي حتى أروح في النوم.»

أومأت برأسها، وقد بدا عليها الإعجاب: «حقًّا؟»

ضغطتْ على يدي وأعطتني قُبلة: «طيب إذًا، تُصبح على خير يا حبيبي. أحلامًا جميلة.»

«وأنت أيضًا.»

أضاءت مصباح القراءة الصغير بجوار سريري.

قلت وهي تخرج: «سأكتب لكم خطابات. مع أنني غالبًا سأعود قبل أن تتسلَّموها.»

قالت، وهي ترمي لي قُبلة: «إذًا نقرأها معًا.»

عندما غادرَت غرفتي، تناولتُ نُسختي من كتاب «الأسد والساحرة وخزانة الملابس» من على طاولة الفراش، وبدأت أقرأ حتى رُحت في النوم.

... ومع أن الساحرة كانت تعرف السِّحر القديم، فقد كان هناك سِحر أقدم لا تعرفه. لا ترجع معرفتها إلا إلى فجر التاريخ. لكن لو كان لها أن تنظر إلى ما هو قبل ذلك، في السكون والظلمة قبل أن يبزغ فجر التاريخ، لقرأت هناك تعويذة مختلفة.

طلوع النهار

اليوم التالي استيقظت مبكرًا جدًّا. كانت غرفتي لا تزال مظلمة، والخارج أكثر ظلامًا، مع أنني كنت أعرف أن الصبح أوشك. عندها رأيت دايزي تجلس بالقرب من سريري. أقصد. أعرف أنها لم تكن دايزي، لكن للحظة رأيت ظلًّا يُشبهها تمامًا. لم أفكّر ساعتها أن ذلك حلم، لكن الآن، حين أنظر إلى الوراء، أعرف أنه لا بد كان حلمًا. لم أحزن لرؤيتها على الإطلاق، بل غمرني ذلك بمشاعر لطيفة. وقد اختفت بعد ثانية، ولم أستطع أن أراها ثانية في الظلام.

بدأت السماء تضيء ببطء. مددت يدي ناحية شريط السماعة ووضعته على رأسي، فاستيقظ العالم فعلًا. كان بوسعي سماع صخب شاحنات القمامة في الشارع، وأصوات الطيور في باحتنا الخلفية. وفي غرفة ماما، سمعت جرس المنبه. جعلني شبح دايزي أشعر بقوة داخلية فائقة، إذ عرفت أنني أينما كنت، ستكون بجانبي.

خرجت من السرير واتجهت إلى مكتبي وكتبت رسالة قصيرة لماما. ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة، حيث كانت حقيبتي بجوار الباب. فتحتها وفتشت فيها حتى عثرت على ما كنت أبحث عنه.

أعدت «بابو» إلى غرفتي، ومددته على سريري، وألصقت

الرسالة القصيرة لماما على صدره. ثم غطيته ببطانيتي حتى تجده ماما. كانت الرسالة تقول:

ماما العزيزة،

لن أحتاج إلى بابو، لكن إذا اشتقت لي، فبإمكانك أن تأخذيه أنت في حضنك.

حضن وقبلة.
أوجي.

اليوم الأول

مرت رحلة الحافلة بسرعة شديدة. جلست بجوار النافذة، وكان جاك بجواري في كرسي الممر. سمر ومايا جلستا أمامنا. كان الجميع في مزاج طيب. لا يتوقفون عن الصخب والضحك. لاحظت على الفور أن جوليان ليس في الحافلة، وإن كان هنري ومايلز هناك. قلت إنه لا بد في الحافلة الأخرى، لكنني سمعت بعدها مايلز وهو يخبر أموس أن جوليان لم يشترك في الرحلة لأنه يعتقد أن مسألة التخييم في الطبيعة بأكملها «حماقة»، على حد وصفه. وقد تحمّست كثيرًا لذلك، لأن التعامل مع جوليان لثلاثة أيام متتالية - وليلتين - كان أحد الأسباب الرئيسية التي جعلتني أتوتر من تلك الرحلة بأكملها. وهكذا، ومع غيابه، أستطيع أن أسترخي بحقٍّ وألا أحمل همًّا.

وصلنا إلى المحمية الطبيعية ساعة الظهيرة تقريبًا. كان أول ما فعلناه أن وضعنا أشياءنا في الأكواخ. كانت هناك ثلاثة أسرّة مزدوجة في كل غرفة، وهكذا لعبنا أنا وجاك لعبة «الحجر والورقة والمقص» لنُحدد من سيأخذ السرير العلوي، وفزت أنا. رائع. وكان بقية الشباب في الغرفة هم: ريد وتريستان، وبابلو ونينو.

بعد أن تناولنا غداءنا في الكوخ الرئيسي، ذهبنا جميعًا في

جولة على الأقدام وسط الغابة بصحبة أحد المُرشدين. لم تكن غابة مثل الموجودة في «سنترال بارك»، بل غابة حقيقية. أشجار عملاقة تكاد تحجب ضوء الشمس تمامًا. تشابكات من الأوراق وجذوع الأشجار الساقطة. عواء وزقزقة وصيحات طيور عالية جدًّا. كان هناك ضباب خفيف أيضًا، مثل دخان أزرق شاحب يحيط بنا من كل جانب. أمر رائع. أخذ مرشد الطبيعة يشرح لنا كل شيء: الأنواع المختلفة من الأشجار التي نمر بها، والحشرات داخل الجذوع الميتة في الطريق، وآثار الغزلان والدِّبَبة في الغابة، وما هي أنواع الطيور التي تُصَفِّر وأين نبحث عنها. وأدركت أن سماعة لوبوت الخاصة بي قد جعلتني أسمع أكثر من معظم الناس، لأنني كنت أول من يسمع صوت طائر جديد.

بدأتْ تمطر ونحن في طريق الرجوع إلى المخيم. وضعت المعطف الواقي من المطر، وغطيت السماعة بواقي الرأس حتى لا تبتل، لكن بنطالي الجينز وحذائي كانا قد تشبّعا بالمياه عندما وصلنا إلى أكواخنا. كان الجميع مُشبَّعِين بالمياه، لكن الأمر كان ممتعًا. وتعاركنا بالجوارب المبتلة في الكوخ.

ولأن المطر استمر لبقية اليوم، قضينا أغلب فترة ما بعد الظهر ونحن نتسكع في الاستراحة. كان عندهم طاولة «بينج بونج»، وألعاب فيديو من الطراز القديم مثل «باك مان» و«وحدة إطلاق الصواريخ»، ظللنا نلعبها حتى وقت العشاء. لحُسن الحظ، كان المطر قد توقف حينذاك، فأُتيح لنا أن نطبخ في الهواء الطلق، على

نار تخييم حقيقية. كانت المقاعد المصنوعة من جذوع الأشجار حول النار لا تزال رطبة، لكننا ألقينا عليها سُتراتنا وتَسَكَّعْنا حول النار، نحمص حلوى الـ«سمور»، ونأكل أطيبَ «هوت دوج» مَشْويٍّ تناوَلْتُه في حياتي على الإطلاق. كانت ماما مُحِقَّة بخصوص البعوض: كان هناك أطنان من البعوض، لكنني، لحُسن الحظ، رششت نفسي قبل أن أخرج من الكوخ، وهكذا لم يأكلني البعوض حيًا كما هو الحال مع الأولاد الآخرين.

أحببت الجلوس بجوار النار بعد حلول الظلام. أحببت الرماد المشتعل وهو يطير ويختفي في هواء الليل، وكيف تُضيء النارُ وجوهَ الناس. أحببت الصوت الذي تُحدِثه النار أيضًا، وكيف أن الغابة مظلمة حتى إنك لا ترى شيئًا من حولك. لا تبدو السماء هكذا في «نورث ريفر هايتس». مع ذلك، فقد رأيتها هكذا في مونتوك، وكأن شخصًا نثر الملح على طاولة سوداء لامعة.

عدت إلى الكوخ متعَبًا جدًّا، حتى إنني لم أضطر إلى إخراج كتاب والقراءة فيه. رحت في النوم فور أن لمس رأسي الوسادة تقريبًا. وربما أكون قد حلمت بالنجوم، لا أعرف.

ساحة العرض

اليوم التالي كان رائعًا كالأول. ذهبنا لركوب الخيل في الصباح، وبعد الظُهر تَسلّقنا أشجارًا عملاقة باستخدام الحبال، تحت إشراف مُرشدي الطبيعة. ولدى رجوعنا إلى الأكواخ من أجل العشاء، كان التعب قد أصابنا جميعًا من جديد. بعد العشاء قالوا لنا إن أمامنا ساعة راحة، ثم سنركب الحافلة لمدة خمس عشرة دقيقة إلى ساحة العرض من أجل مشاهدة فيلم في الهواء الطلق.

لم تَسنَح لي الفرصة بعدُ لكتابة خطاب لماما وبابا وفيا، فكتبت خطابًا أُخبِرهم فيه بما فعلناه ذاك اليوم واليوم السابق عليه. تصورت نفسي أقرأه لهم بصوت عالٍ عندما أرجع، حيث كان من المستحيل وصول الخطاب قبلي.

عندما وصلنا إلى ساحة العرض، كانت الشمس قد بدأت في المغيب. كانت الساعة السابعة والنصف تقريبًا. الظلال طويلة جدًّا على العشب، والسُّحُب وردية وبرتقالية. بدا وكأن شخصًا قد أمسك بقطع طباشير مُلَوَّنة ولَطَّخ بها السماء. لا أقول إنني لم أرَ الغروب من قبل في المدينة، لأنني رأيته - كسرات من الشمس بين البنايات - لكنني لم أكن معتادًا على رؤية هذا القدر من السماء في كل اتجاه. هنا في ساحة العرض، فهمت لماذا كان القدماء

يعتقدون أن العالم مُسَطَّح، وأن السماء قبة تحيط به. فهكذا بدا الأمر من ساحة العرض، في وسط هذا الحيز الشاسع المفتوح.

ولأننا كنا أول مدرسة تصل، فقد سُمح لنا أن نجري هنا وهناك في الساحة كما نشاء، حتى أخبرنا المُدرِّسون أن الوقت قد حان لكي نفرد أكياس النوم الخاصة بنا على الأرض، ونختار أماكن نستطيع أن نرى منها جيدًا. فتحنا أكياسنا وفردناها مثل بطانيات على العشب أمام شاشة العرض العملاقة في منتصف الساحة، ثم ذهبنا إلى طابور شاحنات الطعام المُصْطَفَّة على أطراف الساحة لنأخذ ما نريد من الوجبات الخفيفة والمياه الغازية وما إلى ذلك. كانت هناك أكشاك أيضًا، مثلما في سوق المزارعين، تبيع الفول السوداني المحمص وغزل البنات. وبعدها بقليل كان هناك صف قصير من أكشاك المسابقات، من ذلك النوع الذي تستطيع فيه أن تربح دُمى مَحشُوَّة إذا نجحت في أن ترمي كرة داخل سلة. حاولنا أنا وجاك أن نكسب أي شيء، وفشلنا. لكننا سمعنا أن أموس ربح وَحِيد قَرْنٍ أصفر وأعطاه لهيمينا. كانت تلك أكبر نميمة سَرَت بيننا: النجم الرياضي والمهووسة بالمذاكرة.

عندما توقفت بقية الحافلات المدرسية في المواقف، كنا قد عدنا إلى مواقعنا على أكياس النوم، أمام الشاشة مباشرة: أفضل مكان في الساحة بأكملها. راح الجميع يتبادلون الوجبات الخفيفة ويقضون وقتًا رائعًا. ولعبنا أنا وجاك وسمر وريد ومايا لعبة «القاموس المصور». وكنا نسمع أصوات وصول المدارس الأخرى،

ويأتينا من جانبي الساحة صخب تلاميذ يضحكون ويتكلمون، لكننا لا نراهم. ومع أن السماء كانت لا تزال مضيئة، فقد غابت الشمس تمامًا، وتحوّل كل ما على الأرض إلى اللون الأرجواني الداكن، وأصبحت السحب مجرد ظلال، وواجهنا متاعب في رؤية أوراق «القاموس المصور» أمامنا.

عندها، ومن دون إعلان، أُضيئت كل الأضواء في أطراف الساحة مرّة واحدة. كانت مثل كشافات الاستاد الساطعة الكبيرة. وفكرت في المشهد في فيلم «لقاءات من النوع الثالث»، عندما هبطت سفينة المخلوقات الفضائية على وقع تلك الموسيقى: دا - دا - دوو - دا - دان. وبدأ كل مَن بالساحة يُصَفِّقون ويهتفون، وكأن شيئًا عظيمًا قد حدث للتوِّ.

عامِل الطبيعة بالحسنى

خرج إعلان من السماعات الضخمة بجوار كشافات الاستاد:

«مرحبًا بكم جميعًا. مرحبًا في «ليلة الأفلام الكبيرة» السنوية الثالثة والعشرين في محمية «بروروود» الطبيعية. مرحبًا بالمُدرِّسين والطلاب من... المدرسة الإعدادية رقم ٣٤٢: مدرسة وليام هيث...»

علا هتاف كبير من الجانب الأيسر من الساحة.

«مرحبًا بالمُدرِّسين والطلاب من جلوفر أكاديمي...»

علا هتاف آخر، تلك المرَّة من الجانب الأيمن من الساحة.

«ومرحبًا بالمُدرِّسين والطلاب من... مدرسة بيتشر الخاصة!»

هتف كل مَن في مجموعتنا بأعلى صوت.

«يسعدنا أن تكونوا ضيوفًا علينا الليلة، ويسعدنا أن الطقس متعاون معنا. هل تصدقون كم هي جميلة هذه الليلة؟»

مجددًا، صاح الجميع وهللوا.

«حتى نُجهز الفيلم، نسألكم أن تنصتوا للحظاتٍ لهذا الإعلان المهم: إن محمية «برورووود» الطبيعية، كما تعرفون، مُكرَّسة للحفاظ على مواردنا الطبيعية وعلى البيئة. وإننا نسألكم ألا تتركوا أية مخلفات. نظِّفوا وراءكم. عاملوا الطبيعة بالحسنى حتى تعاملكم بالحسنى. نسألكم أن تضعوا ذلك في أذهانكم وأنتم تتجولون في المكان. لا تخاطروا بتجاوز علامات المرور البرتقالية على أطراف ساحة العرض. لا تدخلوا حقول الذرة أو الغابة.

برجاء لا تتحركوا إلا في أضيق الحدود، حتى لو شعرتم بأنكم لا تريدون مشاهدة الفيلم، فربما يكون لزملائكم من الطلاب رأيٌ مختلف. لذا نرجو منكم أن تتمتعوا بالكياسة: لا كلام، ولا عزف موسيقى، ولا جَرْي هنا وهناك. الحمَّامات موجودة وراء الأكشاك. بعد انتهاء الفيلم سيكون المكان مُظلمًا جدًا، لذا نطلب منكم الالتزام بمدارسكم وأنتم تسلكون طريق العودة إلى حافلاتكم. إلى المدرسين: هناك عادةً طالب واحد على الأقل يُفقد في «ليالي الأفلام الكبيرة» في «بروروود»، فلا تجعلوا ذلك يحدث لكم! الفيلم الذي سنعرضه الليلة هو: «صوت الموسيقى»!»

انطلقت في التصفيق، مع أنني شاهدته بضع مرَّات من قبل، لأنه كان أكثر فيلم تُحبه فيا على الإطلاق. لكنني فوجئت أن شلة كاملة من التلاميذ (ليسوا من بيتشر) أخذوا يهتفون احتجاجًا ويُصَفِّرون ويضحكون، بل إن شخصًا من الجانب الأيمن من الساحة ألقى بعلبة مياه غازية على الشاشة، وهو ما فاجأ الأستاذ توشمان، فيما يبدو. رأيته ينهض وينظر في اتجاه رامي العلبة، وإن كنت أعرف أنه لا يرى شيئًا في الظلام.

بدأ الفيلم على الفور، وخُففت إضاءة كشافات الاستاد. كانت «ماريا الراهبة» تقف فوق قمة الجبل تدور وتدور حول نفسها، وأصبح الجو باردًا فجأة، فارتديت كنزة «محمية مونتوك» الصفراء المزودة بغطاء رأس، وعدَّلتُ صوت سماعتي، وأسندت ظهري على حقيبة ظهري، وبدأت أتفرج.

«التلال حية بصوت الموسيقى...»

الغابة حية

عند لحظة ما في الجزء المُمل الذي يُغني فيه شاب اسمه «رولف» مع الابنة الكبرى أغنية: «أنت في السادسة عشرة، تمضي إلى السابعة عشرة»، لكزني جاك، وقال: «يا صاحبي، يجب أن أتبوّل.»

نهضنا وأخذنا نَنُطُّ فوق التلاميذ الذين كانوا جالسين أو ممددين على أكياس النوم. لَوَّحَت لنا سمر ونحن نمر من أمامها، فلوحتُ لها.

كان هناك الكثير من التلاميذ من المدارس الأخرى يتجولون بجوار شاحنات الطعام. يلعبون في أكشاك المسابقات، أو يتسكعون هنا وهناك.

وبالطبع، كان هناك طابور طويل أمام الحمّامات.

قال جاك: «انسَ الأمر. سأبحث عن شجرة.»

رددت: «هذا فظيع يا جاك. دعنا ننتظر.»

لكنه اتجه إلى صف من الأشجار عند حافة الساحة، بعد العلامات البرتقالية التي قيل لنا ألا نتجاوزها. وبالطبع تَبِعْتُه. وبالطبع لم تكن معنا مصابيح يدوية لأننا نَسِينا إحضارها. كان الظلام شديدًا، حتى إننا لم نرَ أبعد من عشر خطوات أمامنا ونحن

نسير في اتجاه الغابة. لحُسن الحظ، كان بعض الضوء ينبعث من الفيلم، وهكذا، عندما رأينا كشافًا يأتي في اتجاهنا من الغابة، عرفنا على الفور أنهم هنري ومايلز وأموس. أظن أنهم أيضًا لم يريدوا الانتظار في الطابور لاستخدام الحمّامات.

كان مايلز وهنري لا يزالان في خصام مع جاك. لكن أموس انسحب من الحرب منذ فترة، فأومأ لنا برأسه يُحيينا عندما مروا بنا.

صاح هنري: «حذارِ من الدِّببة.»

ثم ضحك هو ومايلز وهما يبتعدان.

هز أموس رأسه وكأنه يقول: لا تهتمًا بهما.

مشيت أنا وجاك بخطوات أخرى حتى أصبحنا داخل الغابة. ثم أخذ جاك يبحث حوله عن الشجرة المناسبة، وأخيرًا قضى حاجته، وإن بدا أنه استغرق دهرًا.

كانت الغابة تضج بأصوات غريبة وسقسقات ونقيق، وكأن جدارًا من الضوضاء ينبت من وسط الأشجار. ثم بدأنا نسمع أصوات طقطقة ليست بعيدة عنا، تُشبه فرقعات بنادق الصوت اللعبة، ولم تكن تلك بالتأكيد أصوات حشرات. ومن بعيد، وكأنما من عالم آخر، كانت تصل إلينا أغنية: «أحب قطرات المطر على الورود والشوارب على وجه القطيطة».

قال جاك، وهو يُغلق سوستة البنطلون: «آه. هذا أفضل كثيرًا.»

قلت: «الآن، يجب أن أتبوّل أنا الآخر.»

وهذا ما فعلته على أقرب شجرة. لم أكن لأتوغل أكثر مثلما توغل جاك.

قال، وهو يأتي في اتجاهي: «هل تشم هذا؟ رائحة مفرقعات.»

قلت، وأنا أقفل السوستة: «آه، نعم، هي كذلك. غريب!»

«هيا بنا.»

مخلوق فضائي

عدنا من حيث أتينا، في اتجاه الشاشة العملاقة. وفي طريقنا دخلنا وسط مجموعة من التلاميذ الذين لا نعرفهم. كانوا قد خرجوا لِتَوِّهم من الغابة، وكانوا يفعلون أشياء أنا متأكد أنهم أرادوا إخفاءها عن مُدَرِّسيهم. وبدأت أشم الدخان، رائحة مفرقعات مختلطة برائحة سجائر. صوَّبوا مصابيحهم في اتجاهنا. كانوا ستة: أربعة أولاد وبنتين. بَدَوا في الصف السابع.

صاح أحد الأولاد: «من أي مدرسة أنتم؟»

بدأ جاك يجيب: «بيتشر الخاصة!»

وعندها أخذت إحدى البنتين تصرخ: «يا ربي!»

كانت تُوَلوِل وتُخفي عينيها بيديها وكأنها تبكي.

وظننت أن حشرة كبيرة اصطدمت بوجهها أو شيئًا من هذا القبيل.

صاح أحد الأولاد: «مستحيل!»

وأخذ ينفض رأسه في الهواء وكأنه لمس لِتَوِّه شيئًا ساخنًا. ثم غطَّى فمه.

«مستحيل يا رجل! مستحيل!»

ثم أخذوا جميعًا يضحكون ويغطون أعينهم، ويدفعون بعضهم بعضًا، ويشتمون بصوت عالٍ.

قال الولد الذي يصوب المصباح في اتجاهنا: «ما هذا؟»

عندها فقط أدركت أن المصباح مُصوَّب إلى وجهي مباشرة، وأن ما يتكلمون عنه - ويصرخون منه - هو أنا.

قال لي جاك بهدوء: «هيا نمشي من هنا.»

وسحبني من كُمِّ كنزتي، وبدأ يمضي بعيدًا عنهم.

صاح الشاب المُمسِك بالمصباح، وهو يعترض طريقنا: «انتظر، انتظر، انتظر!»

صَوَّب المصباح إلى وجهي مباشرة مرَّة ثانية، واقترب حتى أصبح على بُعد أقل من مِترين. قال وهو يهز رأسه، وفمه مفتوح على وسعه: «يا خبر! يا خبر! ماذا حدث لوجهك؟»

قالت إحدى البنتين: «كفى يا «إيدي».»

قال: «لم أعرف أننا سنُشاهد «سيد الخواتم» الليلة! انظروا يا شباب، إنه غولوم!»

وانطلق أصدقاؤه في ضحك هستيري.

حاولنا مرَّة أخرى أن نمضي بعيدًا عنهم، ومرَّة أخرى اعترَضَنا الولد المُسمَّى إيدي. كان أطولَ مني ومن جاك بمقدار رأس على الأقل، وبدا لي ضخمًا.

قال أحد الأولاد الآخرين: «لا يا رجل، إنه مخلوق فضائي.»

وضحك إيدي وهو يُصَوِّب المصباح إلى وجهي ثانية، تلك المرَّة كان أمامي مباشرة: «لا، لا، لا يا رجل. إنه من مسوخ الأورك!»

قال جاك، وهو يزيح اليد المُمسِكة بالمصباح: «دَعْهُ وشأنَه، ممكن؟»

رد إيدي، وهو يُصَوِّب المصباح إلى وجه جاك هذه المرّة: «أرِني كيف ستجبرني على ذلك.»

قال جاك: «ما مشكلتك يا رجل؟»

«مشكلتي هي صديقك.»

قلت، وأنا أشدُّه من ذراعه: «هيا بنا يا جاك.»

صرخ إيدي، وهو يوجه المصباح لي ثانية: «آه يا رجل! المخلوق يتكلم!»

ثم رمى أحد الأولاد الآخرين مفرقعة عند قدمي.

حاول جاك أن يزيح إيدي ويمر، لكن إيدي دفع جاك بقوة في كتفيه، فسقط جاك على ظهره.

صرخت إحدى البنتين: «إيدي!»

قلت، وأنا أخطو لأقف أمام جاك وأرفع يدي عاليًا مثل شرطي مرور: «اسمع. نحن أصغر كثيرًا منكم يا شباب...»

قال إيدي: «هل تُكلِّمني، يا «فريدي كروجر»؟ لا أظنك تريد أن تعبث معي أيها المَسخ القبيح.»

وعندها عرفت أنني يجب أن أهرب بأقصى سرعة ممكنة، لكن جاك كان لا يزال على الأرض ولا يمكن أن أتركه.

قال صوت جديد من خلفنا: «هيه. ما الأمر يا رجل؟»

استدار إيدي وصَوَّب مصباحه ناحية الصوت. للحظة، لم أصدِّق من كان.

قال أموس، وكان مايلز وهنري خلفه مباشرة: «دَعْهُما وشأنَهما يا رجل!»

قال أحد رفاق إيدي: «ومن يقول ذلك؟»

كرر أموس بهدوء: «فقط دَعْهُما وشأنَهما.»

قال إيدي: «هل أنت مَسخ أيضًا؟»

وقال أحد أصدقائه: «إنهم مجموعة من المسوخ!»

لم يَرد أموس عليهم، بل نظر إلينا: «هيا يا شباب. لنمض. الأستاذ توشمان ينتظرنا.»

كنت أعرف أنها كذبة، لكنني ساعدت جاك على الوقوف، وبدأنا نتحرك في اتجاه أموس. ثم فجأة، شدَّني الشاب المُسمَّى إيدي من غطاء رأسي وأنا أمرُّ من أمامه، وجذبه بقوة شديدة حتى إنني ارتددت إلى الوراء وسقطت على ظهري مباشرة. كانت سقطة قوية، واصطدم مرفقي بصخرة وآلمني جدًّا. بعدها، لم أرَ إلا أموس وهو يندفع صوب الشاب المُسمَّى إيدي مثل عربة مُسرعة ويسقطان معًا على الأرض بجواري.

ثم سادت حالة من الجنون. أحدهم جذبني من كُمِّي وساعدني على النهوض وهو يصرخ: «اجْرِ!»

وصرخ شخص آخر في الوقت نفسه: «وراءهم!»

وبعد ثوانٍ كان هناك شخصان يجذبان كُمَّي كنزتي في اتجاهين

متعاكسين. وسمعتهما يشتمان، حتى تمزقت كنزتي، وشدني الشاب الأول من ذراعي وبدأ يسحبني خلفه ونحن نجري، وقد جريت بأسرع ما أمكنني. وكنت أسمع وَقْعَ أقدامٍ خلفنا مباشرة، تطاردنا، وأصواتًا تصيح، وبناتٍ تصرخ. لكن الظلام كان شديدًا فلم أعرف أصوات من كانت، فقط بدا كل شيء وكأننا تحت الماء. كنا نجري كالمجانين، وكانت الظُّلمة حالكة، وكلما بدأت أُبطئ، كان الشاب الذي يشدني من ذراعي يصيح: «لا تتوقف!»

أصوات في الظلام

أخيرًا، وبعد زمن من الجري بدا دهرًا، صرخ أحدهم: «أعتقد أننا ضللناهم.»

«أموس؟»

جاء صوت أموس على بُعد خطوات قليلة وراءنا: «أنا هنا!»

صاح مايلز من الأمام: «بإمكاننا أن نتوقف!»

صحتُ: «جاك!»

قال جاك: «هوو! أنا هنا.»

«لا أرى شيئًا!»

سأل هنري، وهو يترك ذراعي: «هل أنت متأكد أننا ضللناهم؟»

عندها أدركت أنه كان من يشدني ونحن نجري.

«نعم.»

«ششش! أنصتوا!»

سكتنا تمامًا، وأنصتنا نتسمَّع وقع أقدام في الظلام. لم نسمع إلا أصوات الصراصير والضفادع ولهاثنا المجنون. كانت أنفاسنا متقطعة، وبطوننا تؤلمنا، وأجسادنا راكعة على رُكبِنا.

قال هنري: «لقد ضللناهم.»

«هوو! كان ذلك خطيرًا!»

«ماذا حدث للمصباح؟»

«سقط مني.»

قال جاك: «كيف عرفتم يا شباب؟»

«رأيناهم من قبل.»

«وبدوا لنا مُغفَّلين.»

قلت لأموس: «لقد انقضضتَ عليه!»

ضحك أموس: «أعرف، صح؟»

قال مايلز: «كانت حركة مفاجئة!»

قال جاك: «قال لي «هل أنت مَسخ أيضًا؟»، وأنت، بوووم.»

قال أموس، وهو يلكم الهواء: «بووم! لكن بعدما عاجلته قلت لنفسي اجْرِ يا أموس، يا أبله، إنه أكبر منك بعشر مرّات! فنهضت وأخذت أجري بأسرع ما يمكن.»

أخذنا نضحك جميعًا.

قال هنري: «أنا جذبت أوجي، وصحت: اجْرِ!»

ورددتُ: «لم أعرف حتى مَن الذي يشدني!»

قال أموس، وهو يهز رأسه: «كان ذلك وحشيًّا!»

«وحشيًّا جدًّا!»

«شَفَتُك تنزف يا صاحبي.»

رد أموس، وهو يمسح شَفَتَه: «لقد تلقّيت لكمتين قويتين.»

«أعتقد أنهم في الصف السابع.»

«لقد كانوا ضِخامًا.»

صاح هنري بأعلى صوت: «يا فاشلين!»

لكننا جميعًا أسكتناه.

أنصتنا لثانية حتى نتأكد من أن أحدًا لم يسمعنا. ثم سألت أموس: «أين نحن؟ أنا لا أرى الشاشة حتى.»

أجاب هنري: «أعتقد أننا في حقول الذرة.»

قال مايلز، وهو يدفع إحدى سيقان الذرة في اتجاه هنري: «نعم. نحن في حقول الذرة.»

قال أموس: «طيب، أنا أعرف تحديدًا أين نحن. علينا أن نرجع في هذا الاتجاه. هذا سيأخذنا إلى الجانب الآخر من الساحة.»

قال جاك، وهو يرفع يده عاليًا في الهواء: «اسمعوا يا أصحاب، لقد كان ذلك رائعًا منكم يا شباب، أن ترجعوا من أجلنا. رائع فعلًا. شكرًا لكم.»

قال أموس، وهو يضرب كفه بكف جاك عاليًا: «لا مشكلة.»

ثم ضرب جاك وهنري أيضًا كفيهما بكفِّه.

«نعم يا أصحاب، شكرًا لكم.»

قلتها وأنا أرفع كفي عاليًا مثلما فعل جاك لتوِّه، مع أنني لم أكن واثقًا من أنهم سيضربون كفي أنا الآخر.

نظر أموس إليَّ وأومأ برأسه، وقال وهو يضرب كفي: «لقد وقفت أمامهم بشكل رائع يا صاحبي الصغير.»

قال مايلز، وهو يضرب كفي هو الآخر: «نعم يا أوجي. لقد وقفت وقلت لهم: «نحن أصغر منكم يا شباب».»

ضحكتُ: «لم أعرف ماذا أقول غير ذلك!»

قال هنري، وهو يضرب كفي هو الآخر: «رائع جدًّا. آسف أنني مزقت كنزتك.»

نظرت إلى أسفل ورأيت الكنزة ممزقة تمامًا من المنتصف. كان أحد الكمين مقطوعًا، والآخر مشدودًا يتدلى حتى ركبتيّ.

قال جاك: «هيه! مرفقك ينزف.»

هززت كتفيَّ وقلت، وقد بدأت أشعر بألم شديد: «نعم.»

قال جاك وقد رأى وجهي: «هل أنت بخير؟»

أومأت برأسي. وفجأة شعرت برغبة في البكاء، وحاولت بقوة أن أمنع نفسي.

قال جاك: «انتظر، لقد ضاعت سماعتك!»

صحت، وأنا أتحسس أذنيَّ: «ماذا؟!»

لقد ضاعت السماعة بالتأكيد. لهذا السبب كنت أشعر أنني تحت الماء! قلت: «آه. لا!»

وعندها لم يعد بإمكاني أن أمنع نفسي. وبدأت أبكي بكاء شديدًا، من هذا الذي تسميه ماما «نحيبًا». شعرت بالخجل، فأخفيت وجهي في ذراعي، لكنني لم أستطع منع الدموع.

لكن الشباب عاملوني بلُطف شديد، وربتوا على ظهري. وقالوا: «لا بأس يا صاحبي. لا بأس.»

وقال أموس، وهو يضع ذراعه حول كتفي: «أنت رفيق صغير شجاع.»

وعندما لم أتوقف عن البكاء، وضع ذراعيه حولي كما يفعل معي أبي، وتركني أبكي.

حرس الإمبراطور

عدنا من حيث أتينا، سائرين وسط العشب لنحو عشر دقائق طويلة لنرى إن كنا سنجد سماعتي، لكن الظلام كان دامسًا، لا نرى فيه أي شيء. وقد اضطررنا إلى أن نمسك بقمصان بعضنا البعض، وأن نمشي في طابور واحد حتى لا يتعثر أيٌّ منا في الآخر. كان السواد حالكًا، وكأن حبرًا أسود قد انسكب في كل مكان حولنا.

قال هنري: «لا فائدة. يمكن أن تكون في أي مكان.»

رد أموس: «ربما علينا أن نرجع ومعنا مصباح.»

قلت: «لا. لا بأس. لنرجع وحسب. شكرًا لكم على أية حال.»

عدنا في اتجاه حقل الذرة، ثم شققنا طريقنا بداخله حتى ظهرت لنا خلفية الشاشة العملاقة. ولأن واجهة العرض كانت في الناحية الأخرى، لم يصلنا أيُّ نور منها حتى وصلنا إلى أطراف الغابة ثانية. عندها بدأنا نرى بصيصًا من الضوء أخيرًا.

لم يكن هناك أثر لتلاميذ الصف السابع، وقال جاك: «أين ذهبوا في اعتقادكم؟»

قال أموس: «عادوا إلى عربات الطعام. غالبًا يعتقدون أننا سنبلغ عنهم.»

سأل هنري: «وهل سنبلغ عنهم؟»

نظروا إليّ، فهززت رأسي.

قال أموس: «طيب. لكن يا صاحبي الصغير، لا تتجول هنا بمفردك ثانية، اتفقنا؟ إذا أردت الذهاب إلى أي مكان، قل لنا وسنذهب معك.»

أومأت برأسي: «حاضر.»

ونحن نقترب من الشاشة، سمعت أغنية: «فوق التل، كان راعي غنم وحيد»، وصار بإمكاني أن أشم غزل البنات من أحد الأكشاك بالقرب من عربات الطعام. كان حشد من التلاميذ يَرُوحون ويجيئون في تلك المنطقة، فتغطيتُ بما تبقى من غطاء الرأس ونكست رأسي، واضعًا يديَّ في جيبيَّ، ونحن نشق طريقنا عبر الزحام. كان وقت طويل قد مر منذ خرجت من دون السماعة آخر مرَّة، وشعرت كأنني بعيد عن الأرض بأميال. شعرت مثلما تقول الأغنية التي كانت ميرندا تغنيها لي: «من محطة التحكم الأرضية إلى الميجور توم، الدائرة الكهربية لا تعمل، لقد حدث عطل ما...».

لاحظت وأنا أمشي أن أموس ظل بجواري، وجاك على الجانب الآخر. وأن مايلز أمامنا، وهنري وراءنا. كانوا يحيطون بي ونحن نخترق حشد التلاميذ، وكأنهم حرسي الإمبراطوري.

النوم

ثم خرجوا من الوادي الضيق وفهمَتِ السبب فجأة. كان بيتر وإدموند وكل من تبقى من جيش أصلان، يحاربون بيأس حشدًا من المخلوقات البشعة التي رأتها الليلة السابقة. وإن بدوا حينئذٍ، في ضوء النهار، أقوى وأكثر شرًا وأكثر تشوُّهًا.

توقفت عند هذه النقطة. كنت قد قرأت لأكثر من ساعة ولم يأتني النوم. كانت الثانية صباحًا تقريبًا. الجميع نائمون. وقد أضاءَ مصباحي اليدوي تحت حقيبة النوم، وربما كان الضوء هو ما يمنعني عن النوم، لكنني كنت خائفًا جدًا ولا أستطيع أن أطفئه. كنت خائفًا من الظلام الدامس خارج حقيبة النوم.

عندما عدنا إلى القسم الخاص بنا أمام شاشة العرض، وجدنا أن أحدًا لم يلاحظ غيابنا. كان الأستاذ توشمان والأستاذة روبين وسمر وبقية التلاميذ يشاهدون الفيلم وحسب. لم تكن لديهم أدنى فكرة عن المشكلة التي كادت أن تحدث لنا أنا وجاك. أمر غريب، أن تقضي ليلة هي الأسوأ في حياتك وبالنسبة إلى الآخرين هي مجرد ليلة عادية. في مفكرتي في المنزل، سأضع علامة على هذا اليوم باعتباره أكثر يوم مُرعب في حياتي. هذا واليوم الذي ماتت فيه دايزي. لكن بالنسبة إلى بقية العالم، كان مجرد يوم عادي، بل وربما كان يومًا جيدًا، ربما كسب أحدهم اليانصيب اليوم.

أموس ومايلز وهنري أوصلوني أنا وجاك إلى المكان الذي كنا نجلس فيه من قبل، مع سمر ومايا وريد، ثم ذهبوا ليجلسوا حيث كانوا يجلسون، مع هيمينا وسافانا وشلتهم. بطريقة ما، كان كل شيء كما تركناه بالضبط قبل أن نذهب إلى الحمّامات. السماء كما هي، والفيلم كما هو، ووجوه الجميع كما هي، ووجهي كما هو. لكن شيئًا ما كان مختلفًا، شيئًا ما قد تغير.

رأيت أموس ومايلز وهنري يخبرون شلتهم بما حدث للتوّ. كنت أعرف أنهم يتكلمون عن الأمر لأنهم ظلوا ينظرون إليّ وهم يتكلمون. ومع أن الفيلم كان لا يزال يُعرض، كان الجميع يتهامسون عن الأمر في الظلام؛ فأخبار كهذه تنتشر بسرعة.

كان هذا الموضوع مَثار حديث الجميع ونحن في الحافلة في طريق العودة إلى الأكواخ. كل البنات، حتى البنات اللاتي لا أعرفهن جيدًا، أخذن يسألنني إذا كنت على ما يُرام. وكان الأولاد الذين يتكلمون عن الانتقام من شلة المغفلين من تلاميذ الصف السابع، يحاولون التعرف على المدرسة التي ينتمون إليها.

لم أكن أنوي إخبار المُدرِّسين بأيٍّ مما حدث، لكنهم عرفوا على أية حال. ربما من الكنزة الممزقة والمرفق الدامي، وربما لأن المُدرِّسين يسمعون كل شيء وحسب.

عندما عدنا إلى المخيم، اصطحبني الأستاذ توشمان إلى مكتب الإسعافات الأولية، وفيما كانت ممرضة المخيم تُنظف مرفقي وتربطه، كان الأستاذ توشمان ومدير المخيم في الغرفة المجاورة

يتكلمان مع أموس وجاك وهنري ومايلز، يحاولان أن يحصلا على وصف للمُشاغبين. وعندما سألاني عنهم بعدها بقليل، قلت إنني لا أستطيع تذكُّر وجوههم على الإطلاق، ولم يكن ذلك صحيحًا.

لقد ظللت أرى وجوههم كلما أغمضت عيني لكي أنام. نظرة الرعب على وجه البنت عندما رأتني لأول مرّة. النظرة التي رماني بها الولد الممسك بالمصباح، إيدي، وهو يُكلمني، وكأنه يكرهني.

«كما يُساق الحَمَل إلى المسلخ». أتذكر بابا وهو يقول تلك العبارة قبل عمر طويل، لكنني أظن أنني فهمت معناها أخيرًا تلك الليلة.

بعد الحادثة

كانت ماما في انتظاري أمام المدرسة مع غيرها من الآباء عندما وصلت الحافلة. أخبرني الأستاذ توشمان في الحافلة، في أثناء عودتنا، أنهم اتصلوا بوالديَّ وأخبروهما بأن «موقفًا» قد حدث الليلة السابقة، ولكن الجميع بخير. قال: «إن مدير المخيم وعددًا من المستشارين ذهبوا للبحث عن السماعة في الصباح عندما ذهبنا نحن للسباحة في البحيرة، لكنهم لم يجدوها في أي مكان. وقال إن «بروروود» سوف تسدد ثمن السماعة. لقد انزعجوا مما حدث.»

وتساءلت إن كان إيدي قد أخذ سماعتي معه باعتبارها تذكارًا، شيئًا يتذكر به المَسخ.

أعطتني ماما حضنًا قويًا عندما نزلت من الحافلة، لكنها لم تمطرني بالأسئلة كما توقعت. وشعرت بالأمان في حضنها، ولم أبعدها عني مثلما كان يفعل بعض التلاميذ الآخرين مع آبائهم حين يحتضنونهم.

بدأ سائق الحافلة يُنزل حقائبنا، وذهبتُ لأبحث عن حقيبتي بينما أخذت ماما تتكلم مع الأستاذ توشمان والأستاذة روبين، اللذين كانا قد توجها إليها. وبينما كنت أجرُّ حقيبتي في اتجاهها، أخذ الكثير من التلاميذ الذين لا يُكلمونني مُطلقًا عادة يُومِئون لي بالتحية، أو يربتون على ظهري وأنا أمرُّ من أمامهم.

قالت ماما عندما رأتني: «جاهز؟»

أخذَت حقيبتي، ولم أحاول حتى أن أمنعها. لم أمانع في أن تحملها. ولو أرادت أن تحملني على كتفيها، لما مانعتُ أيضًا.

حين بدأنا نسير في طريقنا، أعطاني الأستاذ توشمان حضنًا قويًّا سريعًا، لكنه لم يقل شيئًا.

البيت

لم نتكلم كثيراً أنا وماما طوال طريق عودتنا إلى البيت سيراً على الأقدام، وعندما وصلنا إلى السلالم الخارجية، نظرتُ بصورة آلية إلى الشرفة الصغيرة، لأنني نسيت للحظة أن دايزي لن تكون هناك كالمعتاد، رابضة على الأريكة ومخالبها الأمامية على حافة الشرفة، في انتظار عودتنا. أصابني هذا بقدرٍ من الحزن ونحن ندخل. وفور دخولنا، أسقطت ماما الحقيبة وطَوَّقتني بذراعيها وقبّلتني على رأسي وعلى وجهي وكأنها تتنفسني.

قلت بابتسامة: «لا بأس يا ماما. أنا بخير.»

أومأت برأسها وأخذت وجهي بين يديها. كانت عيناها تلمعان. قالت: «أعرف أنك بخير، لقد اشتقت إليك جدًّا يا أوجي.»

«وأنا أيضًا اشتقتُ إليكِ.»

كنت أعرف أنها تريد أن تقول أشياء كثيرة، لكنها تمنع نفسها. سألتني: «هل أنت جائع؟»

«ميت من الجوع! هل تُعدِّين لي ساندويتش جُبنٍ مشويٍّ؟»

أجابت: «طبعًا!»

وبدأت على الفور في تحضير الساندويتش، بينما خلعت أنا السترة وجلست أمام منضدة المطبخ.

سألتها: «أين فيا؟»

قالت ماما: «سترجع مع بابا اليوم. لقد اشتاقت إليك جدًّا يا أوجي.»

«صحيح؟ كانت ستُحب المحمية الطبيعية. هل تعرفين أي فيلم عرضوه؟ «صوت الموسيقى».»

«يجب أن تخبرها بهذا.»

سألتها، بعد بضع دقائق، وأنا أسند رأسي على يدي: «إذًا، هل تريدين أن تسمعي الجزء السيِّئ أم الجزء الجيد أولًا؟»

أجابتني: «سأسمع ما تحب أن تتكلم عنه.»

قلت: «طيب، باستثناء الليلة الأخيرة، قضيت وقتًا رائعًا. أقصد، كان شديد الروعة. لهذا السبب تجدينني مُنزعجًا جدًّا. أشعر أنهم أفسدوا عليَّ الرحلة كلها.»

«لا يا حبيبي، لا تجعلهم يفعلون ذلك بك. لقد قضيت أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة هناك، وهذا الجزء الرهيب لم يستمر أكثر من ساعة. لا تَدَعهم يسلبونك هذا، اتفقنا؟»

أومأت برأسي: «أعرف. هل أخبرك الأستاذ توشمان بأمر السماعة؟»

«نعم، اتصل بنا صباح اليوم.»

«هل غضب بابا، لأنها غالية جدًّا؟»

«يا خبر! طبعًا لا يا أوجي. فقط كان يريد أن يعرف أنك بخير.

هذا هو كل ما يهمنا. كما يهمنا ألا تجعل هؤلاء... البلطجية... يفسدون رحلتك.»

ضحكتُ للطريقة التي قالت بها كلمة «بلطجية».

سألتني: «ماذا؟»

قلت لكي أغيظها: «بلطجية؟ هذه كلمة قديمة جدًّا يا ماما.»

قالت، وهي تقلب الساندويتش في المقلاة: «طيب. مُغفَّلون، مَخابِيل، مَعاتِيه. «كريتينو» كما كانت أمي تقول بالبرتغالية. أيًّا كان ما تريد أن تسميهم. إذا رأيتُ واحدًا منهم في الشارع فسوف...»

هزت رأسها.

ابتسمتُ: «كانوا كبارًا جدًّا يا ماما. في الصف السابع على ما أظن.»

هزت رأسها: «الصف السابع؟ الأستاذ توشمان لم يُخبرنا بذلك. آه يا ربي!»

قلت: «هل أخبركما كيف دافع جاك عني؟ وأموس، هجم على زعيمهم، بوووم. ووقعَا معًا على الأرض، شجارٌ حقيقي! كان الأمر رائعًا. وقد جُرحتْ شفةُ أموس.»

قالت، وهي تنظر إليّ وقد رفعت حاجبيها: «أخبرنا بأمر الشجار، لكن... أنا فقط... آه... الحمد لله أنك بخير أنت وأموس وجاك. عندما أفكر بما كان يمكن أن يحدث لكم...»

لم تُكمل، وقلَّبت الساندويتش ثانية.

«لقد تمزقت سترة مونتوك الخاصة بي تمامًا.»

ردت قائلة: «يمكن أن نحصل على واحدة أخرى.»

رفعت ساندويتش الجبن المشوي ونقلته إلى طبق وضعته أمامي على المنضدة: «حليب أم عصير عنب؟»

«شوكولاتة بالحليب، من فضلك؟»

بدأت ألتهم الساندويتش: «آه، وهل يمكن أن تُعديها بالطريقة المخصوصة، مع الرّغوة؟»

قالت ماما، وهي تصب الحليب في كوب طويل: «ما الذي ذهب بك أنت وجاك إلى أطراف الغابة أصلًا؟»

أجبتها، وفمي مَحْشوٌّ: «جاك أراد أن يذهب إلى الحمّام.»

وأنا أتكلم، راحت تضع بودرة الشوكولاتة بالملعقة، وبدأت تدير مضربًا صغيرًا بين كفيها بسرعة شديدة.

«لكننا وجدنا طابورًا طويلًا ولم يرغب في الانتظار. وهكذا ذهبنا في اتجاه الغابة لنتبوّل.»

رفعت رأسها إليَّ دون أن تتوقف عن تدوير المضرب. أعرف أنها كانت تفكر أنه ما كان ينبغي علينا أن نفعل ذلك. أصبحت الرغوة بارتفاع خمسة سنتيمترات في كوب الشوكولاتة بالحليب.

«شكله لذيذ يا ماما. شكرًا لك.»

قالت، وهي تضع الكوب أمامي: «ثم ماذا حدث؟»

أخذت رشفة كبيرة من الشوكولاتة بالحليب: «هل يمكن أن نوقف الكلام الآن عن هذا الموضوع؟»

«آه. طيب.»

«أعدكِ أنني سأخبرك بكل شيء فيما بعد، عندما يرجع بابا وفيا. سأخبركم جميعًا بكل التفاصيل. فأنا لا أريد أن أضطر لحَكْيِ القصة كلها مرّة بعد مرّة، تفهمين؟»

«بالتأكيد.»

انتهيت من الساندويتش في قضمتين أخريين، وشربت الحليب بالشوكولاتة.

قالت: «ياه! لقد ابتلعت الساندويتش. هل تريد واحدًا آخر؟»

هززت رأسي ومسحت فمي بظهر يدي. سألتها: «ماما، هل سأظل أحمل هَمَّ هؤلاء المغفلين طوال عمري؟ أقصد عندما أكبر، هل ستظل الأمور هكذا؟»

لم تُجِب على الفور، بل أخذت طبقي وكوبي ووضعتهما في المغسلة وشطفتهما بالمياه.

قالت، وهي تنظر إليَّ: «المغفلون سيظلون موجودين في العالم يا أوجي. لكنني أعتقد حقًّا، وبابا أيضًا يعتقد، أن الأخيار على وجه الأرض أكثر من الأشرار، والأخيار يهتمون بعضهم ببعض، ويراعون بعضهم بعضًا. مثلما دافع جاك عنك، وأموس، والآخرون.»

أجبتها: «آه، نعم، مايلز وهنري. كانا رائعين أيضًا. أمر غريب لأنني لم أتعوَّد على معاملة لطيفة من مايلز وهنري على مدى العام.»

قالت ماما، وهي تُدَلِّك رأسي: «أحيانًا يُفاجئنا الناس.»

«أعتقد ذلك.»

«هل تريد كوبًا آخر من الشوكولاتة بالحليب؟»

قلت: «لا، أنا تمام. شكرًا يا ماما. الحقيقة أنني مُتْعَب بعض الشيء. لم أنم جيدًا ليلة أمس.»

«اذهب لتَغفُو. شكرًا لأنك تركت لي «بابو»، بالمناسبة.»

«هل قرأت الرسالة التي تركتها لكِ؟»

ابتسمَت: «لقد نمت معه ليلتين.»

كادت تقول شيئًا آخر عندما رن هاتفها المحمول، فردَّت عليه. أشرق وجهها وهي تسمع، قالت بصوت ملأته الإثارة: «يا ربي! فعلًا! ما نوعه؟ نعم، إنه هنا أمامي. كان سينام قليلًا. هل تريد أن تُسلِّم عليه؟ آه، طيب، أراك بعد دقيقتين.»

أغلقت الخط، وقالت بحماس: «كان هذا أباك. هو وفيا عند أول الشارع.»

قلت: «أليس في العمل؟»

قالت: «انصرف مُبكرًا لأنه كان يشتاق لرؤيتك. لا تذهب للنوم الآن إذًا.»

بعدها بخمس ثوانٍ، دخل بابا وفيا من الباب. انطلقتُ إلى ذراعي بابا، فرفعني ودار بي وقبَّلني. لم يتركني لدقيقة كاملة، حتى قلت له: «كفى يا بابا!»

ثم جاء دور فيا، فأمطرتني بالقُبلات مثلما كانت تفعل وأنا صغير.

بعد أن انتهت، لاحظت الصندوق الأبيض الكبير الذي أحضراه معهما. «قلت: ما هذا؟»

قال بابا، وهو يبتسم: «افتحه!»

ثم تبادل النظرات مع ماما كما لو كان بينهما سر.

قالت فيا: «هيا يا أوجي.»

فتحت الصندوق. بداخله كان أجمل جَروٍ رأيته في حياتي. جَروٌ أسود جسده مُغطًى بالفِراء، وله خَطْمٌ صغير مُدَبَّب، وعينان سوداوان لامعتان وأذنان صغيرتان تتدليان لأسفل.

دبدوب

أسمينا الجرو «دبدوب»، لأن ماما عندما رأته لأول مرّة، قالت إنه يُشبه صغار الدُّببة. «يجب أن نسميه دبدوب». ووافق الجميع على أنه الاسم المناسب.

أخذتُ اليوم التالي إجازة من المدرسة، لا لأن مرفقي كان يؤلمني - وقد كان يؤلمني فعلًا - ولكن لكي أتمكن من اللعب مع «دبدوب» طوال اليوم. كما سمحت ماما لفيا بالبقاء في المنزل أيضًا، وعدم الذهاب إلى المدرسة. وهكذا تبادلنا الأدوار في احتضان «دبدوب»، ولعبنا معه لعبة «شَدّ الحَبْل». كنا قد احتفظنا بكل ألعاب دايزي القديمة، فأخرجناها، لنرى أيها سيحب أكثر.

استمتعت باللعب مع فيا طوال اليوم، نحن الاثنان فقط. عدنا مثل أيام زمان، قبل أن أبدأ في الذهاب إلى المدرسة. زمان، كنت أنتظرها بفارغ الصبر حتى ترجع من المدرسة لكي تلعب معي قبل أن تبدأ في واجباتها المنزلية. لكن الآن، بعد أن كبرنا، وأصبحت أذهب إلى المدرسة، وأصبح لي أصدقاء أقضي الوقت معهم، لم نعد نفعل ذلك.

لذلك، كان أمرًا لطيفًا أن أقضي الوقت معها، نضحك ونلعب. وأعتقد أنها أحبت ذلك أيضًا.

التحوُّل

عندما عدت إلى المدرسة اليوم التالي، كان أول ما لاحظته هو أن الأمور تحوّلت تحولًا كبيرًا. تحولًا هائلًا. تحولًا مُزلزِلًا. بل وربما تحولًا كونيًا. أيًا كان الوصف، فقد كان تحولًا كبيرًا. كان الجميع - وليس فقط في صفنا ولكن في بقية الصفوف - قد سمعوا بما حدث لنا مع تلاميذ الصف السابع، وهكذا أصبحت فجأة لا أعرف بما أُعرف به دائمًا، بل بهذا الشيء الآخر الذي حدث. وكانت قصة ما حدث تزداد ضخامة في كل مرّة تُقص. بعد يومين، كانت القصة الشائعة هي أن أموس دخل في عِراك كبير بالقبضات مع الولد، وأن مايلز وهنري وجاك وجهوا بعض اللكمات إلى بقية الشباب أيضًا. أما الهروب في الحقل، فقد صار مغامرة طويلة كبيرة عبر متاهة حقل الذرة وفي أعماق الغابة المُظلمة. كانت نسخة جاك من القصة هي الأفضل غالبًا لأنه كان مُضحكًا جدًا. لكن في كل نُسخ القصة، وأيًا كان من يحكيها، بقي شيئان على حالهما: أنهم استأسدوا عليَّ بسبب وجهي فدافع جاك عني، وأن هؤلاء الشباب - أموس وهنري ومايلز - قاموا بحمايتي. والآن بعدما قاموا بحمايتي، فقد أصبحت مُختلفًا بالنسبة إليهم. أصبحت مثل واحد منهم. وصاروا جميعًا ينادونني: «يا صاحبي الصغير» الآن - حتى

نجوم الرياضة. هؤلاء الرفاق الكبار الذين لم أكن أعرفهم تقريبًا من قبل، أصبحوا الآن يضربون قبضاتهم في قبضتي في ممرّات المدرسة.

ومن النتائج الأخرى لهذا الحدث، أن أصبح أموس نجمًا لامعًا، بينما أصبح جوليان، الذي فاته الأمر بأكمله، خارج الصورة. وصار مايلز وهنري يخالطون أموس طوال الوقت، وكأنهم بدّلوا أصدقاءهم المُقربين. أتمنى لو كان بمقدوري أن أقول إن جوليان أصبح يُعاملني أفضل هو الآخر، لكن ذلك لن يكون صحيحًا. لقد ظل يرميني بتلك النظرات القذرة في الفصل، وظل لا يتكلم معي ولا مع جاك، لكنه أصبح الشخص الوحيد الذي يتصرف بهذه الطريقة الآن. وبالطبع، لم يكن يعنينا في شيء أنا وجاك.

بط

في اليوم السابق على آخر أيام الدراسة، استدعاني الأستاذ توشمان إلى مكتبه ليُخبرني بأنهم عرفوا أسماء تلاميذ الصف السابع الذين تعرّضوا لنا في المخيم. تلا عليَّ عدة أسماء لم تَعنِ لي أيَّ شيء، ثم قال الاسم الأخير: «إدوارد جونسون.»

أومأت برأسي.

قال: «هل تعرف الاسم؟»

«كانوا ينادونه إيدي.»

«صحيح. طيب، لقد عثروا على هذه في خزانة إدوارد.»

ناولني ما تبقّى من سماعتي. كانت القطعة اليمنى قد اختفت تمامًا، وصارت اليسرى حطامًا. والتوى الشريط الذي يربط القطعتين، الجزء الخاص بـ«لوبوت»، من المنتصف.

قال الأستاذ توشمان: «مدرَسته تريد أن تعرف إذا كنت ستُقدم بلاغًا رسميًا.»

نظرت إلى سماعتي، ثم هززت كتفيَّ: «لا، لا أعتقد. لقد حصلت على سماعة أخرى بأية حال.»

«ممم. لماذا لا تتكلم عن الأمر مع والديك الليلة؟ سأتصل بوالدتك غدًا لأتكلم معها في الأمر أيضًا.»

سألته: «هل سيذهبون إلى السجن؟»

«لا، ليس السجن. لكن على الأغلب سيقفان أمام محكمة للأحداث. وربما يتعلمون درسًا بهذه الطريقة.»

مازحته قائلًا: «صدِّقني، هذا الولد إيدي لن يتعلّم أي درس.»

جلس خلف مكتبه. قال: «أوجي، لماذا لا تجلس للحظة؟»

جلست. كانت كل الأشياء على مكتبه كما رأيتها عندما دخلت إلى هذا المكتب لأول مرّة في الصيف الماضي. نفس المكعب المصنوع من المرايا، نفس الكرة الأرضية الصغيرة المعلقة في الهواء. بدا لي أن ذلك قد حدث منذ زمن بعيد.

قال، وكأنما يقرأ أفكاري: «يصعب تصديق أن السنة أوشكت على الانتهاء. هه؟»

«نعم.»

«هل كانت سنة جيدة بالنسبة إليك يا أوجي؟ هل كانت لا بأس بها؟»

أومأت برأسي: «نعم، كانت جيدة.»

«أعرف أنها كانت سنة عظيمة بالنسبة إليك من الناحية الدراسية، فأنت واحد من أكثر طلابنا تفوقًا. أهنئك على قائمة الشرف.»

«شكرًا. نعم، هذا رائع.»

قال، وهو يرفع حاجبيه: «لكنني أعرف أنها شهدت لحظات حلوة ولحظات مُرَّة. بالتأكيد، كانت تلك الليلة في المحمية الطبيعية واحدة من اللحظات المُرَّة.»

أومأت برأسي: «نعم. لكنها كانت حلوة نوعًا أيضًا.»

«من أي ناحية؟»

«يعني. أنت تعرف، كيف وقف زملائي للدفاع عني وكل هذه الأمور.»

قال مبتسمًا: «كان ذلك رائعًا.»

«نعم.»

«أعرف أنك واجهت بعض المصاعب مع جوليان في بعض الأوقات.»

أعترف، لقد فاجأني بهذا القول. سألته: «هل تعرف هذا الموضوع؟»

«مُديرو المدارس الإعدادية لديهم طريقة لمعرفة الكثير من الأشياء.»

مازحته قائلًا: «هل لديكم كاميرات أمن سِريَّة في الممرَّات؟»

ضحك، وقال: «وميكروفونات في كل مكان.»

«لا، حقاً؟»

ضحك ثانية: «لا، ليس حقًّا.»

«آه!»

«لكن المُدرِّسين يعرفون أكثر مما يظن الأولاد يا أوجي. كنت أتمنى لو جئتني أنت وجاك وأبلغتماني بالرسائل الخسيسة التي كانت تُترك في خزانتيكما.»

قلت: «كيف عرفت بهذا؟»

«قلت لك إن مُديري المدارس الإعدادية يعرفون كل شيء.»

رددت عليه: «لم يكن الأمر مُهمًا. وقد كتبنا رسائل نحن أيضًا.»

ابتسم، وقال: «لا أعرف إن كان الأمر قد أُعلن بعد، ولكنه سيُعلن قريبًا على أية حال. جوليان ألبانز لن يرجع إلى مدرسة بيتشر الخاصة العام القادم.»

قلت: «ماذا؟!»

لم أستطع إخفاء مقدار دهشتي.

أكمل الأستاذ توشمان، وهو يرفع كتفيه: «والداه يعتقدان أن مدرسة بيتشر الخاصة ليست مناسبة له.»

قلت: «ياه! هذا خبر مُهم.»

«نعم. رأيت أنك يجب أن تعرف.»

ثم فجأة، لاحظت أن رسمة ثمرة القرع التي كانت مُعلّقة خلف مكتبه اختفت، وأن رسمتي لموضوع «بورتريه شخصي في صورة حيوان»، التي رسمتها لأجل «المعرض الفني لرأس السنة»، مُؤَطّرة ومُعلّقة خلف مكتبه.

أشرت إليها: «هيه، إنها رسمتي!»

استدار الأستاذ توشمان وكأنه لا يعرف عن أي شيء أتكلم. قال، وهو يضرب جبهته: «آه. صحيح! منذ شهور وأنا أريد أن أرِيها لك.»

أومأت برأسي: «صورتي الشخصية كبطّة.»

قال: «أحب هذه الرسمة يا أوجي. عندما عَرَضْتها عليَّ مدرسة

الفنون، طلبت منها أن أعلِّقها على الحائط. أتمنى ألا يكون لديك مانع.»

«آه، لا! بالطبع لا. ماذا حدث لـ«بورتريه» ثمرة القرع؟»

«خلفك مباشرة.»

«آه، نعم. لطيف.»

قال، وهو ينظر إلى الصورة: «كنت أريد أن أسألك منذ علقتُها: لماذا اخترت أن تُصوِّر نفسك كبَطَّة؟»

أجبته: «ماذا تقصد؟ كان هذا هو الواجب.»

قال: «نعم، لكن لماذا بطة؟ هل يصح أن نفترض أن ذلك بسبب قصة الـ.. ممم، البطة الصغيرة التي تحولت إلى بَجْعة.»

ضحكت، وأنا أهز رأسي: «لا، هذا لأنني أظن أنني أُشبه البَطة.»

«آه!»

قالها الأستاذ توشمان، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، ثم بدأ يضحك: «بجد؟ هه. لقد كنت أبحث عن الرمزية والمجاز و... ممم... أحيانًا لا تكون البطة سوى بطة!»

قلت، وأنا لا أعرف لماذا وجد الأمر مُضحكًا: «نعم، على ما أظن.»

ظل يضحك مع نفسه لنصف دقيقة كاملة، وأخيرًا قال: «على أية حال يا أوجي، شكرًا على الدردشة معي. فقط أريدك أن تعرف أنه يُسعدني بجد وجودك معنا في مدرسة بيتشر الخاصة، وأنني مُتَشوِّق إلى بداية العام المقبل.»

مد يده فوق المكتب وصافحني: «أراك غدًا، في حفل التخرُّج.»

«أراك غدًا يا أستاذ توشمان.»

الوصية الأخيرة

عندما دخلنا فصل اللغة الإنجليزية للمرّة الأخيرة، رأينا تلك الكلمات مكتوبة على سبورة الأستاذ براون:

وصية الأستاذ براون لشهر يونيو:

اترك نفسك للنهار وتطلّع إلى الشمس (من أغنية لفريق «بوليفونيك سبري»)

أتمنى لكم إجازة صيفية رائعة يا فصل «٥ ب»!

كان عامًا عظيمًا، وكنتم تلاميذ رائعين.

إذا تذكرت، من فضلك أرسل إليَّ بطاقة بريدية هذا الصيف وعليها وصيتك الخاصة. يمكنها أن تكون شيئًا ابتكرته لنفسك، أو شيئًا قرأته ووجدته يعني شيئًا بالنسبة إليك. (في تلك الحالة، رجاء لا تنسَ أن تنسبه لصاحبه). إنني مُتشوّق حقًّا لاستقبال هذه البطاقات البريدية.

توم براون
٥٦٣ ميدان سبستيان
برونكس، نيويورك ١٠٠٥٣

توصيل بالسيارة

أقيم حفل الافتتاح في مسرح مدرسة بيتشر الخاصة العليا. لم تكن تبعد سوى خمس عشرة دقيقة تقريبًا سيرًا على الأقدام من بيتنا، لكن بابا أوصلني بالسيارة لأنني كنت مُهندمًا، وكان حذائي أسود لامعًا جديدًا، أرتديه لأول مرَّة، ولا أريد أن يجرح قدميَّ. كان يفترض للطلاب الوصول إلى المسرح قبل ساعة من بداية الحفل، لكننا وصلنا قبل ذلك، فجلسنا في السيارة ننتظر. شغل بابا مشغل الأقراص، وصدحت موسيقانا المفضَّلة. ابتسمنا وبدأنا نهز رأسينا مع الموسيقى.

غنَّى بابا مع الأغنية: «أندي سيجوب البلدة بالدراجة تحت المطر ليحضر لكِ الحلوى».

قلت: «اسمع، هل ربطة عنقي مضبوطة؟»

نظر إليَّ وشدها قليلًا وهو يواصل الغناء: «وجون سيشتري لكِ الفستان الذي سترتدينه في حفلة المدرسة».

قلت: «هل شعري مهندم؟»

ابتسم وأومأ برأسه، ثم قال: «رائع. تبدو رائعًا يا أوجي.»

قلت، وأنا أرفع واقي الشمس وأنظر في المرآة الصغيرة: «فيا وضعت لي بعض الـ«جِل» هذا الصباح. ألا يبدو شعري منفوشًا جدًّا؟»

«لا، إنه لطيف جدًا جدًا يا أوجي. أعتقد أنك لم تَقُصّه قصيراً هكذا من قبل، أليس كذلك؟»

«لا، قصصته أمس. أعتقد أن ذلك يجعلني أبدو أكبر، ما رأيك؟»

«بالتأكيد.»

كان يبتسم، وينظر إليَّ ويومئ برأسه: «لكنني أكثر شاب محظوظ في الحي الشرقي، لأنني أملك سيارة، وأنت تريدين ركوبة».

قال بابتسامة عريضة: «انظر إلى نفسك يا أوجي. انظر إلى نفسك، كم تبدو كبيراً وأنيقًا. لا أُصدِّق أنك ستتخرج من الصف الخامس!»

أومأت برأسي: «أعرف، أمر رائع، صح؟»

«أشعر أنك لم تدخل المدرسة إلا بالأمس.»

«هل تتذكرني بضفيرة «حرب النجوم» تتدلى من رأسي؟»

قال وهو يحك جبهته بكفه: «آه، يا خبر! صحيح.»

«كنت تكره تلك الضفيرة، صحيح يا بابا؟»

«الكُره كلمة كبيرة، لكنني بالتأكيد لم أكن أُحبُّها.»

قلت أشاكسه: «كنت تكرهها، هيا، اعترف.»

قال مُبتسمًا، وهو يهز رأسه: «لا، لم أكن أكرهها. لكنني سأعترف أنني كنت أكره خوذة رائد الفضاء تلك التي كنت تضعها على رأسك، هل تتذكر؟»

«الخوذة التي أعطتها لي ميرندا؟ بالطبع أتذكرها! كنت أضعها طوال الوقت.»

ضحك، وكأنما يضحك لنفسه، وقال: «يا ربي، كم كنت أكره هذا الشيء.»

قلت: «لقد شعرتُ بضيق شديد عندما ضاعت.»

أجاب بنبرة عابرة: «آه، إنها لم تضع. لقد رميتها.»

قلت: «انتظر، ماذا؟»

ظننت أنني لم أسمعه جيدًا.

كان يغني: «النهار جميل وأنت جميلة».

قلت، وأنا أخفض صوت الأغنية: «بابا!»

قال: «ماذا؟»

«أنت رميتها؟»

أخيرًا نظر إلى وجهي ورأى مقدار غضبي. لم أُصدِّق أنه يتعامل مع الأمر بهذه البساطة. أقصد، بالنسبة إليَّ كان هذا اكتشافًا كبيرًا، وهو يتصرف وكأنه أمر تافه.

قال، دون أن يحاول تزويق الكلام: «يا أوجي، لم أعد أتحمَّل رؤية هذا الشيء يُغطي وجهك!»

«بابا، لقد كنت أحب الخوذة! كان لها معنى كبير بالنسبة إليَّ! وضياعها ضايقني جدًّا، ألا تتذكر؟»

قال برِقة: «بالطبع أتذكَّر يا أوجي. آه يا أوجي، لا تغضب.

أنا آسف. أنا فقط لم أستطع تحمُّل رؤيتك وأنت تضع هذا الشيء على وجهك أكثر من ذلك، هل تفهم؟ لم أرَ ذلك من مصلحتك.»

كان يحاول أن ينظر في عيني، لكنني لم أنظر إليه.

واصل كلامه وهو يضع يده أسفل ذقني ويرفع رأسي تجاهه: «هيا يا أوجي، حاوِل أن تفهم من فضلك. لقد كنت تضع تلك الخوذة طوال الوقت. والحقيقة بجد بجد بجد، هي أنني اشتقت لرؤية وجهك يا أوجي. أعرف أنك لا تحبه أحيانًا، لكن عليك أن تفهم... أنا أحبه. أنا أحب وجهك يا أوجي، أحبه جدًّا ومولَع به. وقد آلم قلبي أنك تغطيه طوال الوقت.»

كان ينظر إليَّ ويُضيِّق عينيه كأنه يريدني فعلًا أن أتفهم.

قلت: «هل ماما تعرف؟»

فتح فمه على وسعه: «مستحيل. هل تمزح؟ كانت ستقتلني!»

قلت: «لقد قَلَبت المكان رأسًا على عقِب بحثًا عن الخوذة. أقصد، لقد قَضَت أسبوعًا تقريبًا وهي تبحث في كل خزانة، وفي غرفة الغسيل، وفي كل مكان.»

قال وهو يومئ برأسه: «أعرف! لهذا السبب كانت ستقتلني!»

ثم نظر إليَّ، ورأيت في تعبير وجهه شيئًا جعلني أبدأ في الضحك، ففتح فمه واسعًا وكأنه اكتشف شيئًا للتوّ.

قال، وهو يشير إليَّ بإصبعه: «انتظر دقيقة يا أوجي. يجب أن تَعِدني أنك لن تخبر ماما بأي شيء من هذا أبدًا!»

ابتسمت وفركت كفيَّ معًا في طمع. ثم قلت وأنا أربت على

ذقني: «لترَ. أريد أن تشتري لي الـ«إكس بوكس» الجديد عندما يُطرح الشهر القادم. وبالتأكيد أريد سيارة خاصة بي بعد ست سنوات تقريبًا، سيارة «بورش» حمراء ستكون لطيفة، و...»

أخذ يضحك. أشعر بالسعادة عندما أُضحك بابا، فهو دائمًا الرجل المَرِح الذي يُضحك الآخرين.

قال، وهو يهز رأسه: «آه يا ولد، آه يا ولد. لقد كبرت فعلًا.»

بدأ الجزء الذي نحب أن نغنيه، فرفعتُ صوت الأغنية. وأخذنا نغني معًا: «أنا أقبح شخص في الحي الشرقي، لكن عندي سيارة وأنت تريدين ركوبة. تريدين ركوبة. تريدين ركوبة. تريدين ركووووووووووووووووبة».

دائمًا ما نغني هذا الجزء الأخير بأعلى صوت، نحاول أن نطيل الكلمة الأخيرة بقدر ما يُطيلها مغني الأغنية، وهو ما يجعلنا دائمًا ننفجر ضاحكين. وعندما كنا نضحك لاحَظْنا أن جاك وصل ويتجه إلى سيارتنا، ففتحت الباب لكي أخرج.

قال بابا: «انتظر. أريد فقط أن أتأكد أنك سامحتني، اتفقنا؟»

«نعم، سامحتك.»

نظر إليّ بامتنان وقال: «شكرًا لك.»

«لكن لا ترمِ أي شيء يخصني ثانية من غير أن تُخبرني!»

«أعدك.»

فتحت الباب وخرجت مع وصول جاك إلى السيارة.

قلت: «أهلًا يا جاك.»

قال جاك: «أهلًا أوجي، أهلًا يا أستاذ بوملمان.»

قال بابا: «كيف حالك يا جاك؟»

قلت، وأنا أغلق الباب: «أراك لاحقًا يا بابا.»

نادى بابا، وهو يفتح الشباك الأمامي: «حظًا سعيدًا يا شباب. أراكما على الجانب الآخر من الصف الخامس!»

لوَّح لنا بيده وهو يدير المحرك ويبدأ في التحرك، لكنني جريت ناحيته، فأوقف السيارة. وضعت رأسي في الشباك حتى لا يسمع جاك ما أقوله. وسألته بصوت خفيض: «هل يُمكنكم يا جماعة ألا تُقبِّلوني كثيرًا بعد التخرُّج؟ هذا الأمر يُصيبني بالإحراج!»

«سأبذل قصارى جهدي.»

«وقل لماما أيضًا.»

«لا أظن أنها ستستطيع أن تمسك نفسها يا أوجي، لكنني سأُبلغها.»

«سلام يا بابا العزيز.»

ابتسم: «سلام يا بُني، يا بُني.»

فليجلس الجميع في مقاعدهم

دخلنا أنا وجاك خلف بعض تلاميذ الصف السادس إلى المبنى، ثم تبعناهم إلى المسرح.

كانت السيدة جي عند المدخل، تعلق البرنامج وترشد التلاميذ إلى وجهتهم.

قالت: «تلاميذ الصف الخامس يدخلون في الممر ثم إلى اليسار. تلاميذ الصف السادس إلى اليمين. ادخلوا جميعًا. ادخلوا. صباح الخير. اذهبوا إلى منطقة الاستعداد. تلاميذ الصف الخامس إلى اليسار، الصف السادس إلى اليمين...»

كان المسرح هائلًا من الداخل: ثُرَيَّات كبيرة متلألئة. جدرانًا مخمَلِيَّة حمراء. صفوفًا وصفوفًا وصفوفًا من المقاعد المبطنة تقود إلى الخشبة العملاقة. سرنا في الممر الواسع وتبعنا العلامات إلى منطقة استعداد الصف الخامس، وكانت في غرفة كبيرة إلى يسار الخشبة. وفي داخلها أربعة صفوف من الكراسي القابلة للطيِّ تواجه مقدمة الغرفة، حيث كانت تقف الأستاذة روبين، تشير لنا أن نسارع بالدخول.

«يا أولاد، اجلسوا في مقاعدكم. اجلسوا في مقاعدكم.»

كانت تقولها وهي تشير إلى صفوف الكراسي: «لا تنسوا، اجلسوا بالترتيب الأبجدي. هيا، كلكم، اجلسوا في مقاعدكم.»

مع ذلك، لم يكن الكثير من الأطفال قد وصلوا بعد، والذين وصلوا لم يكونوا منصتين لها. أنا وجاك كنا نتبارز بأوراق البرنامج الملفوفة.

«هيه، يا شباب!»

كانت سمر تتجه ناحيتنا. ترتدي فستانًا ورديًّا خفيفًا، وتضع مكياجًا خفيفًا فيما أظن.

«ياه يا سمر! تبدين رائعة.»

قلتها لأنها كانت رائعة فعلًا.

«حقًّا، شكرًا، وأنت أيضًا يا أوجي.»

قال جاك، وكأن الأمر لا يهمه: «نعم، لا بأس بك.»

أدركت لأول مرَّة أن جاك مُعجب بها.

قالت سمر: «الأمر غاية في الإثارة، صحيح؟»

أجبت وأنا أومئ برأسي: «نعم، بعض الشيء.»

قال جاك، وهو يحك جبهته: «آه يا رجل، انظر إلى هذا البرنامج. سنقضي اليوم كله هنا.»

نظرت إلى البرنامج.

الكلمة الافتتاحية لمدير المدرسة:
الدكتور هارولد جانسن

كلمة مدير المدرسة الإعدادية:
الأستاذ لورانس توشمان

«النور والنهار»:
كورال المدرسة الإعدادية

كلمة حفل تخرُّج طلاب السنة الخامسة:
هيمينا تشين

باشيلبل: «كانون في مقام ري»:
فرقة المدرسة الإعدادية لموسيقى الحجرة

«تحت الضغط»:
كورال المدرسة الإعدادية

كلمة عميد المدرسة الإعدادية:
الأستاذة جنيفر روبين

تسليم الجوائز (انظر الخلف)

مناداة الأسماء بالترتيب

سألت: «لماذا تعتقد ذلك؟»

قال جاك: «لأن كلمات الأستاذ جانسن تستمر إلى الأبد. إنه أسوأ حتى من توشمان.»

وأضافت سمر: «ماما قالت إن النعاس غلبها وهو يتكلم العام الماضي.»

سألت: «ما هو تسليم الجوائز؟»

أجاب جاك: «هذا عندما يمنحون ميداليات لأكبر مهاويس المذاكرة. ما يعني أن تشارلوت وهيمينا ستفوزان بكل شيء في

الصف الخامس، كما فازتا بكل شيء في الصف الرابع وفي الصف الثالث.»

ضحكتُ: «لكن ليس في الصف الثاني؟»

أجاب: «لم يكن هناك توزيع جوائز في الصف الثاني.»

مازحته: «ربما تفوز أنت هذا العام.»

ضحك وقال: «ليس إلا إذا كانت هناك جائزة لصاحب أسوأ درجات.»

بدأت الأستاذة روبين تزعق بصوت أعلى، وكأنها منزعجة من أن أحدًا لا يسمعها: «الجميع يجلسون في مقاعدهم! لدينا عمل كثير، فاجلسوا في مقاعدكم. لا تنسوا أن تجلسوا بالترتيب الأبجدي! من «إيه» إلى «جي» في الصف الأول. من «إتش» إلى «إن» في الصف الثاني. من «أو» إلى «كيو» في الصف الثالث. من «آر» إلى «زد» في الصف الأخير. هيا يا جماعة.»

قالت سمر، وهي تتجه إلى القسم الأمامي: «علينا أن نجلس.»

ناديت عليها: «ستأتيان إلى منزلي بعد الحفل، اتفقنا؟»

قالت، وهي تتخذ مقعدها إلى جوار هيمينا تشين: «بالتأكيد!»

غمغم جاك في أذني: «متى صارت سمر بهذا الجمال؟»

قلت ضاحكًا، ونحن نتجه إلى الصف الثالث: «اخرس يا صاحبي!»

همس، وهو يتخذ مقعده بجانبي: «بجد، متى حصل ذلك؟»

صاحت الأستاذة روبين: «أستاذ ويل. بحسب ما أعرف فإن حرف «دبليو» يقع بين حرفي «آر» و«زد»، صح؟»

نظر جاك إليها بوجه خالٍ من التعبير.

قلت: «يا صاحبي، أنت في الصف الخطأ.»

«أنا؟»

بينما كان يقف لينتقل إلى مكانه، ارتسم على وجهه تعبير هو مزيج من الارتباك الشديد ومن الشقاوة وكأنه كان يمزح مع الجميع، وقد جعلني ذلك أنفجر ضاحكًا.

شيء بسيط

بعد نحو ساعة كنا جميعًا جالسين في المسرح العملاق في انتظار أن يُلقي الأستاذ توشمان «كلمة المدرسة الإعدادية». كان المسرح أكبر حتى مما تخيلته، أكبر حتى من المسرح في مدرسة فيا. نظرت حولي، فرأيت ما يقرب من مليون شخص جالسين في مقاعد الجمهور. طيب، ربما ليسوا مليونًا، لكنهم كثيرون جدًّا.

قال الأستاذ توشمان، الواقف خلف المنصة علي الخشبة، متحدثًا في الميكروفون: «شكرًا لك أيها المدير جانسن، على تلك المقدمة الرقيقة. مرحبًا بكم، زملائي المُدرِّسين وأعضاء هيئة التدريس... مرحبًا، بالآباء والأجداد، الأصدقاء والضيوف المحترمين، ومرحبًا، على وجه الخصوص، بطلابي من الصفين الخامس والسادس... مرحبًا في احتفاليات التخرج لمدرسة بيتشر الخاصة الإعدادية!»

تصفيق حار.

تابع الأستاذ توشمان، وقد أخذ يقرأ من أوراقه البعيدة عن عينيه بنظارة القراءة المنزلقة على قمة أنفه: كل عام أُكَلَّف بكتابة كلمتين افتتاحيتين: «واحدة لحفل تخرج الصفين الخامس والسادس اليوم، وأخرى لحفل الصفين السابع والثامن الذي سيُقام غدًا.» وكل عام أقول لنفسي، لأختصر وأكتب كلمة واحدة

أستخدمها في المناسبتين. لا تبدو مهمة صعبة، صح؟ مع ذلك، فكل عام أنتهي إلى كلمتين مختلفتين، بصرف النظر عن نواياي، وقد أدركت السبب أخيراً هذا العام. ليس الأمر كما قد تظنون، ليس لمجرد أنني سأتكلم غدًا إلى جمهور أكبر سنًّا لم يتبق لهم في المدرسة الإعدادية أكثر مما قضوه، بينما أنتم أمامكم في المدرسة الإعدادية أكثر مما قضيتم. لا، أظن أن الأمر يتعلق أكثر بهذه السن التي أنتم فيها الآن، هذه اللحظة المحددة في حياتكم التي ما زالت تؤثر فيَّ، حتى بعد عشرين عامًا من صحبة طلاب في عمركم. لأنكم على الحافة يا أولاد، على الحدود الفاصلة بين الطفولة وبين كل ما يأتي بعدها. أنتم في لحظة انتقال.

واصل الأستاذ توشمان كلامه، وقد خلع نظارته وأخذ يستخدمها مشيراً بها إلينا جميعًا وسط الجمهور: «لقد اجتمعنا هنا جميعًا؛ أسَركم، وأصدقاؤكم، ومُدَرِّسوكم، لنحتفل لا بإنجازاتكم في العام المُنْصَرِم فحسب، يا طلاب مدرسة بيتشر الإعدادية، وإنما أيضًا بالإمكانات اللانهائية المتاحة أمامكم... عندما تتأملون في هذا العام المنصرم، أريد منكم جميعًا أن تنظروا أين أنتم الآن وأين كنتم من قبل. لقد ازداد طولكم جميعًا بمقدار، وازدادت قوتكم بمقدار، وازداد ذكاؤكم بمقدار... أوَهذا ما أتمناه؟»

عندها، تعالت بعض الضحكات وسط الجمهور.

«لكن أفضل قياس لدرجة نضجكم ليس بالسنتيمترات ولا بعدد اللفَّات التي تستطيعون إنجازها الآن حول الملعب، ولا حتى

بمتوسط درجاتكم - مع أن تلك الأمور مهمة، بالتأكيد. بل المقياس الأفضل هو طريقة استغلالكم لوقتكم، كيف اخترتم قضاء أيامكم هذا العام؟ ومع مَن؟ هذا، بالنسبة إليّ، هو المقياس الأعظم للنجاح.

... ثمة عبارة رائعة في كتاب أَلَّفه «جيه إم باري»، وهو ليس كتاب «بيتر بان» بالمناسبة، ولن أطلب منكم أن تصفقوا إذا كنتم تؤمنون بالجنيات...»

هنا، ضحك الجميع ثانية.

«لكن في كتاب آخر لـ«جيه إم باري» اسمه «الطائر الأبيض الصغير»... كتب يقول...»

بدأ يتصفح كتابًا صغيرًا على المنصة حتى عثر على الصفحة التي يبحث عنها، ثم وضع نظارة القراءة ثانية: «هلّا وضعنا قاعدة جديدة للحياة... أن نحاول دائمًا أن نكون أكثر طيبة مما ينبغي؟».

هنا رفع الأستاذ توشمان عينيه إلى الجمهور، وكرر قائلًا: «أكثر طيبة مما ينبغي. يا لها من عبارة رائعة، أليس كذلك؟ أكثر طيبة مما ينبغي. لأنه لا يكفي أن يكون المرء طيبًا. يجب أن يكون المرء أكثر طيبة مما يجب. إن سبب حُبي لهذه العبارة، لهذا المفهوم، هي أنها تذكرني بأننا نحمل معنا، كبشر، ليس فقط القدرة على أن نكون طيبين، وإنما اختيار الطِّيبة نفسه. وما معنى هذا؟ كيف يمكن قياس هذا الأمر؟ إنك لا تستطيع استخدام عصا القياس. إنه كما قلت من قبل: لا يشبه قياس مقدار نضجكم على مدى عام.

إنه أمر صعب الحساب، أليس كذلك؟ كيف نعرف أننا كنا طيبين؟ وما هي الطِّيبة، على أية حال؟»

وضع نظارة القراءة ثانية وبدأ يتصفح في كتاب صغير آخر، ثم قال: «ثمة فقرة أخرى في كتاب آخر أريد أن أشارككم إياها. إذا صبرتم عليّ حتى أعثر عليها... آه، ها هي. في كتاب «تحت عين الساعة»، من تأليف «كريستوفر نولان». البطل شاب يواجه بعض التحديات الاستثنائية، وفي جزء معين يساعده أحد الأشخاص: ولدٌ في فصله. على السطح، لا تتعدى تلك إيماءة صغيرة. لكن بالنسبة إلى هذا الشاب، واسمه «جوزيف»، فهي... طيب، إذا سمحتم لي...»

تنحنح وقرأ من الكتاب: «في لحظات كتلك اللحظات كان جوزيف يرى وجه الله في صورة بني الإنسان. كان يلتمع في طيبتهم معه، يتوهج في حرصهم عليه، يتجلى في اهتمامهم به، بل وكان يعانقه في نظراتهم له».

صمت لحظة ثم خلع نظارته ثانية، وكرر مبتسمًا: «يلتمع في طيبتهم معه. يا لها من شيء بسيط هذه الطِّيبة. يا لها من شيء بسيط. كلمة تشجيع لطيفة تُنطق عند الحاجة. فعل الصداقة. ابتسامة عابرة.»

أغلق الكتاب، ووضعه مكانه، ثم مال إلى الأمام على المنصة: «يا أطفال، ما أريد أن أنقله إليكم اليوم هو فَهْم قيمة هذا الشيء البسيط المُسمَّى الطِّيبة. وهذا كل ما أريد أن أترككم معه اليوم. أعرف أنني مشهور بـ... ممم... الإطناب...»

هنا، ضحك الجميع مُجدَّدًا. أظن أنه كان يعرف أنه مشهور بكلماته الطويلة. واصل قوله: «لكن ما أريد، يا طلابي، أن تأخذوه معكم من تجربة المدرسة الإعدادية، هو المعرفة الأكيدة أنه، في المستقبل الذي تصنعونه لأنفسكم، كل شيء ممكن. إذا وضع كل شخص في هذه القاعة قاعدة لنفسه مفادها أنك - أينما كنت، ووقتما كنت - ستحاول أن تتصرف بطيبة أكثر قليلًا مما ينبغي، فإن العالم سيكون مكانًا أفضل بحق. وإذا فعلتم ذلك، إذا تصرفتم بطيبة أكثر قليلًا مما ينبغي، فإن شخصًا آخر، في مكان ما، في يوم ما، قد يرى فيكم، في كل واحد منكم، وجه الله.»

توقف وهز كتفيه، ثم أضاف مُسرعًا وهو يبتسم: «أو وجه أي شيء تعتقدون أنه التمثيل الروحاني المناسب للخير المُطلَق في رأيكم.»

أثار تعبيره ضحكًا عاليًا وتصفيقًا حارًا، خصوصًا من آخر القاعة، حيث يجلس الآباء.

جوائز

أعجبتني كلمة الأستاذ توشمان، لكن يجب أن أعترف: لقد شردت قليلًا في أثناء كلمات بعض المتحدثين الآخرين.

انتبهت مجددًا عندما بدأت الأستاذة روبين تُنادي على أسماء التلاميذ الذين وردت أسماؤهم في «قائمة الشرف العليا»، لأننا كان من المفترض أن نقف عندما نسمع أسماءنا. وهكذا انتظرتُ وأنصتُّ لأسمع اسمي، بينما كانت تتلو الأسماء بالترتيب الأبجدي: «ريد كنجسلي. مايا ماركوفيتس. أوجست بولمان. وقفتُ. ثم عندما انتهت من قراءة الأسماء، طلبت منا جميعًا أن نواجه الجمهور وأن ننحني، وصفَّق الجميع.»

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن مكان والديَّ وسط هذا الزحام. كل ما كنت أراه هو الأضواء التي تبرق من كاميرات الناس وهم يلتقطون الصور، والآباء وهم يلوحون لأولادهم. تصورت ماما وهي تلوح لي من مكان ما، مع أنني لم أكن أراها.

ثم عاد الأستاذ توشمان إلى المنصة ليقدم ميداليات التفوق الدراسي. وكان جاك محقًّا؛ فازت هيمينا تشين بالميدالية الذهبية في «التفوق الدراسي العام في الصف الخامس»، وفازت تشارلوت بالميدالية الفضية، وفازت تشارلوت أيضًا بالميدالية الذهبية في

الموسيقى، وفاز أموس بميدالية «التفوق الرياضي العام»، وهو ما أسعدني بحق لأنني، منذ رحلة الطبيعة، صرت أعتبر أموس واحدًا من أقرب أصدقائي في المدرسة. لكنني تحمست جدًّا جدًّا عندما نادى الأستاذ توشمان على اسم سمر ليُسلِّمها الميدالية الذهبية في الكتابة الإبداعية. رأيت سمر تضع يدها على فمها عندما سمعت اسمها، وعندما صعدت إلى الخشبة هتفتُ بأعلى صوت: «ووو... ووو، سمر!»

لكن أظن أنها لم تسمعني.

بعد أن نُودي على الاسم الأخير، وقف التلاميذ الذين تسلَّموا جوائزهم متجاورين على الخشبة، وقال الأستاذ توشمان للجمهور: «سيداتي، سادتي. يُشرفني كثيراً أن أُقدِّم لكم أصحاب الإنجازات المدرسية في مدرسة بيتشر الخاصة لهذا العام. تهانينا لكم جميعًا.»

صفقت عندما انحنى التلاميذ على الخشبة. كنت سعيدًا جدًّا لسمر.

قال الأستاذ توشمان، بعد أن عاد التلاميذ من على الخشبة إلى مقاعدهم: «الجائزة الأخيرة هذا الصباح، هي ميدالية «هنري وارد بيتشر» لتكريم الطلاب الذين كانوا مُتميِّزين أو قدوة في مجالات معينة على مدى العام الدراسي. وقد كانت تلك الميدالية طريقتنا في تكريم المُتطوعين أو مَن أدَّوا خدمات للمدرسة.»

قدَّرتُ فورًا أن تشارلوت ستنال تلك الميدالية لأنها نظَّمت حملة التبرع بالمعاطف هذا العام، فشردت قليلًا مرَّة أخرى. نظرت إلى ساعتي: ١٠:٥٦. كنت قد بدأت أشعر بالجوع وأنتظر الغداء.

وعندما عُدت للانتباه، كان الأستاذ توشمان يقول: «كان «هنري وارد بيتشر»، بالطبع، أحد مناهضي الرِّق في القرن التاسع عشر - ومناصرًا عتيدًا لحقوق الإنسان - وقد سُميت هذه المدرسة باسمه. حين كنت أقرأ عن حياته استعدادًا لهذه الجائزة، صادفت فقرة كتبها بدت لي متوافقة على وجه الخصوص مع التيمات التي تناولتها سابقًا، التيمات التي ظللت أطرحها مرَّة بعد مرَّة على مدى العام. ليس فقط عن طبيعة الطِّيبة، وإنما عن طبيعة طيبة الشخص. قدرة صداقة الشخص. اختبار شخصية الشخص. قوة شجاعة الشخص...»

وهنا حدث أغرب شيء؛ تَهَدَّج صوت الأستاذ توشمان قليلًا، كما لو كان يختنق، بل وتنحنح ورشف رشفة كبيرة من الماء. بدأت أنتبه بحق حينئذٍ، لما كان يقول.

كرر بهدوء، وهو يومئ برأسه ويبتسم: «قوة شجاعة الشخص.»

رفع يده اليمنى وكأنه يعدُّ: «الشجاعة. الطِّيبة. الصداقة. الشخصية. تلك هي المؤهلات التي تُعرِّفنا ككائنات إنسانية، وتدفعنا، أحيانًا، ناحية العظمة. لكن كيف نفعل ذلك؟ كيف نقيس شيئًا مثل العظمة؟ مرَّة أخرى، ليس لدينا مقياس لهذه الأشياء. كيف لنا أن نعرفها؟ طيب، الحقيقة أن «بيتشر» كانت له إجابة عن هذا السؤال.»

وضع نظارته ثانية، وتصفح كتابًا، وأخذ يقول: «كتب بيتشر

يقول: «لا تكمن العظمة في أن تكون قويًّا، ولكن في الاستخدام الصحيح للقوة... أعظم الناس هو من يجتذب قلبه...».»

فجأة، اختنق مجددًا. وضع سبابتيه على فمه لثانية قبل أن يواصل أخيراً: «أعظم الناس هو من يجتذب قلبه أكبر عدد من القلوب». لن أتكلم أكثر، هذا العام أشعر بالفخر لمنح ميدالية «هنري وارد بيتشر» للطالب الذي اجتذبت قوته الهادئة أكبر عدد من القلوب. إذًا، فليتفضل أوجست بولمان بالصعود إلى هنا لاستلام جائزته.»

طفو

بدأ الناس يُصفِّقون قبل أن يتمكن عقلي من تسجيل كلمات الأستاذ توشمان. سمعت مايا، الجالسة بجواري، تُطلق صرخة سعادة صغيرة عندما سمعت اسمي، بينما ربت مايلز، الذي كان جالسًا على الجانب الآخر مني، على ظهري. وقال تلاميذ من كل مكان حولي: «قف. انهض.»

وشعرت بأيادٍ كثيرة تدفعني إلى أعلى، وتُوجهني إلى طرف الصف، وتربت على ظهري، وتضرب أكفها بكفي: «هائل يا أوجي! رائع يا أوجي!»

بل وبدأت أسمع اسمي في هتاف مُنَغَّم: «أوجي! أوجي!»

نظرت خلفي ورأيت جاك يقود الهتاف، وقبضته مرفوعة في الهواء، مُبتسمًا ومشيرًا لي أن أتقدَّم، وأموس يصرخ وقد وضع يديه حول فمه: «ووو... ووو، يا صاحبي الصغير!»

ثم رأيت سمر تبتسم وأنا أمرُّ من أمام صفها، وعندما رأتني أنظر إليها، أعطتني علامة تشجيع بأن رفعت إبهامها سرًّا، وحركت شفتيها صامتة بكلمتَي «لطيف وظريف». ضحكتُ وهززت رأسي وكأنني لا أصدِّق. لم أستطع حقًّا أن أُصدِّق.

أظن أنني كنت أبتسم. ربما كنت مُتهللًا. لا أعرف. وبينما

كنت أسير في الممر في اتجاه الخشبة، كان كل ما أراه وشيشًا من الوجوه المشرقة السعيدة تنظر إليَّ، وأياديَ تصفق لي. وسمعت أناسًا يصيحون لي بعبارات: «أنت تستحقها يا أوجي! مرحى يا أوجي!»

ورأيت كل مُدرسيَّ في المقاعد المجاورة للممر، الأستاذ براون والأستاذة بيتوسا والأستاذ روتش والأستاذة أتانابي والممرضة مولي وكل الآخرين، وكانوا يُشجعونني بالهتاف والتصفير.

شعرت وكأنني أطفو. كان شعورًا غريبًا جدًا. وكأن الشمس تشرق بكامل قوتها على وجهي والريح تهب. ومع اقترابي من الخشبة، رأيت الأستاذة روبين تلوح لي من الصف الأمامي، ثم إلى جانبها كانت السيدة جي، التي راحت تبكي بهستيريا - بكاء الفرح - تبتسم ولا تتوقف عن التصفيق. وعندما صعدت الدرج إلى الخشبة، حدث أغرب شيء: بدأ الجميع في الوقوف. لا الصفوف الأمامية فقط، ولكن كل الجمهور، وقفوا على أقدامهم فجأة. يهتفون، ويُهللون، ويصفقون بجنون. كانت «تحية وقوف». تحية لي.

قطعت الخشبة في اتجاه الأستاذ توشمان، الذي صافحني بكلتا يديه وهمس في أذني: «أحسنت يا أوجي.»

ثم وضع الميدالية الذهبية حول رأسي، تمامًا كما يفعلون في الأولمبياد، وجعلني أستدير لمواجهة الجمهور. شعرت كأنني أشاهد نفسي في فيلم، تقريبًا، وكأنني شخص آخر. كان الأمر أشبه

بهذا المشهد الأخير في «حرب النجوم - الجزء الرابع: أمل جديد»، عندما صفقوا للوك سكايووكر وهان سولو وتشوباكا بعد أن دمروا «نجم الموت». كنت أكاد أسمع موسيقى «حرب النجوم» تصدح في رأسي وأنا أقف على الخشبة.

لم أكن مُتأكدًا حتى لماذا حصلت على هذه الميدالية في الحقيقة.

لا، هذا ليس صحيحًا. كنت أعرف السبب.

الأمر مثل الناس الذين تراهم أحيانًا، ولا تستطيع أن تتخيل كيف ستُصبح حياتك إذا صرت أنت هذا الشخص، سواء كان شخصًا على كرسي مُتحرك أو شخصًا لا يستطيع الكلام. الفرق الوحيد هو أنني أنا هذا الشخص بالنسبة إلى الآخرين، ربما بالنسبة إلى كل شخص في هذه القاعة بأكملها.

مع ذلك، فأنا هو أنا بالنسبة إليَّ: طفل عادي.

لكن، إذا أرادوا أن يمنحوني ميدالية على كوني ما أنا عليه، فلا بأس. سآخذها. أنا لم أُدمِّر «نجم الموت» ولا أي شيء من هذا القبيل، لكنني اجتزت الصف الخامس. وهذا ليس بالأمر السهل، حتى إذا لم تكونوا أنا.

صور

بعدها أُقيم حفل استقبال لطلاب الصفين الخامس والسادس تحت خيمة كبيرة ضخمة في الفناء الخلفي للمدرسة. تَوَجَّه كل تلميذ إلى والديه، ولم أُمانع على الإطلاق عندما احتضنتني ماما وبابا بجنون، ولا عندما أحاطتني فيا بذراعيها وأخذت تتمايل معي يمينًا ويسارًا لنحو عشرين دقيقة. ثم احتضنني بوبا وتاتا، والخالة كيت والعم بو والعم بين. كانت عيون الجميع تتلألأ بالدموع، وخدودهم مُبللة. لكن ميرندا كانت أكثرهم مرحًا؛ كانت تبكي أكثر من أي شخص آخر، واعتصرتني بقوة حتى إن فيا اضطرت لتشدَّها بعيدًا عني، وهو ما أضحكنا نحن الاثنين.

بدأ الجميع يلتقطون صورًا لي، ويُخرجون كاميرات «فليب» الخاصة بهم، ثم أوقفني بابا أنا وسمر وجاك لصورة جماعية. وضع كلٌّ منا ذراعه حول كتف الآخر، وللمرَّة الأولى، بقدر ما أتذكَّر، لم أكن أفكر في وجهي. كنت أبتسم ابتسامة سعيدة كبيرة وقوية أمام الكاميرات المختلفة التي تطقطق ناحيتي. فلاش، فلاش، كليك، كليك. ثم جاءت تشارلوت وطلبت أن تأخذ صورة معنا، وأجبناها: «بالتأكيد، طبعًا!». ثم راح والدا تشارلوت يلتقطان مجموعتنا الصغيرة مع كل الآباء الآخرين.

الشيء التالي الذي لاحظته، كان ماكس وماكس وقد جاءَا إلينا، ثم هنري ومايلز وسافانا، ثم جاء أموس وهيمينا، وتجمعنا جميعًا متلاصقين بينما آخر الآباء يلتقطون الصور وكأننا على سجادة حمراء في مكان ما. لوكا. أيزيا. نينو. بابلو. تريستان. إيلي. ولم أعد أعرف مَن جاء أيضًا. الجميع في الواقع. كل ما كنت متأكدًا منه هو أننا كنا نضحك جميعًا ونحتضن بعضنا بعضًا، ولم يبدُ أن أحدًا منا يهتم ما إذا كان وجهي هو المجاور لوجهه أم لا. الحقيقة، ولا أقصد أن أتفاخر بذلك، بدا وكأن الجميع يريدون أن يكونوا بالقرب مني.

العودة إلى البيت سيرًا على الأقدام

عدنا إلى بيتنا سيرًا على الأقدام لتناول الكعك والآيس كريم بعد حفل الاستقبال. جاك ووالداه وشقيقه الأصغر جايمي، وسمر وأمها، العم بو والخالة كيت، العم بين، تاتا وبوبا، جوستن وفيا وميرندا، ماما وبابا.

كان واحدًا من أروع أيام يونيو، حيث السماء زرقاء صافية والشمس ساطعة، لكن الحرارة ليست شديدة للحد الذي تتمنى معه أن تكون على الشاطئ. كان يومًا كامل الأوصاف. كان الجميع سعداء. ما زلت أشعر أنني أطفو، وموسيقى بطل «حرب النجوم» في رأسي.

مشيت مع سمر وجاك، ولم نستطع التوقف عن الضحك. كل شيء كان يُضحكنا. كنا في ذلك المزاج المَرِح حيث لا يتطلب الأمر سوى أن ينظر الشخص إليك لتبدأ في الضحك.

سمعت صوت بابا أمامي فرفعت رأسي. كان يُخبر الجميع بقصة مُضحكة وهم يسيرون في شارع أمسفورت. كان الكبار يضحكون معًا أيضًا. وكما تقول ماما دائمًا: «بابا يستطيع أن يكون مُمثلًا كوميديًا.»

لاحظت أن ماما لا تسير مع مجموعة الكبار، فنظرت خلفي.

كانت تتأخر عنا قليلًا، تبتسم مع نفسها وكأنها تفكر في شيء حلو. بدت عليها السعادة.

تراجعتُ عدة خطوات وفاجأتها بحضن وهي تمشي. وضعت ذراعها حولي وضغطتني إليها. قلت بخفوت: «شكرًا على أنك جعلتِني أذهب إلى المدرسة.»

احتضنتني بقوة وانحنت وقبّلتني على جبيني. قالت برِقة: «شكرًا لك أنت يا أوجي.»

«على أي شيء؟»

قالت: «على كل ما منحته لنا. على وجودك في حياتنا. لأنك أنت...»

انحنت وهمست في أذني: «أنت «أعجوبة» بحق يا أوجي. أنت «أعجوبة».»

ملحق

وصايا الأستاذ براون

سبتمبر

إذا خُيِّرت بين الصواب والطِّيبة. اختر الطِّيبة - دكتور وايني داير

أكتوبر

أفعالك هي الآثار الشاهدة عليك - نقوش على مقبرة فرعونية

نوفمبر

لا تُصاحب من لا يرقى إلى مستواك - كونفشيوس

ديسمبر

الحظ يُحب الشجعان - فرجيل

يناير

الإنسان ليس جزيرة مكتملة في ذاتها - جون دون

فبراير

أن تعرف بعض الأسئلة أفضل من أن تعرف كل الإجابات - جيمس ثاربر

مارس

الكلمات الطيبة لا تُكلف كثيرًا، لكنها تُحقق الكثير - بليز باسكال

أبريل

الجميل طيب، ومَن يتمتع بالطِّيبة سرعان ما سيُصبح جميلًا - سافو

مايو

افعل كل ما تستطيع من خير
بكل ما تستطيع من وسائل
بكل ما تستطيع من طرق
في كل ما تستطيع من أماكن
لكل مَن تستطيع من أشخاص
طوال الوقت وبقدر ما تستطيع
- جون ويسلي رول

يونيو

اترك نفسك للنهار وتطلَّع إلى الشمس - فريق «بوليفونيك سبري»

وصايا البطاقات البريدية

وصية تشارلوت كودي

لا يكفي أن تكون ودودًا. عليك أن تكون صديقًا.

وصية ريد كنجسلي

أنقذوا المحيطات، أنقذوا العالم! - أنا!

وصية تريستان فيدلهولتزن

إذا أردت شيئًا في الحياة بحق، فعليك أن تسعى إليه. الآن اسكت، فهم على وشك إعلان الفائزين في اليانصيب! - هومر سمبسون

وصية سافانا ويتنبرج

الزهور رائعة، لكن الحب أفضل - جوستن بيبر

وصية هنري جوبلن

لا تصاحب المغفلين - هنري جوبلن

وصية مايا ماركوفيتس

كل ما تحتاجه هو الحب - فريق البيتلز

وصية أموس كونتي

لا تجهد نفسك لتبدو محبوب الجماهير، سيظهر الإجهاد عليك والجماهير لن تحب ذلك - أموس كونتي

وصية هيمينا تشين

كن صادقًا مع نفسك - هاملت، شكسبير

وصية جوليان ألبانز

أحيانًا يكون خيرًا لك أن تبدأ من جديد - جوليان ألبانز

وصية سمر داوسون

إذا استطعت اجتياز المدرسة الإعدادية من دون أن تجرح مشاعر أحد، فهذا أمر لطيف وظريف بحق - سمر داوسون

وصية جاك ويل

حافظ على هدوئك وامض في طريقك! - مقولة من الحرب العالمية الثانية

وصية أوجست بوململن

كل إنسان في العالم يجب أن يحظى بـ«تحية وقوف» على الأقل مرّة في حياته، لأننا جميعًا ننتصر على العالم - أوجي

شكر وعرفان

إنني أشعر بامتنان يفوق الوصف لوكيلتي الرائعة، أليسا أيزنر هينكن، على حُبها لهذا المخطوط حتى في مسوداته المبكرة، وعلى مناصرتها القوية لما اخترته من أسماء لنفسي، سواء كانت جيل أرامور، آر جيه بالاسيو، أو غيرها. شكرًا لجوان سلاتري، الذي أوصلتني حماسته المرحة إلى دار «نوف» للنشر. وشكرًا خاصًا جدًا لإيرين كلارك، المحرر الاستثنائي، الذي جعل هذا الكتاب على أفضل ما يكون، وعلى ما أولاه من رعاية لأوجي والرِّفاق: كنت أعرف أننا جميعًا في أيد أمينة.

شكرًا للفريق الرائع الذي عمل على «أعجوبة». أيريس براودي، أنا محظوظ بأن أسميك مُنَقِّح النص الخاص بي. كيت جارتنر وتاد كاربنتر، شكرًا لكما على الغلاف الممتاز. قبل أن أكتب هذا الكتاب بوقت طويل، أسعدني الحظ بالعمل جنبًا إلى جنب مع مُنقِّحين، ومُصحِّحين، ومُصمِّمين، ومُديري إنتاج، ومساعدي تسويق، ومسؤولي إعلان، وكل الرجال والنساء الذين يبذلون جهدهم في صمت من خلف الستار لكي تظهر الكتب، ولمندوبي المبيعات ومشتري الكتب وباعة الكتب الذين يعملون في صناعة مستحيلة ولكنها جميلة.

شكرًا لولديَّ المُدهشَين، كالب وجوزيف، على كل الفرحة التي تُنعمان بها عليَّ. على التفهُّم في كل تلك الأوقات حين تحتاج ماما إلى الكتابة، ولاختيار «الطِّيبة» دائمًا. أنتم أعجوبتي.

وفوق كل شيء، شكرًا لك يا زوجي المذهل، راسل، على آرائك الملهمة، وفطرتك، ودعمك الذي لا ينضب - ليس فقط لهذا المشروع، ولكن لكل المشروعات على مدى السنوات - ولكونك أول قُرَّائي، أول أحبابي، وكل شيء بالنسبة إليَّ. وكما قالت ماريا في فيلم «صوت الموسيقى»: «في لحظة ما في شبابي أو طفولتي، لا بد أنني فعلت شيئًا طيبًا». وإلا فكيف أُفسِّر تلك الحياة التي بنيناها معًا؟ إنني أشعر بالامتنان في كل يوم.

أخيرًا، وليس آخرًا، أُحبُّ أن أشكر الفتاة الصغيرة أمام محل الـ«آيس كريم» وكل أمثال «أوجي»، الذين ألهمتني قصصهم كتابة هذا الكتاب.

- آر. جيه.



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

«أعرف أنني لست طفلًا عاديًا في العاشرة من عمره...
الأطفال العاديون لا يراهم الناس فتتسع أحداقهم لرؤيتهم أينما ذهبوا»



هكذا يبدأ «أوجست» في سَرد قصته لنا... هو طفل وُلِدَ بوجهٍ مُشوّه يثير الذُّعر في كل مَن يراه، أجريت له العديد من الجراحات، لكن النتيجة لم ترحمه من ردود أفعال مَن حوله.

كان يدرس في منزله، وفي يوم من الأيام اقترحت والدته أن ينضم إلى مدرسة قريبة من المنزل؛ خاف «أوجي» من الفكرة، وتمنّى أن يظل في حماية منزل والديه، لكنه وافق في النهاية أن يذهب ويُجرِّب.

يتتبع هذا الكتاب رحلة «أوجي» وهو يخوض معاركه اليومية كطفل مُميز من الداخل ومُشوّه من الخارج... هل سيستطيع أن يُكوّن صداقات؟ هل سيُحبه الأطفال في المدرسة؟ هل هذا هو الحل الأفضل له أم البقاء في المنزل؟ هل سيُدمر أحلام والديه إذا قرّر عدم تكملة العام الدراسي؟

في قصة مكتوبة بصوت «أوجي»، وأخته (التي كانت دائمًا تدافع عنه)، وأصدقائهم، تنجح «آر. جيه. بالاسيو» في رسم صورة صادقة ومؤلمة ومؤثرة لصراع هذا الفتى من أجل حياة عادية، وصراع مَن حوله ليُمكنوه من هذه الحياة من دون أن يخمدوا شعلة التألق التي بداخله.

